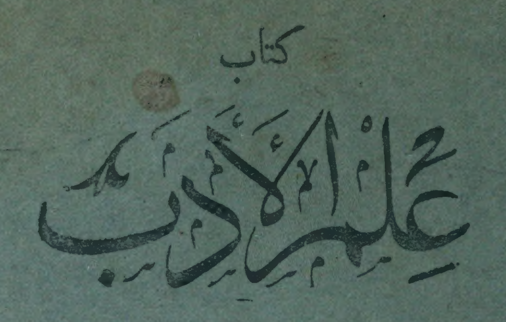


كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الاول

من

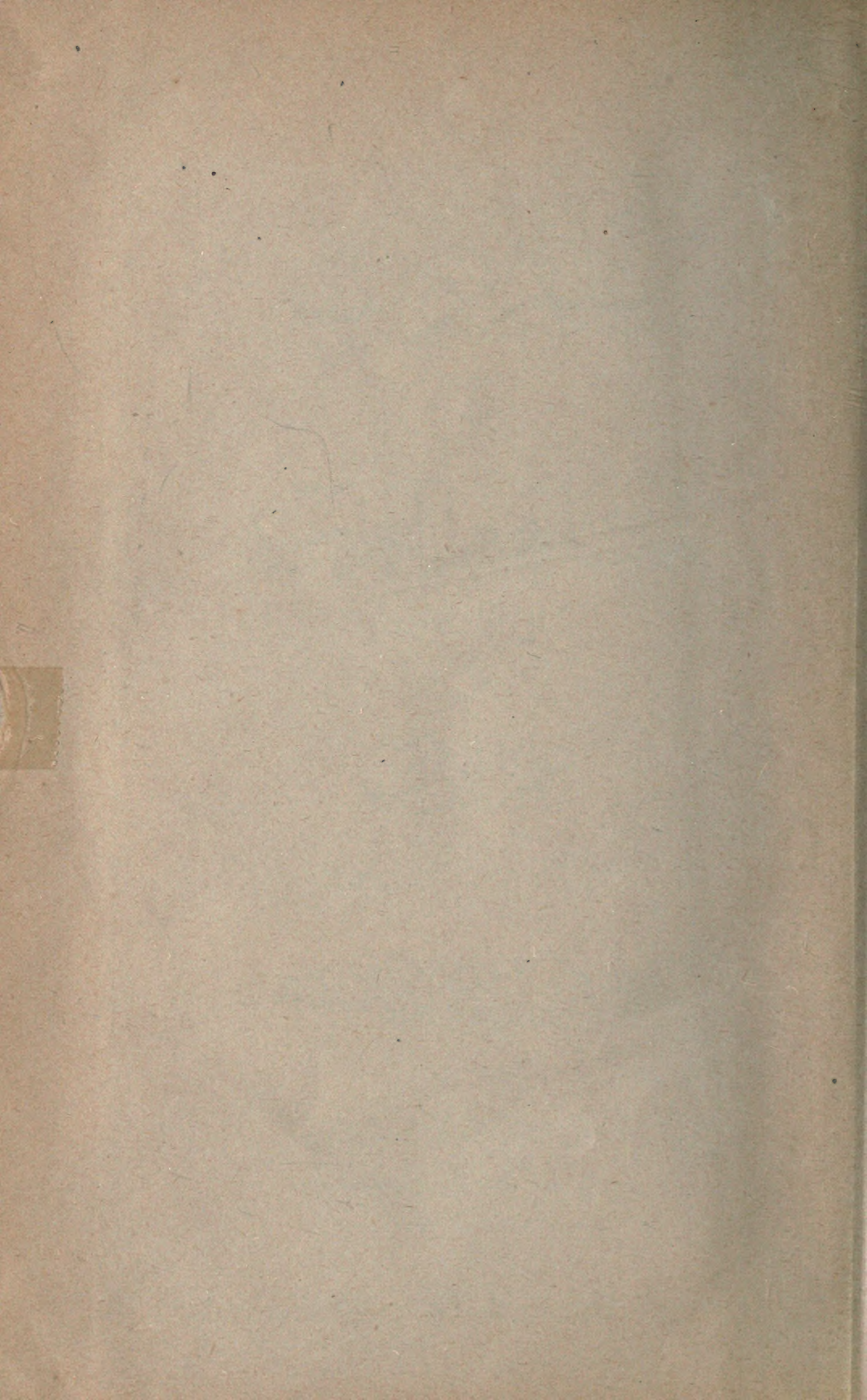
علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

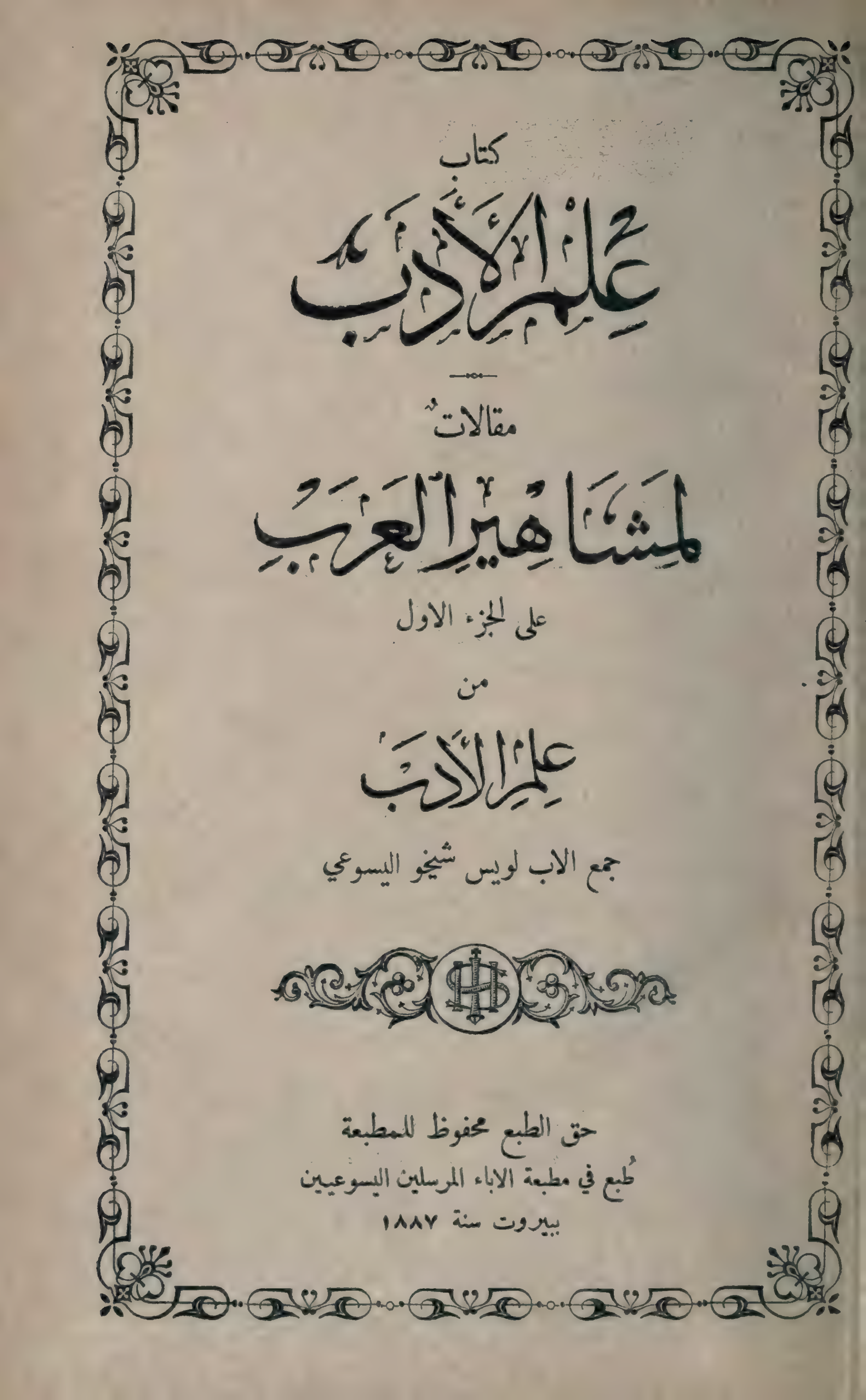


طبع في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

سنة ١٨٨٧



p 293, 295.



كتاب

عِلمُ الأَدَبِ

مقالاتٌ

لمَشَاهِيرِ العَرَبِ

على الجزء الاول

من

عِلمِ الأَدَبِ

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين
بيروت سنة ١٨٨٧


LIBRARY
NOV 30 1972
UNIVERSITY OF TORONTO

مقالات

لبعض مشاهير كتّاب العرب

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الادب واقسامهِ واركانهِ

البحث الاوَّل

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشريّ والجرجانيّ والحاج خلفا بتصرف)

(راجع الجزء الاوَّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

عِلمُ ٱلأَدَبِ عِلمٌ يُحتَرَزُ بِهِ عَنْ جَميعِ أَنواعِ ٱلخَطَإِ فِي كَلَامِ ٱلعَرَبِ لَفظًا وَكِتَابَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلتَّخَاطُبِ وَٱلمُحَاوَرَاتِ فِي إِفَادَةِ ٱلعُلُومِ وَٱستِفَادَتِهَا لَمَّا لَمْ تَتَبَيَّنْ لِلطَّالِبِينَ إِلَّا بِٱلأَلفَاظِ وَٱلكِتَابَةِ وَأَحوَالِهِمَا كَانَ ضَبطُ أَحوَالِهِمَا مِمَّا ٱعتَنَى بِهِ ٱلعُلَمَاءُ. فَٱستَخرَجُوا مِنْ أَحوَالِهِمَا عُلُومًا سَمَّوهَا بِٱلعُلُومِ ٱلأَدَبِيَّةِ لِتَوَقُّفِ أَدَبِ ٱلدَّرسِ عَلَيهَا بِٱلذَّاتِ وَأَدَبِ ٱلنَّفسِ بِٱلوَاسِطَةِ يُتَعَرَّفُ مِنهَا ٱلتَّفَاهُمُ عَمَّا فِي ٱلضَّمَائِرِ

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيَّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

اَلْاَدَبُ نَوْعَانِ نَفْسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ . فَالنَّفْسِيُّ بِتَوْفِيقِ ٱللّٰهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ . وَٱلْكَسْبِيُّ مَا ٱسْتَفَادَتْهُ ٱلْاَنْفُسُ مِنْ اَحَاسِنِ ٱلْاَقْوَالِ ٱلْآخِذَةِ بِاَعِنَّةِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْاَسْمَاعِ وَهُوَ ٱلَّذِي تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيَقَعَ ذِكْرُهُ فِي ٱلنُّفُوسِ اَحْسَنَ مَوْقِعٍ ، اَتَرْمُقَهُ لِاَجْلِهِ ٱلْعُيُونُ بِٱلْاِجْلَالِ وَتَتَحَمَّلَ ٱلنُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا اِلَيْهِ بِتَتَابُعِ ٱلْاِدْلَالِ

وَاَمَّا تَقْسِيمُ ٱلْاَدَبِ ٱلْكَسْبِيِّ فَاِنَّهُمُ ٱخْتَلَفُوا فِي اَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ٱبْنُ ٱلْاَنْبَارِيِّ اَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَّمَهُ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْجُرْجَانِيُّ اِلَى ٱثْنَيْ عَشَرَ قِسْمًا قَالَ: لِعِلْمِ ٱلْاَدَبِ اُصُولٌ وَفُرُوعٌ . اَمَّا ٱلْاُصُولُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا : (١) اِمَّا (عَنِ ٱلْمُفْرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ ٱللُّغَةِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ ٱلصَّرْفِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ ٱنْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِٱلْاَصَالَةِ وَٱلْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلِٱشْتِقَاقِ . (٢) وَاِمَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ) . فَاِمَّا بِٱعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا ٱلتَّرْكِيبِيَّةِ وَتَأْدِيَتِهَا لِمَعَانِيهَا ٱلْاَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلنَّحْوِ . وَاِمَّا بِٱعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِاَصْلِ ٱلْمَعْنَى فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا بِٱعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ ٱلْاِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ ٱلْوُضُوحِ فَعِلْمُ

ٱلْبيانِ. وَعِلمُ ٱلْبَدِيعِ ذَيلٌ لِعِلمَي ٱلمَعَانِي وَٱلْبيانِ دَاخِلٌ تَحتَهُما. (٣) وَإمَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ ٱلموزُونَةِ). فَإمَّا مِنْ حَيْثُ وَزْنِها فَعِلمُ ٱلْعَرُوضِ اَوْ مِنْ حَيْثُ اَوَاخِرِهَا فَعِلمُ ٱلْقَوَافِي

وَ امَّا ٱلفُرُوعُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا اِمَّا اَنْ يَتعَلَّقَ بِنُقُوشِ ٱلْكِتَابَةِ فَعِلمُ ٱلْخَطِّ اَوْ يَختصُّ بِٱلْمَنظُومِ فَٱلعِلمُ ٱلْمسَمَّى بِقَرْضِ ٱلشِّعرِ. اَوْ بِٱلنَّثْرِ فَعِلمُ ٱلْاِنْشَاءِ. اَوْ لَا يَختَصُّ بِشَيْءٍ فَعِلمُ ٱلْمُحَاضَرَاتِ وَمِنْهُ ٱلتَّوَارِيخُ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانهِ

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذَا ٱلعِلمُ لَا مَوضُوعَ لَهُ يُنظَرُ فِي اِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ اَوْ نَفيِهَا وَاِنَّمَا ٱلْمَقْصُودُ مِنهُ عِنْدَ اَهْلِ ٱللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ ٱلْاِجَادَةُ فِي فَنَّيِ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ عَلَى اَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ. فَيَجْمَعُونَ لِذٰلِكَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحصُلُ بِهِ ٱلْكَلِمَةُ مِنْ شِعْرٍ عَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَسَجْعٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلْاِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ ٱللُّغَةِ وَٱلنَّحْوِ مَبْثُوثَةٍ اَثْنَاءَ ذٰلِكَ مُتَفَرِّقَةٍ يَسْتَقْرِي مِنْهَا ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ اَيَّامِ ٱلْعَرَبِ لِيُفْهَمَ بِهِ مَا يَقَعُ فِي اَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ ذِكْرُ ٱلْمُهِمِّ مِنَ ٱلْاَنْسَابِ ٱلشَّهِيرَةِ وَٱلْاَخْبَارِ ٱلْعَامَّةِ. وَٱلْمَقْصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ اَنْ لَا يَخْفَى عَلَى ٱلنَّاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَاَسَالِيبِهِمْ

وَمَنَاحِي بَلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ . لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ ٱلْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هٰذَا ٱلْفَنِّ قَالُوا : ٱلْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَٱلْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ أَوِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتُونُهَا فَقَطْ إِذْ لَا مَدْخَلَ بِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُلُومِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلَفِهِمْ بِصِنَاعَةِ ٱلْبَدِيعِ مِنَ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِٱلِٱصْطِلَاحَاتِ ٱلْعِلْمِيَّةِ. فَٱحْتَاجَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا: وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ أَنَّ أُصُولَ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينَ وَهِيَ : أَدَبُ ٱلْكَاتِبِ لِٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ ٱلْكَامِلِ لِلْمُبَرَّدِ وَكِتَابُ ٱلْبَيَانِ وَٱلتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابُ ٱلنَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْقَالِي ٱلْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفَرْعٌ عَنْهَا وَكُتُبُ ٱلْمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَكَانَ ٱلْغِنَاءُ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ . وَكَانَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْفُضَلَاءُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنْتِحَالُهُ قَادِحًا فِي ٱلْعَدَالَةِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي ٱلْأَغَانِيِّ جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ .وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلْغِنَاءِ فِي ٱلْمِائَةِ صَوْتًا ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا ٱلْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَوْعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ أَتَمَّ ٱسْتِيعَابٍ وَأَدْنَاهُ . وَلَعَمْرِي

إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ اشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلتَّأْرِيخِ وَٱلْغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلْأَدَبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا ادَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلْأَدَبُ اَكْرَمُ ٱلْجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَانْفَسُهَا قِيمَةً فَاطْلُبُوهُ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَمَنْبَهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَانِيسٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ . وَإِذَا اَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ اَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ إِذَا اَكْرَمُوكَ لِدِينٍ اَوْ ادَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ٱلْفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ ... فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ ... وَٱلْمَفْخَرُ ٱلدَّيِّنُ فِيهِ ٱلْفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَإِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ اوْسَاطًا فُقْتُمْ وَإِنْ اَعْوَزَكُمُ ٱلْمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلْأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكْثِرُ ٱلْأَنْصَارَ لِغَيْرِ

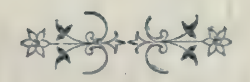
رَزِيَّةٍ . قَالَ بُزُرْجُمهرُ : مَن كَثُرَ ادَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ وَضِيعًا . وَبَعُدَ صِيتُهُ وَإِنْ كَانَ خَامِلاً . وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا وَكَثُرَتْ حَوَائِجُ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا .وَقَالُوا: مَنْ دَأَبَ فِي طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ ادْرَكَ حَاجَتَهُ وَمَلَكَ نَاصِيَتَهُ وَنَبُلَ قَدْرُهُ وَنَبُهَ ذِكْرُهُ . يَنُوبُ ٱلْأَدَبُ عَنِ ٱلنَّسَبِ وَلَا يَنْفَعُ نَسَبٌ بِلَا ادَبٍ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

كَمْ مِنْ خَسِيسٍ وَضِيعِ ٱلْقَدْرِ لَيْسَ لَهُ فِي ٱلْعِزِّ بَيْتٌ وَلَا يُنْمَى إِلَى نَسَبِ
قَدْ صَارَ بِٱلْأَدَبِ ٱلْمَحْمُودِ ذَا شَرَفٍ غَالٍ وَذَا حَسَبٍ مَحْضٍ وَذَا نَشَبِ
يُعْلِي ٱلتَّأَدُّبُ اقْوَامًا وَيَرْفَعُهُمْ حَتَّى يُسَاوُوا ذَوِي ٱلْعَلْيَاءِ فِي ٱلرُّتَبِ

وَمَا احْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ وَيَعْتَذِرُ :

مَالِيَ عَقْلِي وَهِمَّتِي حَسَبِي مَا انَا مَوْلًى وَلَا انَا عَرَبِي
وَإِذَا ٱنْتَمَى مُنْتَمٍ إِلَى احَدٍ فَإِنَّنِي مُنْتَمٍ إِلَى ادَبِي

فَٱلْبَسُوا إِذًا ٱلْأَدَبَ حُلَّةً وَتَزَيَّنُوهُ حِلْيَةً فَإِنَّهُ انْفَقُ مَعَاشٍ وَاجْمَلُ رِيَاشٍ إِنِ ٱحْتَجْتُمْ إِلَيْهِ كَانَ لَكُمْ مَالًا وَإِنِ ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنْهُ كَانَ لَكُمْ جَمَالًا



فصلٌ في قوى العقل الغريزيَّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ اُسًّا وَلِكُلِّ اَدَبٍ يَنبُوعًا . وَاُسُّ ٱلْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ ٱلْآدَابِ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنيَا عِمَادًا فَاَوْجَبَ ٱلدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ ٱلدُّنيَا مُدَبَّرَةً بِاَحْكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ . قَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْعَقْلُ خَيْرُ ٱلْمَوَاهِبِ وَٱلْجَهْلُ شَرُّ ٱلْمَصَائِبِ . قَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ :

يَزِينُ ٱلْفَتَى فِي ٱلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ   وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ

يَشِينُ ٱلْفَتَى فِي ٱلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ   وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ

يَعِيشُ ٱلْفَتَى بِٱلْعَقْلِ فِي ٱلنَّاسِ اِنَّهُ   عَلَى ٱلْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ

وَاَفْضَلُ قَسْمِ ٱللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ   فَلَيْسَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ

اِذَا اَكْمَلَ ٱلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ   فَقَدْ كَمُلَتْ اَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ : مَا اُوتِيَ ٱلْعَبْدُ بَعْدَ ٱلْاِيمَانِ بِٱللهِ تَعَالَى اَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَقْلِ . وَيُقَالُ : مَا تَمَّ دِينُ ٱمْرِئٍ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ . قَالَ بُزُرْجُمْهَرُ : ٱلْعَقْلُ كَٱلْمِسْكِ اِنْ خَبَّأْتَهُ عَبِقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ . وَقَالُوا : ٱلْعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ ٱللهُ طَبْعًا وَغَرَزَهُ فِي ٱلْقَلْبِ كَٱلنُّورِ فِي ٱلْعَيْنِ وَهُوَ ٱلْبَصَرُ .

وَكَمَا يُدْرَكُ بِٱلْبَصَرِ شَوَاهِدُ ٱلْأُمُورِ كَذٰلِكَ يُدْرَكُ بِنُورِ ٱلْعَقْلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَحْجُوبِ وَٱلْمَسْتُورِ. وَعَمَى ٱلْقَلْبِ كَعَمَى ٱلْبَصَرِ. قَالَ بُزُرْجَمْهِرُ : ٱلْإِنْسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقْلٌ فَإِنْ اخْطَأَهُ ٱلْعَقْلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فَلَيْس بِإِنْسَانٍ . قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي :

لَوْلَا ٱلْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ   أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلْعَقْلُ عَقْلاً تَشْبِيهًا بِعَقْلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ يَمْنَعُ ٱلْإِنْسَانَ مِنَ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قَبُحَتْ كَمَا يَمْنَعُ ٱلْعَقْلُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ . وَلِذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ : إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

اِعْلَمْ أَنَّ بِٱلْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ ٱلْأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ ٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ . قَالَ ٱلْعُتْبِيُّ : ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلٌ تَفَرَّدَ ٱللّٰهُ بِصُنْعِهِ وَهُوَ ٱلْأَصْلُ . وَعَقْلٌ يَسْتَفِيدُهُ ٱلْمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَوَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ تَقْوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلْمَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ   فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ

---

١ يُقال عَقَل الناقة عقلًا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويُسمَّى الحبل عقالًا

فَلَا يَنفَعُ مَسْمُوعٌ   إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعٌ
كَمَا لَا تَنْفَعُ ٱلشَّمْسُ   وَضَوْءُ ٱلعَيْنِ مَمْنُوعٌ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفهِ

(عن الماوردي باختصار)

اِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْغَرِيزِيَّ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلتَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ اِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ اِلَى نُقْصَانٍ ٠ وَبِهِ

* قد قسَّم القزوينيُّ القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال: القوى العقلية اربعة اقسام. (الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيَّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريَّة. فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريَّة والادراكات الحسيَّة فكذلك هذه القوَّة الغريزيَّة تهيئة الانسان للعلوم النظريَّة والصناعات الفكريَّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرَّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة. (الثاني) القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأَن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال له التصوُّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة. (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتَّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتَّصف بها يقال انهُ غبيٌّ غمر. فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدَّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض. (والرابع) قوَّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل. فاذا حصلت هذه القوَّة يسمَّى صاحبها عاقلًا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. والأَوَّلان بالطبع والأَخيران بالاكتساب

يمتازَ ٱلانسانُ عن سائرِ ٱلحيوانِ فاذا تمَّ في ٱلانسانِ سُمّيَ عاقلًا وخرج بهِ الى حدّ ٱلكمالِ كما قال صالح بن عبدِ ٱلقدُّوسِ :

اذا تمَّ عقلُ ٱلمرءِ تمَّتْ امورُهُ وتمَّتْ امانيهِ وتمَّ بناؤُهُ

وٱختلفَ ٱلناسُ في حدِّ ٱلعقلِ وفي صِفتهِ على مذاهبَ شتَّى فقالَ قومٌ : هو جوهرٌ لطيفٌ يُفصَلُ بهِ بينَ ٱلحقائقِ ٱلمعلوماتِ .. وهذا ٱلقولُ في ٱلعقلِ بانَّهُ جوهرٌ لطيفٌ فاسدٌ من وجهَينِ : (احدُهما) انَّ ٱلجواهرَ متماثلةٌ فلا يصحُّ ان يوجبَ بعضُها ما لا يوجبُ سائرُها ولو اوجبَ سائرُها ما يوجبُ بعضُها لاستغنى ٱلعاقلُ بوجودِ نفسهِ عن وجودِ عقلِهِ(١) . (وٱلثاني) انَّ ٱلجوهرَ يصحُّ قيامُهُ بذاتِهِ فلو كانَ ٱلعقلُ جوهرًا لجازَ ان يكونَ عقلٌ بغيرِ عاقلٍ كما جازَ ان يكونَ جسمٌ بغيرِ عقلٍ . فٱمتنعَ بهذينِ ان يكونَ ٱلعقلُ جوهرًا . وقالَ آخرونَ : ٱلعقلُ هوَ ٱلمُدرِكُ للاشياءِ على ما هيَ عليهِ من حقائقِ ٱلمعنى . وهذا ٱلقولُ وان كانَ اقربَ مما قبلَهُ فبعيدٌ منَ ٱلصوابِ من وجهٍ واحدٍ وهوَ : انَّ ٱلادراكَ من صفاتِ ٱلحيّ (٢) وٱلعقلُ عرضٌ يستحيلُ ذلكَ منهُ كما يستحيلُ ان يكونَ متلذّذًا او آلِمًا او مشتهيًا (٣) . وقالَ آخرونَ من

---

(١) يُريد انهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً لها لاتّفقا في جميع اجزائهما لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمَّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحدًا فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسهِ وهذا باطلٌ

(٢) يُريد هنا بالادراك على ما حدَّهُ الحكماء تمثيل حقيقة الشيء وحدهُ من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمَّى ايضاً التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون ملتذذاً او آلمًا او مشتهياً . لان اللذَّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركّب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ. وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْإِجْمَالِ وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ ٱلْاِحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلْإِجْمَالَ وَٱلْاِحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ. وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ. فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ . وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلْاِثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ . فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانسانيّ . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرّد مادّتهُ عن المحسوسات وهـذا ما يصنعهُ العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليّات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

إِنَّ ٱلعَقْلَ ٱلْمُكْتَسَبَ هُوَ نَتِيجَةُ ٱلعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ وَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْمَعْرِفَةِ وَصِحَّةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَإِصَابَةِ ٱلفِكْرَةِ وَلَيْسَ لِهٰذَا حَدٌّ لِأَنَّهُ يَنْمِي إِنِ ٱسْتُعْمِلَ وَيَنْقُصُ إِنْ أُهْمِلَ. وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ: (ٱلْوَجْهُ ٱلْأَوَّلُ) بِكَثْرَةِ ٱلْإِسْتِعْمَالِ إِذَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوًى وَلَا صَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ كَٱلَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي ٱلْأَسْنَانِ مِنَ ٱلْحُنْكَةِ وَصِحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ ٱلْأُمُورِ. وَلِذٰلِكَ حَمِدَتِ ٱلعَرَبُ آرَاءَ ٱلشُّيُوخِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: ٱلْمَشَايِخُ أَشْجَارُ ٱلْوَقَارِ. وَمَنَاجِعُ ٱلْأَخْبَارِ. لَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ. وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ. إِنْ رَأَوْكَ فِي قَبِيحٍ صَدُّوكَ. وَإِنْ أَبْصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوكَ. وَقِيلَ: عَلَيْكُمْ بِآرَاءِ ٱلشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ إِنْ فَقَدُوا ذَكَاءَ ٱلطَّبْعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وُجُوهُ ٱلْعِبَرِ. وَتَصَدَّتْ لِأَسْمَاعِهِمْ آثَارُ ٱلْغِيَرِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: مَنْ طَالَ عُمْرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ: وَقَالَ فِيهِ: لَا تَدَعُ ٱلْأَيَّامُ جَاهِلاً إِلَّا أَدَّبَتْهُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: كَفَى بِٱلتَّجَارِبِ تَأَدُّبًا وَبِتَقَلُّبِ ٱلْأَيَّامِ عِظَةً. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: ٱلتَّجْرِبَةُ مِرْآةُ ٱلعَقْلِ. وَٱلْغِرَّةُ ثَمَرَةُ ٱلْجَهْلِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ: كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ مَا جَرَّبُوا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

اَلَمْ تَرَ اَنَّ ٱلْعَقلَ زَينٌ لِاَهْلِهِ   وَلٰكِنْ تَمَامُ ٱلْعَقْلِ طُولُ ٱلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

اِذَا طَالَ عُمْرُ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ   اَفَادَتْ لَهُ ٱلْاَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَاَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ ٱلذَّكَاءِ وَحُسْنِ ٱلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ ٱلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ . فَاِذَا ٱمْتَزَجَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوُّ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُكْتَسَبِ . كَالَّذِي يَكُونُ فِي ٱلْاَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعَقْلِ وَجُودَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ اِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ ٱلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ : عَلَيْكُمْ بِٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ . ٱلْحَدِيدِ ٱلذِّهْنِ . وَلَعَلَّ هَرِمًا اَرَادَ اَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَٱعْتَذَرَ بِمَا قَالَ . لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ اِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا اِلَى اَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ . فَاَبَى اَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا اِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا . وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ :

يَاهَرِمُ ٱبْنَ ٱلْاَكْرَمِينَ مَنْصِبَا   اِنَّكَ قَدْ اُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ : عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ ٱلشَّبَابِ فَاِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ ٱلْقِدَمِ . وَلَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ ٱلْهَرَمِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَاَيْتُ ٱلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ ٱنْتِهَابًا   وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ ٱلسِّنِينَا

وَلَوْ اَنَّ ٱلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ   حَوَى ٱلْآبَاءُ اَنْصِبَةَ ٱلْبَنِينَا

وَحَكَى ٱلْاَصْمَعِيُّ قَالَ : قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ اَوْلَادِ ٱلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَاَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ : اَيَسُرُّكَ اَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ أَلفِ دِرْهَمٍ وَأَنتَ أَحمَقُ . قَالَ : لَا . قَالَ : فَقُلْتُ : وَلِمَ . قَالَ : أَخَافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي . فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذَا ٱلصَّبِيِّ كَيْفَ ٱسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ وَٱسْتَنْبَطَ بِجُودَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً . وَأَحْسَنُ مِنْ هٰذَا ٱلذَّكَاءِ وَٱلْفِطْنَةِ مَا حَكَى ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : إِنَّ عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا عَبْدَ ٱللهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَا لَكَ لَا تَهْرُبُ مَعَ أَصْحَابِكَ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخَافَكَ وَلَمْ يَكُنِ ٱلطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأُوسِعَ لَكَ . فَٱنْظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا ٱلْجَوَابُ مِنَ ٱلْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ ٱلْمُنَّةِ وَحُسْنِ ٱلْبَدِيهَةِ كَيْفَ نَفَى عَنْهُ ٱللَّوْمَ وَأَثْبَتَ لَهُ ٱلْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ . وَلَا لِجُودَةِ ٱلْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يَا نَفْسُ إِنَّ مُبْدِعَ ٱلْأَشْيَاءِ وَمُنْشِئَهَا جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَبْدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذَاتَ ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّمَثُّلِ . فَأَمَّا ٱلتَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ ٱلشَّيْءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَبْدَعَهُ مُبْدِعُهُ . وَأَمَّا ٱلتَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنْكِ مِنْ عَالَمِ ٱلْعَقْلِ بِمَا شَاهَدْتِهِ فِي عَالَمِ ٱلْحِسِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَمَعْنًى بِمَعْنًى كَمَا أَنْ تَدُلُّ ذَاتُ ٱلصُّورَةِ ٱلْمَطْبُوعَةِ فِي ٱلشَّمْعِ عَلَى مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا فِي ٱلطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ ٱلصُّورَةُ ٱلْمُمَثَّلَةُ فِي ٱلطَّابِعِ عَلَى مَعْنَى حَقِيقَتِهَا فِي نَفْسِ مُمَثِّلِهَا وَمُصَوِّرِهَا وَكَمَا يُؤَثِّرُ ٱلْمَاءُ فِي ٱلرَّمْلِ مَعَانِيَ حَرَكَاتِهِ وَتَمَوُّجِهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة علم الادب)

اَلْخَيالُ فِي اَللُّغَةِ بِمَعْنَى اَلشَّخْصِ وَعِنْدَ اَلْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى اِحْدَى اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ. وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ اَلصُّوَرَ اَلْمُرْتَسِمَةَ فِي اَلْحِسِّ اَلْمُشْتَرَكِ اِذَا غَابَتْ تِلْكَ اَلصُّوَرُ عَنِ اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَةِ. وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ اَلتَّجْوِيفِ اَلْاَوَّلِ مِنَ اَلتَّجَاوِيفِ اَلثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ اَلْجُمْهُورِ(١). وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ اَلْخَيَالِ بِاَنَّا اِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً اُخْرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ. فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلصُّورَةُ مَحْفُوظَةً فِينَا زَمَانَ اَلذُّهُولِ لَٱمْتَنَعَ اَلْحُكْمُ بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ. (وَٱلْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى اَلصُّورَةِ اَلْمُرْتَسِمَةِ فِي اَلْخَيَالِ اَلْمُتَأَدِّيَةِ اِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ اَلْحَوَاسِّ. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى اَلْمَعْدُومِ اَلَّذِي اَخْتَرَعَتْهُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ اَيِ اَلْمُدْرَكَةِ بِالْحَوَاسِّ اَلظَّاهِرَةِ. وَبِقَوْلِنَا مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ اَلْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا اَخْتَرَعَتْهُ اَلْقُوَّةُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ اَخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ اَلْمَحْسُوسَاتِ وَبِهٰذَا اَلْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ اَلتَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ اَلشَّاعِرِ:

وَكَاَنَّ مُحْمَرَّ اَلشَّقِيقِ م اِذَا تَصَوَّبَ اَوْ تَصَعَّدْ
اَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

(١) ليس هذا الرأي بمقرَّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوَردي باختصار)

(راجع صفحة ٦٥ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ. وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِي وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِي. وَأُنْشِدْتُ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي

إِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
أَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ. وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ: كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً. وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً. فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي. وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي. وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ. قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهَذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكَّ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ. وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: ٱجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ. وَقَالَ مَهْبُورٌ: لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْأَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ

البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ انَّ لفظَةَ ٱلذَّوقِ يَتداولُها ٱلمُعتَنُونَ بِفُنُونِ ٱلبيانِ . ومعناها حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلبلاغةِ لِلِّسانِ ٱلَّتي هِيَ مُطابَقةُ ٱلكَلامِ لِلمعنى مِن جَميعِ وُجوهِهِ بِخَواصَّ تقعُ لِلتَّراكِيبِ فِي اِفادةِ ذٰلِكَ . فالمُتكلِّمُ بِلسانِ ٱلعَرَبِ وٱلبَليغُ فِيهِ يتحرَّى ٱلهيئَةَ ٱلمُفيدَةَ لِذٰلِكَ على اساليبِ ٱلعَرَبِ وانحاءِ مُخاطَباتِهِمْ ويَنظِمُ ٱلكَلامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ جُهْدَهُ . فَإِذا ٱتَّصلَتْ مَقاماتُهُ بِمُخالَطَةِ كَلامِ ٱلعَرَبِ حَصلَتْ لهُ ٱلمَلَكةُ فِي نَظمِ ٱلكَلامِ عَلى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ وَسَهُلَ عَلَيهِ امرُ ٱلتَّركِيبِ حتَّى لا يَكادُ يَنحُو فِيهِ غَيرَ مَنحَى ٱلبلاغةِ ٱلَّتي لِلعَرَبِ . وَإنْ سَمِعَ تَركِيباً غَيرَ جارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلمَنحَى مَجَّهُ وَنَبا عَنهُ سَمعُهُ بادنى فِكرٍ بَلْ وَبِغَيرِ فِكرٍ اِلَّا بما ٱستفادَهُ مِنْ حُصولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكةِ . فَإنَّ ٱلمَلَكاتِ إِذا ٱستَقرَّتْ وَرَسَختْ فِي مَحالِّها ظَهرَتْ كأنَّها طَبِيعةٌ وَجِبلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلمَحَلِّ . وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعرِفْ شَأْنَ ٱلمَلَكاتِ انَّ ٱلصَّوابَ لِلعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ اِعراباً وبَلاغةً امرٌ طَبِيعيٌّ وَيقولُ : كانَتِ ٱلعَرَبُ تَنطِقُ بِٱلطَّبعِ . ولَيسَ كَذٰلِكَ . وَإنَّما هِيَ مَلَكةٌ لِسانِيَّةٌ فِي نَظمِ ٱلكَلامِ تَمكَّنَتْ وَرَسَختْ فَظَهرَتْ فِي بادِي ٱلرَّأْيِ انَّها جِبلَّةٌ وَطَبعٌ وَهٰذِهِ

ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ. وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ. فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا. وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ إِلَى وُجُوهِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ. وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هٰذِهِ ٱلسَّبِيلِ ٱلْمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا وَاقَعَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ. وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلَاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ. وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَٱلْبَيَانِيَّةِ. فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُفَادَةِ بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهٰذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ. وَكَذٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذٰلِكَ بِحَيْثُ يُحَصِّلُ ٱلْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ

اَحْيَائِهِمْ. وَٱلْقَوَانِينُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا. وَٱسْتُعِيرَ لِهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرْسَخُ وَتَسْتَقِرُّ اسْمُ ٱلذَّوْقِ ٱلَّذِي ٱصْطَلَحَ عَلَيْهِ اَهْلُ صِنَاعَةِ ٱلْبَيَانِ. وَٱلذَّوْقُ اِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ لَكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي ٱللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ ٱلنُّطْقِ بِٱلْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لِإِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ ٱسْتُعِيرَ لَهَا ٱسْمُهُ وَاَيْضًا فَهُوَ وِجْدَانِيٌّ لِلِّسَانِ كَمَا اَنَّ ٱلطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ. وَاِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ اَنَّ ٱلْاَعَاجِمَ ٱلدَّاخِلِينَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلطَّارِئِينَ عَلَيْهِ ٱلْمُضْطَرِّينَ اِلَى ٱلنُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ اَهْلِهِ كَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَكَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ فَاِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هٰذَا ٱلذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي قَرَّرْنَا اَمْرَهَا. لِاَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ اُخْرَى اِلَى ٱللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ اَنْ يَعْتَنُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ اَهْلُ ٱلْمِصْرِ(١) بَيْنَهُمْ فِي ٱلْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يَضْطَرُّونَ اِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِاَهْلِ ٱلْاَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ. وَاِنَّمَا لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مَلَكَةٌ اُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةُ ٱللِّسَانِ ٱلْمَطْلُوبَةُ. وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُسَطَّرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ اِنَّمَا حَصَّلَ اَحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ وَاِنَّمَا تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْاِعْتِيَادِ وَٱلتَّكَرُّرِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ. فَاِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ اَنَّ سِيبَوَيْهِ وَٱلْفَارِسِيَّ وَٱلزَّمَخْشَرِيَّ وَاَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ كَانُوا اَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ لَهُمْ فَٱعْلَمْ اَنَّ اُولٰئِكَ ٱلْقَوْمَ

(١) وفي نسخة: اهل المُضَر

اَلَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ اِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَامَّا الْمَرْبَى وَالنَّشْأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ اَهْلِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَاسْتَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا وَرَاءَهَا . وَكَأَنَّهُم فِي اَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي اَحْيَائِهِمْ(١) حَتَّى اَدْرَكُوا كُنْهَ اللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ اَهْلِهَا . فَهُمْ وَاِنْ كَانُوا عَجَمًا فِي النَّسَبِ فَلَيْسُوا بِاَعْجَامٍ فِي اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ لِاَنَّهُمْ اَدْرَكُوا الْمِلَّةَ فِي عُنْفُوَانِهَا وَاللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ اَهْلِ الْاَمْصَارِ . ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمُمَارَسَةِ وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ . وَالْوَاحِدُ الْيَوْمَ مِنَ الْعَجَمِ اِذَا خَالَطَ اَهْلَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْاَمْصَارِ فَاَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ الْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً اُخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ اِذَا فَرَضْنَا اَنَّهُ اَقْبَلَ عَلَى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَاَشْعَارِهِمْ بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ اَنْ يَحْصُلَ لَهُ بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ اَنَّ الْمَلَكَةَ اِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ اُخْرَى فِي الْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ اِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً . وَاِنْ فَرَضْنَا عَجَمِيًّا فِي النَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ اِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْحِفْظِ وَالْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لَكِنَّهُ مِنَ النُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا الذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ اَوْ مُغَالَطَةٌ وَاِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ اِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْبَيَانِيَّةِ

---

(١) وفي نسخة : في اجيالهم

وَلَيسَتْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ اغْرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ افْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى ايْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ . فَانَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُزَكِّي ٱلْفِطْنَةَ . وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتَعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا ارَادَ . وَايْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ انَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجُودَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ اوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ . وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْأَفْكَارُ فِي ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ ارْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و١٠ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي اَنَّ مَدَارَ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ عَلَى حَاكِمِ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ ٱلَّذِي هُوَ اَنْفَعُ مِنْ ذَوْقِ ٱلتَّعْلِيمِ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ وَاِنْ كَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ اِلَيْكَ اُسْتَاذًا اَوْ اِذَا سَأَلْتَ عَمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي فَنِّهِ قِيلَ لَكَ هٰذَا فَاِنَّ ٱلدُّرْبَةَ وَٱلْاِدْمَانَ اَجْدَى عَلَيْكَ نَفْعًا وَاَهْدَى بَصَرًا وَسَمْعًا. وَهُمَا يُرِيَانِكَ ٱلْخَبَرَ عِيَانًا وَيَجْعَلَانِ عُسْرَكَ مِنَ ٱلْقَوْلِ اِمْكَانًا وَكُلَّ جَارِحَةٍ مِنْكَ قَلْبًا وَلِسَانًا. فَخُذْ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ مَا اَعْطَاكَ وَٱسْتَنْبِطْ بِاِدْمَانِكَ مَا اَخْطَاكَ. وَمَا مَثَلِي فِيمَا مَهَّدْتُهُ لَكَ مِنْ هٰذَا ٱلطَّرِيقِ اِلَّا كَمَنْ طَبَعَ سَيْفًا وَوَضَعَهُ فِي يَمِينِكَ لِتُقَاتِلَ بِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَخْلُقَ لَكَ قَلْبًا فَاِنَّ حَمْلَ ٱلنِّصَالِ غَيْرُ مُبَاشَرَةِ ٱلْقِتَالِ

وَاِنَّمَا يَبْلُغُ ٱلْاِنْسَانُ غَايَتَهُ   مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِٱلرَّحْلِ شِمْلَالُ

وَاِنَّ صَاحِبَ ٱلْكِتَابَةِ لَا يَرَى فِي اَمْرِهِ اِلَّا صُعُوبَةً وَوُعُورَةً وَطَرِيقًا مُشْكِلَةَ ٱلْمَذَاهِبِ كَثِيرَةَ ٱلشِّعَابِ. فَاِذَا اَكْرَهَ خَاطِرَهُ عَلَى سُلُوكِهَا وَشَجَّعَهُ عَلَى تَوَرُّدِهَا فَمَا مَضَى بِهِ هُنَيْهَةٌ حَتَّى يَسْتَمِرَّ بِهِ ٱلطَّرِيقُ وَيَتَّضِحَ لَدَيْهِ. وَٱلتَّعَبُ عَلَى مَنَازِلِ ٱلْعَلْيَاءِ اِمَارَةٌ

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السائر باختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَمَّا حُبِّبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِي ٱللهُ مِنْهَا مَا بَلَّغَنِي وَجَدتُّ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ : (ٱلْأُولى) أَنْ يَتَصَفَّحَ ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى أَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وَهٰذِهِ أَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةٍ حَسَنَةٍ إِمَّا فِي تَحْسِينِ ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي. وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطَى وَهِيَ أَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هَمَّهُ إِلَى حِفْظِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْأَخْبَارِ وَعِدَّةٍ مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلِٱقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لِنَفْسِهِ. وَأَخْلِقْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شَرِكَةَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلِٱجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ . إِلَّا أَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللهُ

تَعالَى لِسانًا هجّامًا وخاطِرًا رقّامًا وإنّما تكونُ نفاسَةُ ٱلأشياء بِعِزَّةِ حُصولِها ومَشَقَّةِ وُصولِها :

لَيسَ حُلوًا وُجودُكَ ٱلشيءَ تَبْغيهِ م طِلابًا حَتَّى يَعِزَّ طِلابُهْ

وهذهِ ٱلطَّريقُ يَجهَلُها كَثيرٌ مِنْ مُتعاطِي هٰذهِ ٱلصِّناعَةِ وٱلَّذي يَعلَمُها مِنهُمْ يَرْضَى بِٱلحَواشِي وٱلأَطرافِ ويَقنَعُ مِنْ لآلِيها بِمعرِفةِ ما في ٱلأصداف . ولا أُريدُ بِهٰذهِ ٱلطَّريقةِ أنْ يَكونَ ٱلكاتِبُ مُرتبِطًا في كِتابَتِهِ بِما يَستَخرِجُهُ بِحَيثُ أنَّهُ لا يُنشِئُ كِتابًا إلّا مِنْ ذٰلكَ بَلْ أُريدُ أنَّهُ إذا حَفِظَ مِمّا قدَّمْنا شَيئًا ثُمَّ نَقَّبَ عَنْ ذٰلِكَ تَنقِيبَ مُطَّلِعٍ عَلَى مَعانِيهِ مُفَتِّشٍ عَنْ دَفائِنِهِ وقَلَّبَهُ ظَهرًا لِبَطنٍ عَرَفَ حِينَئذٍ مِنْ أينَ تُؤكَلُ ٱلكَتِفُ فِيما يُنشِئُهُ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ وٱستَعانَ بِٱلمَحفوظِ عَلَى ٱلغَريزَةِ ٱلطَّبيعيَّةِ . ألا تَرَى صاحِبَ ٱلاجتِهادِ مِنَ ٱلفُقَهاءِ يَفتَقِرُ إلى مَعرِفَةِ أخبارِ ٱلأحكامِ وإلى معرِفةِ عِلمِ ٱلعَرَبيَّةِ وٱلفَرائِضِ وٱلحِسابِ مِنَ ٱلمَعلومِ وٱلمَجهولِ . وكَذٰلِكَ يَجري ٱلحُكمُ فِي ٱلكاتِبِ إذا أحَبَّ ٱلتَّرَقِّي إلى درجةِ ٱلاجتِهادِ في ٱلكِتابَةِ فإنَّهُ يَحتاجُ إلَى أدواتٍ كَثيرَةٍ سَنَذكُرُها

فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ إِنَّهُمْ قَدِ ٱسْتَحْسَنُوا فِي ٱلْكَاتِبِ ٱعْتِدَالَ ٱلْقَامَةِ وَصِغَرَ ٱلْهَامَةِ وَخِفَّةَ ٱللَّهَازِمِ وَصِدْقَ ٱلْحِسِّ وَلُطْفَ ٱلْمَذْهَبِ وحَلَاوَةَ ٱلشَّمَائِلِ وحُسْنَ ٱلْاِشَارَةِ ومَلَاحَةَ ٱلزِّيِ حَتَّى قَالَ بَعْضُ ٱلْمَهَالِبَةِ لِوُلْدِهِ : تَزَيَّوْا بِزِيِّ ٱلْكُتَّاب فَاِنَّ فِيهِمْ ادبَ ٱلْمُلُوكِ وتَوَاضُعَ ٱلسُّوقَةِ . وَقِيلَ : اِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ ٱلْكِتَابَةِ ان يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ نَقِيَّ ٱلْمَلْبَسِ نَظِيفَ ٱلْمَجْلِسِ ظَاهِرَ ٱلْمُرُوَءَةِ دَقِيقَ ٱلذِّهْنِ حَسَنَ ٱلْفَهْمِ وَافِرَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَقْلِ صَادِقَ ٱلْحِسِّ حَسَنَ ٱلْبَيَانِ صَحِيحَ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعِبَارَةِ مَلِيحَ ٱلتَّأَنِّي فِي نَظْمِ ٱلْمَعَانِي ونَثْرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي ٱللِّسَانِ حُلْوَ ٱلْاِشَارَةِ مَلِيحَ ٱلْاِسْتِعَارَةِ لَطِيفَ ٱلْمَسَالِكِ مُسْتَقِرَّ ٱلتَّرْكِيبِ . وَلَا يَكُونَ مَعَ ذٰلِكَ فَدْمَ ٱلْمَنْظَرِ مُتَفَاوِتَ ٱلْاَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ ٱلْخَلْقِ . فَاِنَّهُمْ زَعَمُوا انَّ هٰذِهِ ٱلصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا ٱلذَّكَاءِ وَٱلْفِطْنَةُ . وَاِنِ ٱتَّفَقَ انْ يَكُونَ حَسَنَ ٱلْخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَالَّا فَيَكُونُ هُوَ ٱلْمُنْشِئَ وَغَيْرُهُ ٱلْكَاتِبَ . ونَظَرَ احْمَدُ ٱبْنُ خَصِيبٍ اِلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ فَقَالَ : لَاَنْ يَكُونَ هٰذَا فِنطَاسَ مَرْكَبٍ اشْبَهُ مِنْ انْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَلَيْكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ... ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَهْ

تُنَاجِيهِ بِطَرْفِكَ مِنْ بَعِيدٍ ... فَيَفْهَمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِالْاشَارَهْ

فَإِذَا ٱجْتَمعَتْ لِلْكَاتِبِ هٰذِهِ ٱلْخِلَالُ وَٱنْتَظَمتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ فَهُوَ ٱلْكَاتِبُ ٱلْبَلِيغُ وَٱلْأَدِيبُ ٱلنِّحْرِيرُ وَإِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ اداةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَدوَاتِ فَهُوَ مَنْقُوصُ ٱلْجَمَالِ مُنْكَسِفُ ٱلْحِسِّ مَنْحُوسُ ٱلنَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعلَمْ انَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ إِلَى آلَاتٍ كَثِيرَةٍ .وَقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ انْ يَتَعَلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ : كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ انْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلنَّحْوِيُّ وَفُلَانٌ ٱلْفَقِيهُ وَلَا يَسُوغُ لَهُ انْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَى ٱلْكِتَابَةِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلْكَاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ .وَمِلَاكُ هٰذَا كُلِّهِ ٱلطَّبْعُ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَإِنَّهُ لَا تُغْنِي تِلْكَ ٱلْآلَاتُ شَيْئًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ ٱلنَّارِ ٱلْكَامِنَةِ فِي ٱلزِّنَادِ وَٱلْحَدِيدَةِ ٱلَّتِي يُقْدَحُ بِهَا. الَا تَرَى انَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلزِّنَادِ نَارٌ لَا تُفِيدُ تِلْكَ ٱلْحَدِيدَةُ شَيْئًا . وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا مِنْ غَرَائِبِ ٱلطِّبَاعِ فِي تَعَلُّمِ ٱلْعُلُومِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفَاذٌ فِي تَعَلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلِ ٱلْمَسْلَكِ صَعْبِ ٱلْمَأْخَذِ فَإِذَا كُلِّفَ تَعَلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ ٱلْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَاَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ اَنَّ صَاحِبَ ٱلطَّبْعِ فِي ٱلْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي ٱلْمَدِيحِ دُونَ ٱلْهِجَاءِ اَوْ فِي ٱلْهِجَاءِ دُونَ ٱلْمَدِيحِ اَوْ يُجِيدُ فِي ٱلْمَرَاثِي دُونَ ٱلتَّهَانِئِ اَوْ فِي ٱلتَّهَانِئِ دُونَ ٱلْمَرَاثِي. وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ ٱلطَّبْعِ فِي ٱلْمَنْثُورِ. هٰذَا ٱبْنُ ٱلْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ ٱلْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْمَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ ٱلْإِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ ٱلْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ اَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأُفْحِمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ ٱلشَّيْخِ اَبِي مُحَمَّدٍ اَحْمَدَ بْنِ ٱلْخَشَّابِ ٱلنَّحْوِيِّ اَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ٱبْنُ ٱلْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ اَيْ اِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَاِنْ اَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئًا . فَٱنْظُرْ اَيُّهَا ٱلْمُتَأَمِّلُ اِلَى هٰذَا ٱلتَّفَاوُتِ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ وَمِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا ٱلْبَيَانُ وَٱلْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفتهُ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ اَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ ٱلنَّحْوِ) ٱلَّتِي يَحْصُلُ بِهَا ٱلْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ ٱسْتِشْرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلاعْرَابِ وَيُلَازِمُهُ وَيَجْعَلُهُ دَأْبَهُ لِيَرْتَسِمَ فِي فِكْرِهِ وَيَدُورَ عَلَى لِسَانِهِ وَيَنطَلِقَ بِهِ عِقَالُ قَلَمِهِ وَكَلِمِهِ وَيَزُولَ بِهِ ٱلْوَهْمُ عَنْ سَجِيَّتِهِ وَيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ عِبَارَتِهِ . فَإِنَّهُ لَوْ اَتَى مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِاَتَمِّ مَا يَكُونُ وَلَحَنَ ذَهَبَتْ مَحَاسِنُ مَا اَتَى بِهِ وَٱنْهَدَّتْ طَبَقَةُ كَلَامِهِ وَأُلْقِيَ جَمِيعُ مَا يُحْسِنُهُ وَوُقِفَ بِهِ عِنْدَ مَا جَهِلَهُ . وَيَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ قِرَاءَةُ مَا تَيَهَّأَ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ (كُتُبِ ٱللُّغَةِ) كَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبٍ وَكِفَايَةِ ٱلْمُتَحَفِّظِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱلالْفَاظِ لِيَتَّسِعَ عَلَيْهِ نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ وَيَنْفَسِحَ لَهُ مَجَالُ ٱلْعِبَارَةِ وَيَنْفَتِحَ لَهُ بَابُ ٱلاَوْصَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ اِلَى وَصْفِهِ مِنْ خَيْلٍ اَوْ سِلَاحٍ اَوْ حَرْبٍ اَوْ سَيْرٍ اَوْ قِتَالٍ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْتَاجُ اِلَى وَصْفِهِ وَيُضْطَرُّ اِلَى نَعْتِهِ . وَيَتَّصِلُ بِذٰلِكَ حِفْظُ (خُطَبِ ٱلْبُلَغَاءِ) مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُرَاجَعَاتِهِمْ وَمَا ٱدَّعَاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ اَوْ لِقَوْمِهِ وَمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِ خَصْمُهُ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْوَقَائِعِ بِنَظَائِرِهَا وَتَلَقِّي ٱلْحَوَادِثِ بِمَا شَاكَلَهَا وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ مَنْ فَلَجَ عَلَى خَصْمِهِ وَٱقْتِفَاءِ آثَارِ مَنِ ٱضْطُرَّ اِلَى عُذْرٍ اَوْ اِبْطَالِ دَعْوَى اَوْ اِثْبَاتِهَا فَلَحَنَ بِحُجَّتِهِ وَتَخَلَّصَ بِلُطْفِ مَأْخَذِهِ وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ وَحُسْنِ عِبَارَتِهِ . . .

فَٱنظُرْ فِي هٰذَا وَاَمْثَالِهِ وَٱلْحِفْظُ مِنْهُ وَٱلاِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ مِمَّا يَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَيَفْتِقُ ٱلاذْهَانَ وَيَرْتَسِمُ فِي ٱلْخَوَاطِرِ وَيَكْمُنُ فِي ٱلافْكَارِ حَتَّى يَفِيضَ مَا غَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِ ٱلْقَلَمِ وَيَبْدُو مِنْهُ لِكُلِّ وَاقِعَةٍ مِنْوَالٌ يُنْسَجُ عَلَيْهِ وَمِثَالٌ يُنْظَرُ فِي نَظَائِرِ ٱلأُمُورِ اِلَيْهِ

ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي (اَيَّامِ ٱلْعَرَبِ) وَوَقَائِعِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَتَسْمِيَةِ ٱلأَيَّامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ أَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ أَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ أَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا ٱتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا أَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُودَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَإِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ إِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَإِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا أَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْأَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لِمَا فِي

ذٰلكَ مِنْ غزارةِ ٱلْموادِ وصحةِ ٱلاستشهادِ وكثرةِ ٱلنقلِ وصقلِ مرآةِ ٱلعقلِ وٱنتزاعِ ٱلأمثالِ وٱلأخذِ في ٱختراعِ ٱلمعاني على اصحّ مثالٍ وٱلاطّلاعِ على اصولِ ٱللغةِ وشواهدِها وٱلاضطلاعِ مِنْ نوادرِ ٱلعربيّةِ وشواردِها . وقد كانَ ٱلصدرُ ٱلأوّلُ يعتنونَ بذٰلكَ غايةَ ٱلاعتناءِ . فذُكِرَ انَّ عمرَ كانَ يُقدّمُ زُهيرَ بنَ ابي سلمى في ٱلشعرِ فقيلَ لهُ : بِمَ ٱستحقَّ ذٰلكَ عندكَ . فقالَ : كانَ لا يُعاظِلُ بينَ ٱلقولِ ولا يتّبعُ حوشيَّ ٱلكلامِ ولا يصفُ ٱلرجلَ الّا بما يكونُ في ٱلرجالِ . فاذا اكثرَ ٱلمترشّحُ للكتابةِ مِنْ حفظِ خيارِ ٱلشعرِ وتدبّرَ معانيَهُ يسهلُ عليهِ حلُّهُ وظهرتْ لهُ مواضعُ ٱلاستشهادِ بهِ وساقهُ ٱلكلامُ الى ابرازِ ما في ذخيرةِ حفظِهِ ووضعِهِ في مكانِهِ ونقلِهِ في ٱلاستشهادِ اوِ ٱلتضمينِ الى ما كأنّهُ وُضعَ لهُ . . . .

وكذٰلكَ حفظُ جانبٍ جيّدٍ مِنْ شعرِ ٱلمحدَثينَ كأبي تمّامٍ ومسلمِ ٱبنِ ٱلوليدِ وٱلبحتريِّ وٱبنِ ٱلروميِّ وٱلمتنبّي لِلُطفِ مأخذِهِمْ ودورانِ ٱلصناعةِ في كلامِهِمْ ودقّةِ توليدِ ٱلمعاني في اشعارِهِمْ وقربِ اسلوبِهِمْ مِنْ اسلوبِ ٱلخطابةِ وٱلكتابةِ وخصوصًا ٱلمتنبّي ٱلذي كأنّهُ ينطقُ عنْ ألسنةِ ٱلناسِ في محاوراتِهِمْ . وكثرَ ٱلاستشهادُ لشعرِهِ حتّى قلَّ مَنْ يجهلُهُ وحتّى ٱكتُفيَ بٱلبيتِ ٱلواحدِ في ٱلدلالةِ على ٱلقصدِ وبلوغِ ٱلغرضِ في ٱلجوابِ كما كتبَ بعضُ ملوكِ ٱلعربِ الى مَنْ كرّرَ كتبَهُ وارسلَهُ اليهِ بقولِ ٱلمتنبّي :

وَلَا كُتْبَ الّا ٱلمَشْرفيّةُ عِنْدَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ وَلَا رُسُلٌ الّا ٱلخَميسُ ٱلعَرَمْرَمُ

وَكَذلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي رَسَائِلِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ دُونَ حِفْظِهَا لِمَا فِي ٱلنَّظَرِ فِيهَا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْقَرِيحَةِ وَإِرْشَادِ ٱلْخَاطِرِ وَتَسْهِيلِ ٱلطُّرُقِ وَٱلنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ ٱلْمُجِيدِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ ٱلْمُحْسِنِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا ٱنْتَجَتْهُ ٱلْقَرَائِحُ مِنْ أَبْكَارِ ٱلْأَفْكَارِ وَٱسْتِحْلَاءِ مَا رَوَّقَتْهُ ٱلْخَوَاطِرُ مِنْ حِيَاضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ ٱلْقَاصِرَ وَٱلِاحْتِرَازِ مِمَّا أَظْهَرَهُ ٱلنَّقْدُ وَرَدِّ مَا بَهْرَجَهُ ٱلسَّبْكُ . فَأَمَّا ٱلنَّهْيُ عَنْ حِفْظِ ذٰلِكَ فَلِئَلَّا يَكِلَّ ٱلْخَاطِرُ عَمَّا فِي حَاصِلِهِ وَيَسْتَنِدَ ٱلْفِكْرُ إِلَى مَا فِي مُودَعِهِ وَيَكْتَفِي بِمَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَلَبَّسَ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ . . . .

وَكَذلِكَ (ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَمْثَالِ) ٱلْوَارِدَةِ عَنِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا كَأَمْثَالِ ٱلْمَيْدَانِيِّ وَٱلْفَضْلِ بْنِ سَلَمَةَ ٱلضَّبِّيِّ وَحَمْزَةَ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَأَمْثَالِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْوَارِدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَأَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَمْثَالِ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْحَيَوَانِ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِيَسْتَشْهِدَ بِٱلْمَثَلِ فِي مَوْضِعِهِ وَيُورِدَهُ فِي مَكَانِهِ وَيَكُونَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَصْلِهِ وَأَوَّلِ مَنْ أَرْسَلَهُ مَثَلًا وَمَنِ ٱسْتَشْهَدَ بِهِ وَذِكْرِ سَبَبِهِ . . . .

وَأَمَّا (ٱلتَّمَثُّلُ بِٱلشِّعْرِ) فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَمَثَّلَ يَوْمًا بِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

ثُمَّ قَالَ : لِمَنْ هٰذَا . فَقِيلَ لَهُ : لِلنَّابِغَةِ . فَقَالَ : ذَاكَ أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ . وَسَأَلَ عُمَرُ ٱبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ عَنْهُ فَأَعْجَبَهُ جَوَابُهُ فَقَالَ :

شِنْشِنَةٌ اعرِفُها مِنْ اَخزَم . وَامْثالُ ذٰلِكَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ ٱلصَّحابَةُ كَثيرٌ .

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي (ٱلْاَحكامِ ٱلسُّلطانِيَّةِ) فَاِنَّهُ قَدْ يُؤْمَرُ بِاَمْرٍ فَيَعرِفُ بِها كَيفَ يُخَلِّصُ قَلَمَهُ عَلى حُكمِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْمُطَهَّرَةِ مِنْ وِلَايَةِ ٱلْقَضاءِ وَٱلْحِسبَةِ وَغَيرِ ذٰلِكَ . فَهٰذِهِ اُمورٌ كُلِّيَّةٌ لَا بُدَّ لِلْمُتَرَشِّحِ لِهٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ مِنَ ٱلتَّصَدِّي لِلْاِطِّلاعِ عَلَيها وَٱلْاِكبابِ عَلَى مُطالَعَتِها وَٱلْاِستِكثارِ مِنها. يُنفِقُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوادِّ وَيَسلُكُ فِي ٱلْوُصولِ اِلَى تِلْكَ ٱلصِّناعَةِ بِذٰلِكَ ٱلْجَوادِ وَاِلَّا فَلْيَعْلَمْ اَنَّهُ فِي وَادٍ وَٱلْكِتابَةُ فِي وَادٍ

وَاَمَّا ٱلْاُمورُ ٱلْخاصَّةُ ٱلَّتِي تَزِيدُ مَعرِفَتُها قَدْرَهُ وَيُزَيِّنُ ٱلْعِلْمُ بِها نَظْمَهُ وَنَثْرَهُ فَاِنَّها مِنَ ٱلْمُكَمِّلاتِ لِهٰذا ٱلْفَنِّ وَاِنْ لَمْ يَضطَرَّ اِلَيها ذُو ٱلذِّهنِ ٱلثَّاقِبِ وَٱلطَّبعِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلْقَرِيحَةِ ٱلْمُطاوِعَةِ وَٱلْفِكْرَةِ ٱلْمُنَقَّحَةِ وَٱلْبَدِيهَةِ ٱلْمُجِيبَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ . لٰكِنَّ ٱلْعالِمَ بِها مُتَمَكِّنٌ مِنْ اَزِمَّةِ ٱلْمَعانِي يَقُولُ عَنْ عِلْمٍ وَيَتَصَرَّفُ عَنْ مَعرِفَةٍ وَيَنتَقِدُ بِحُجَّةٍ وَيَتَخَيَّرُ بِدَلِيلٍ وَيَستَحسِنُ بِبُرْهانٍ وَيَصُوغُ ٱلْكَلامَ بِتَرْتِيبٍ

مِنْ ذٰلِكَ (عِلْمُ ٱلْمَعانِي وَٱلْبَيانُ وَٱلْبَدِيعُ) وَمَا يَلْحَقُ بِها وَاَنا اُشِيرُ ٱلْآنَ اِلَى نُكَتٍ مِنها تَدُلُّ عَلى جَلالَةِ قَدْرِ هٰذا ٱلْعِلْمِ وَعِظَمِ ٱلْفائِدَةِ بِهِ وَاَنَّ ٱلْاَدِيبَ وَٱلْكاتِبَ ٱلْعارِيَيْنِ مِنْهُ قاصِرانِ عَنْ اَدنى رُتَبِ ٱلْكَمالِ يُجِيدانِ وَلَا يَدرِيانِ كَيفَ يُجِيبانِ . فَلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعنًى اَستَحسَنَهُ اَوْ لَفظٍ اَستَحلاهُ اَوْ تَرْكِيبٍ اَستَجادَهُ لَمْ يَقدِرْ عَلَى ٱلْاِتْيانِ بِدَلِيلٍ عَلى ذٰلِكَ كَما قالَ بَعضُهُمْ :

يا اَبا جَعفَرٍ اَتَحكُمُ فِي ٱلشِّعْرِ م وَما فِيكَ آلَةُ ٱلْحُكَّامِ

إِنَّ نَقْدَ ٱلدِّينَارِ إِلَّا عَلَى ٱلصَّرْ فِيِّ صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي ٱلْأَ م شْعَارِ بَيْنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْإِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قَالَ : رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ إِلَى أَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَّ ذٰلِكَ . قَالَ : وَجَدتُّ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَٱلْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ ٱلْأَلْفَاظِ . فَقَوْلُهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ . فَمَا أَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا . فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ . وَإِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي ٱمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

لٰكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتُعَلَّلُ مَوَادُّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ إِلَى أَيْفَاعِهِ



الجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

انَّ ٱلإِنْشَاءَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللَّائِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا اوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلْانْشَاءِ وَادَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَأَمَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ انَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ انْ يَفْرِقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ انْ يَكُونَ اعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَتُهُ وَانْ يَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَانْ يَجْعَلَ ٱلْأَلفاظَ تابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . إِذِ ٱلْمَعَانِي إِذَا تَرَكَّبَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِأَنْفُسِهَا ٱلْفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَامَّا جَعْلُ ٱلْأَلفَاظِ مُتَكَلِّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ انْ يَجْتَنِبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لَهُمْ شَغَفٌ بِإِيرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ إِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مَسُوقٍ لِإِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ اعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْإِنْشَاءَ انْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : إِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ انْ يُلَاحَظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالُ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ وَيُعْنَوْنَ ٱلْكِتَابُ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوَّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلفَصَاحَةُ لُغَةً تُنبِئُ عَنِ ٱلْإِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ : فَصُحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ وَافْصَحَ إِذَا ٱنطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلُصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ . وَافْصَحَ بِهِ اَيْ صَرَّحَ . وَعِنْدَ اهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْإِعْجَازُ . قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ : اَعْلَمْ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ . وَاَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : اَفْصَحَ ٱللَّبَنُ إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ . وَهِيَ بِٱلْاَصْطِلَاحِ : عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلْاَسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ : بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ إِذَا ٱنْتَهَيْتُ إِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غَيْرِي. وَمَبْلَغُ ٱلشَّيْءِ مُنْتَهَاهُ . وَٱلْمُبَالَغَةُ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلِٱنْتِهَاءُ إِلَى غَايَتِهِ. فَسُمِّيَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بَلَاغَةً لِأَنَّهَا تُنْهِي ٱلْمَعْنَى إِلَى قَلْبِ ٱلسَّامِعِ فَيَفْهَمُهُ وَسُمِّيَتِ ٱلْبُلْغَةُ بُلْغَةً لِأَنَّكَ تَتَبَلَّغُ بِهَا فَتَنْتَهِي بِكَ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَهِيَ ٱلْبَلَاغُ أَيْضاً. وَيُقَالُ: ٱلدُّنْيَا بَلَاغٌ لِأَنَّهَا تُؤَدِّيكَ إِلَى ٱلْآخِرَةِ. وَٱلْبَلَاغُ أَيْضاً ٱلتَّبْلِيغُ. وَمِنْهُ: هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ أَيْ تَبْلِيغٌ. وَيُقَالُ: بَلُغَ ٱلرَّجُلُ بَلَاغَةً إِذَا صَارَ بَلِيغاً كَمَا يُقَالُ نَبُلَ نَبَالَةً إِذَا صَارَ نَبِيلًا. وَكَلَامٌ بَلِيغٌ وَبَلَغٌ (بالفتح) كَمَا يُقَالُ وَجِيزٌ وَوَجْزٌ. وَرَجُلٌ بِلْغٌ (بالكسر) يَبْلُغُ مَا يُرِيدُ وَفِي مَثَلٍ لَهُمْ: أَحْمَقُ بِلْغٌ. وَيُقَالُ: أَبْلَغْتُ فِي ٱلْكَلَامِ إِذَا أَتَيْتَ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهِ كَمَا تَقُولُ: أَبْرَحْتُ إِذَا أَتَيْتَ بِٱلْبُرَحَاءِ وَهُوَ ٱلْأَمْرُ ٱلْجَسِيمُ. وَٱلْبَلَاغَةُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِصِفَةٍ كَانَ مَوْضُوعُهَا لِلْكَلَامِ وَتَسْمِيَتُنَا ٱلْمُتَكَلِّمَ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ تَوَسُّعٌ وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ كَلَامَهُ بَلِيغٌ كَمَا تَقُولُ: فُلَانٌ رَجُلٌ مُحْكَمٌ وَتَعْنِي أَنَّ أَفْعَالَهُ مُحْكَمَةٌ. وَكَذٰلِكَ كَثْرَةُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ جَعَلَتْ تَسْمِيَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ كَٱلْحَقِيقَةِ

أَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فَقَدْ قَالَ قَوْمٌ إِنَّهَا مِنْ قَوْلِهِمْ: أَفْصَحَ فُلَانٌ عَمَّا فِي نَفْسِهِ إِذَا أَظْهَرَهُ. وَٱلشَّاهِدُ عَلَى أَنَّهَا هِيَ ٱلْإِظْهَارُ قَوْلُ ٱلْعَرَبِ أَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ إِذَا أَضَاءَ وَفَصَحَ أَيْضاً. وَأَفْصَحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ إِذَا أَبَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يُبِينُ وَفَصُحَ ٱللَّحَّانُ إِذَا عَبَّرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَأَظْهَرَهُ عَلَى جِهَةِ ٱلصَّوَابِ دُونَ ٱلْخَطَإِ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ عَلَى هٰذَا فَٱلْفَصَاحَةُ

وَٱلْبَلَاغَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ ٱلإِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلإِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ . فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ تَعَالَى فَصِيحًا إِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ . وَقِيلَ : زِيَادٌ ٱلأَعْجَمُ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْهِمَارِ فَهُوَ أَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هٰذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْبَلَاغَةُ إِنَّمَا هِيَ إِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةَ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْبَبْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا إِذْ هُوَ مُقِيمُ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هٰذَا أَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ وَجَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ ٱلِاسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هٰذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : إِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلأَمْوَالِ وَٱلدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا

مُحِصُوا بِالِابْتِلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُونَ . وَمَثَلُ الْمَنظُومِ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ الْخَطِّيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ كَمَا أَشْرَقَتْ فَوْقَ الصِّوَارِ قُرُونُهَا

(قَالُوا) وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ الْجُودَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغًا ثُمَّ فَصِيحًا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ الْوَفَاةِ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلَا زَادٍ وَيُقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْرًا مُوحِشًا بِلَا أَنِيسٍ . وَقَوْلِ آخَرَ لِأَخٍ لَهُ : مَدَدتَّ إِلَى الْمَوَدَّةِ يَدًا فَشَكَرْنَاكَ وَشَفَعْتَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَالرُّجُوعُ إِلَى مَحْمُودِ الْوُدِّ أَوْلَى بِكَ مِنَ الْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ الصَّدِّ . وَاسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذَا الْمَذْهَبِ بِقَوْلِ الْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : الشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَالْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَاللِّسَانُ هَا هُنَا الْكَلَامُ . وَالرَّزِينُ الَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ وَلَيْسَ الْغَرَضُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَإِنَّمَا قَصَدتُّ فِيهِ مَقْصَدَ صُنَّاعِ الْكَلَامِ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَالْكُتَّابِ فَلِهٰذَا لَمْ أُطِلِ الْكَلَامَ فِي هٰذَا الْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

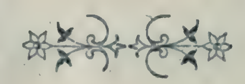
(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى الْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ اَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ مَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ اِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ: اَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ اِذَا ظَهَرَ ثُمَّ اِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفَصَاحَةِ لِاَنَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلْاِعْتِرَاضَاتِ . (اَحَدُهَا) : اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ اِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا. (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) : اَنَّهُ اِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْاِضَافَاتِ اِلَى ٱلْاَشْخَاصِ فَاِنَّ ٱللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ اِذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَاخِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لِاَنَّهُ اِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَا هِيَ لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : اَنَّهُ اِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَّفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلْاِعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ اِنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ . وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى اَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا اُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي اِيَّاهُ ٱنْكَشَفَ لِي ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَاُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَأُحقِقُ ٱلقَوْلَ فِيهِ فَاقُولُ : إِنَّ ٱلكَلَامَ ٱلفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلبَيِّنُ وَاعْنِي بِٱلظَّاهِرِ ٱلبَيِّنِ اَنْ تَكُونَ ٱلفَاظُهُ مَفْهُومَةً لَايُحتَاجُ فِي فَهْمِهَا إِلَى ٱسْتِخْرَاجٍ مِنْ كِتَابِ لُغَةٍ . وَإِنَّمَا كَانَتْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ لِأَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةَ ٱلِاسْتِعْمَالِ بَيْنَ اَرْبَابِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلَامِهِمْ . وَإِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةَ ٱلِاسْتِعْمَالِ دَائِرَةً فِي ٱلكَلَامِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلأَلفَاظِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ غَرْبَلُوا ٱللُّغَةَ بِٱعْتِبَارِ اَلفَاظِهَا وَسَبَرُوا وَقَسَّمُوا فَٱخْتَارُوا ٱلحَسَنَ مِنَ ٱلأَلفَاظِ فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَنَفَوْا ٱلقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ فَحُسْنُ ٱلِاسْتِعْمَالِ سَبَبُ ٱسْتِعْمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَٱسْتِعْمَالُهَا سَبَبُ ظُهُورِهَا وَبَيَانِهَا . فَٱلفَصِيحُ إِذَنْ مِنَ ٱلأَلفَاظِ هُوَ ٱلحَسَنُ . فَإِنْ قِيلَ : مِنْ اَيِّ وَجْهٍ عَلِمَ اَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلحَسَنَ مِنَ ٱلأَلفَاظِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوهُ وَعَلِمُوا ٱلقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ . قُلْتُ فِي ٱلجَوَابِ : إِنَّ هٰذَا مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلمَحْسُوسَةِ ٱلَّتِي شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا لِأَنَّ ٱلأَلفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ ٱلأَصْوَاتِ فَٱلَّذِي يَسْتَلِذُّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ إِلَيْهِ هُوَ ٱلحَسَنُ وَٱلَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ ٱلقَبِيحُ . اَلَا تَرَى اَنَّ ٱلسَّمْعَ يَسْتَلِذُّ صَوْتَ ٱلبُلْبُلِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَصَوْتَ ٱلشُّحْرُورِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوْتَ ٱلغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذٰلِكَ يَكْرَهُ نَهِيقَ ٱلحِمَارِ وَلَايَجِدُ ذٰلِكَ فِي صَهِيلِ ٱلفَرَسِ . وَٱلأَلفَاظُ جَارِيَةٌ هٰذَا ٱلمَجْرَى فَإِنَّهُ لَاخِلَافَ فِي اَنَّ لَفْظَةَ ٱلمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ حَسَنَةٌ يَسْتَلِذُّهَا ٱلسَّمْعُ . وَاَنَّ لَفْظَةَ ٱلبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا ٱلسَّمْعُ . وَهٰذِهِ ٱللَّفَظَاتُ ٱلثَّلَاثُ مِنْ صِفَةِ ٱلمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ . وَمَعَ هٰذَا فَإِنَّكَ تَرَى لَفْظَتَيِ ٱلمُزْنَةِ

وَٱلدِّيمَةِ ومَا جرَى مجرَاهُمَا مألُوفتي ٱلٱسْتِعْمَالِ وترَى لَفظَ ٱلْبُعاقِ ومَا جَرَى مجرَاهُ متروكاً لَا يُسْتَعْمَلُ . وَإِنِ ٱستُعمِلَ فَإِنَّمَا يَستَعْمِلُهُ جاهِلٌ بحَقِيقَةِ ٱلفصَاحَةِ اوْ ذَوْقُهُ غيرُ ذَوقٍ سَلِيمٍ وَإِنْ كَانَ عربيًّا مَحْضاً مِنَ ٱلجَاهِلِيَّةِ ٱلاَقْدَمِينَ فَإِنَّ حَقِيقَةَ ٱلشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ ٱلوُقوفُ عِندَهَا ولَمْ يُعرَّجْ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْهَا .وَإِذَنْ ثَبَتَتْ انَّ ٱلفَصِيحَ مِنَ ٱلاَلفَاظِ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلبَيِّنُ وَإِنَّمَا كَانَ ظَاهِرًا بَيِّنًا لِانَّهُ مَأْلُوفُ ٱلٱسْتِعْمَالِ وَإِنَّمَا كَانَ مَأْلُوفَ ٱلٱسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وحُسْنُهُ مُدْرَكٌ بِٱلسَّمْعِ . وَٱلَّذِي يُدرَكُ بِٱلسَّمْعِ إِنَّمَا هُوَ ٱللَّفظُ لِانَّهُ صَوتٌ يأتَلِفُ عَنْ مَخَارِجِ ٱلحُرُوفِ فَمَا ٱستَلَذَّهُ ٱلسَّمعُ مِنْهُ فهُوَ ٱلحَسَنُ ومَا كَرِهَهُ فهُوَ ٱلقَبِيحُ وَٱلحَسَنُ هُوَ ٱلمَوصُوفُ بِٱلفَصَاحَةِ وَٱلقَبِيحُ غيرُ مَوصُوفٍ بفَصَاحَةٍ لِانَّهُ ضِدُّهَا لِمَكَانِ قُبحِهِ . وقَدْ مَثَّلتُ ٱلمِثَالَ ٱلمُتَقَدِّمَ بِلَفْظَةِ ٱلمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ ولَفظَةِ ٱلبُعَاقِ وَلَوْ كَانَتِ ٱلفَصَاحَةُ لِأَمرٍ يَرْجِعُ إِلَى ٱلمَعنَى لَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلاَلفَاظُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيهِ سَوَاءٌ لَيسَ مِنهَا حَسَنٌ ومِنهَا قَبِيحٌ . ولَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ عَلِمْنَا انَّهَا تَخُصُّ ٱللَّفظَ دُونَ ٱلمَعنَى . وَلَيسَ لِقَائِلٍ هٰهُنَا انْ يَقُولَ لَا لَفظَ إِلَّا بِمَعنًى فَكَيفَ فَصَلْتَ انْتَ بَيْنَ ٱللَّفظِ وَٱلمَعنَى . قُلْتُ : لَمْ افصِلْ بَيْنَهُمَا وَإِنَّمَا خَصَصْتُ ٱللَّفظَ بِصِفَةٍ هِيَ لَهُ وَٱلمَعنَى يَجِيءُ فِيهِ ضِمناً وتَبَعاً



البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّهُ يحتاجُ صاحِبُ هٰذهِ ٱلصِناعةِ فِي تأليفِهِ اِلى ثلاثةِ اَشياءَ : (اَلاوَّلُ) مِنها اَختيارُ ٱلالفاظِ ٱلمفردةِ . وَحُكمُ ذٰلكَ حُكمُ ٱللآلِئِ ٱلمبدَّدةِ فإنها تُتخيَّرُ وتُنتقى قبلَ ٱلنظمِ . (اَلثَّاني) نَظمُ كُلِّ كلمةٍ مع اُختِها في ٱلمشاكلةِ لها لِئَلَّا يجئَ ٱلكلامُ قلقًا نافِرًا عن مواضِعِهِ وحُكمُ ذٰلكَ حُكمُ ٱلعقدِ ٱلمنظومِ في اقترانِ كلِّ لؤلؤةٍ مِنهُ بِأُختِها ٱلمشاكلةِ لها . (اَلثَّالثُ) ٱلغرضُ ٱلمقصودُ مِن ذٰلكَ ٱلكلامِ علَى اختلافِ انواعِهِ وحُكمُ ذٰلكَ حُكمُ ٱلموضعِ ٱلَّذي يُوضَعُ فيهِ ٱلعقدُ ٱلمنظومُ فتارةً يُجعلُ اِكليلًا على ٱلرأسِ وتارةً يُجعلُ قِلادةً في ٱلعنقِ وتارةً يُجعلُ شَنفًا في ٱلأُذنِ ولِكُلِّ موضعٍ مِن هٰذهِ ٱلمواضعِ هيئةٌ مِنَ ٱلحُسنِ تخصُّهُ . فهٰذهِ ثلاثةُ اشياءَ لا بُدَّ لِلخطيبِ وٱلشَّاعرِ مِنَ ٱلعنايةِ بها وهِيَ ٱلاصلُ ٱلمعتمدُ عليهِ في تأليفِ ٱلكلامِ مِنَ ٱلنظمِ وٱلنثرِ . فٱلاوَّلُ وٱلثَّاني مِن هٰذهِ ٱلثلاثةِ ٱلمذكورةِ هما ٱلمرادُ بٱلفصاحةِ . وٱلثلاثةُ بجملتِها هِيَ ٱلمرادُ بٱلبلاغةِ. وهٰذا ٱلموضعُ يَضِلُّ في سلوكِ طريقهِ ٱلعلماءُ بصناعةِ صوغِ ٱلكلامِ مِنَ ٱلنظمِ وٱلنثرِ فكيفَ ٱلجُهَّالُ ٱلَّذينَ لم تنفحهُم رائحتهُ . ومَنِ

ٱلَّذِي يُؤْتِيهِ ٱللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَيَضَعُهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ لِلْأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَٱسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ ٱسْتَقْبَحَ ٱلْآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ . وَلَوْ حَقَّقُوا ٱلنَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى ٱلسِّرِّ فِي ٱتِّصَافِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ بِٱلْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِٱلْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْجُهَّالِ إِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ : كُلُّ ٱلْأَلْفَاظِ حَسَنٌ وَٱلْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إِلَّا حَسَنًا . وَمَنْ يَبْلُغُ جَهْلُهُ إِلَى أَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْغُصْنِ وَلَفْظَةِ ٱلْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ ٱلْإِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلسَّيْفِ وَلَفْظَةِ ٱلْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْأَسَدِ وَلَفْظَةِ ٱلْفَدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَيُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ أَوْصَافٌ أُخَرُ يَنْبَغِي أَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا . فَمِنْهَا أَنْ لَا تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً . وَقَدْ خَفِيَ ٱلْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى صِنَاعَةِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَظَنُّوهُ ٱلْمُسْتَقْبَحَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَٱلْآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱسْمِ ٱلْوَحْشِ ٱلَّذِي يَسْكُنُ ٱلْقِفَارَ وَلَيْسَ بِأَنِيسٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَلْفَاظُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَةَ ٱلِاسْتِعْمَالِ . وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْوَحْشِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلإِنْسَ فَتَارَةً يَكُونُ حَسَنًا وَتَارَةً يَكُونُ قَبِيحًا . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ احد قِسْمَيِ ٱلْوَحْشِيِّ وَهُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلْحَسَنُ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنِّسَبِ وَٱلإِضَافَاتِ . وَامَّا ٱلْقِسْمُ ٱلآخَرُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ ٱلَّذِي هُوَ قَبِيحٌ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ فِي ٱسْتِقْبَاحِهِ سَوَاءٌ وَلَا يَخْتَلِفُ بِهِ عَرَبِيٌّ بَادٍ وَلَا قَرَوِيٌّ مُتَحَضِّرٌ. وَاحْسَنُ ٱلأَلْفَاظِ مَا كَانَ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَأْلُوفًا مُتَدَاوَلًا إِلَّا لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْكَلَامُ عَلَى ذٰلِكَ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَإِنَّ ارْبَابَ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ نَظَرُوا إِلَى ٱلأَلْفَاظِ وَنَقَّبُوا عَنْهَا ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى ٱلأَحْسَنِ مِنْهَا فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَهُوَ ايضًا يَتَفَاوَتُ فِي دَرَجَاتِ حُسْنِهِ فَٱلأَلْفَاظُ إِذَنْ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةَ اقْسَامٍ : قِسْمَانِ حَسَنَانِ وَقِسْمٌ قَبِيحٌ . فَٱلْقِسْمَانِ ٱلْحَسَنَانِ احَدُهُمَا مَا تَدَاوَلَ ٱسْتِعْمَالَهُ ٱلأَوَّلُ وَٱلآخِرُ مِنَ ٱلزَّمَنِ ٱلْقَدِيمِ إِلَى زَمَانِنَا هٰذَا وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ انَّهُ وَحْشِيٌّ. وَٱلآخَرُ مَا تَدَاوَلَ ٱسْتِعْمَالَهُ ٱلأَوَّلُ دُونَ ٱلآخِرِ وَيَخْتَلِفُ فِي ٱسْتِعْمَالِهِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلزَّمَنِ وَاهْلِهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ وَحْشِيًّا وَهُوَ عِنْدَنَا وَحْشِيٌّ

وَلَا يَسْبِقْ وَهْمُكَ ايُّهَا ٱلْمُتَأَمِّلُ إِلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ ٱلَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ غِلَظُ ٱلطَّبْعِ وَفَجَاجَةُ ٱلذِّهْنِ بِأَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا فَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى انَّهُ حَسَنٌ . بَلْ يَنْبَغِي انْ تَعْلَمَ انَّ ٱلَّذِي نَسْتَحْسِنُهُ نَحْنُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ مُسْتَحْسَنًا وَٱلَّذِي نَسْتَقْبِحُهُ هُوَ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَقْبَحًا. وَٱلِٱسْتِعْمَالُ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَى ٱلْحُسْنِ فَإِنَّا نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ ٱلآنَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا

لَيس بِحَسَنٍ وَإِنَّمَا نَسْتَعْمِلُهُ لِضَرُورَةٍ فَلَيسَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَسَنِ بِمُمْكِنٍ فِي كُلِّ ٱلْأَحْوَالِ . وَهٰذَا طَرِيقٌ يَضِلُّ بِغَيْرِ ٱلعَارِفِ بِمَسَالِكِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ صِنَاعَةَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَمَا يَجِدُهُ صَاحِبُهَا مِنَ ٱلْكُلْفَةِ فِي صَوْغِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱخْتِيَارِهَا فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ فِي أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ :

لَا يَعْرِفُ ٱلْحُزْنَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ   وَلَا ٱلصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

وَمَعَ هٰذَا فَإِنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : بِأَنَّ ٱلْعَرَب كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ . قَوْلٌ فَاسِدٌ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ . فَإِنَّ ٱسْتِحْسَانَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِقْبَاحَهَا لَا يُؤْخَذُ بِٱلتَّقْلِيدِ مِنَ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهُ شَيْءٌ لَيسَ لِلتَّقْلِيدِ فِيهِ مَجَالٌ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ لَهُ خَصَائِصُ وَهَيْئَاتٌ وَعَلَامَاتٌ إِذَا وُجِدَتْ عُلِمَ حُسْنُهُ مِنْ قُبْحِهِ . وَأَمَّا ٱلَّذِي نُقَلِّدُ ٱلْعَرَب فِيهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَإِنَّمَا هُوَ ٱلِٱسْتِشْهَادُ بِأَشْعَارِهَا عَلَى مَا يُنْقَلُ مِنْ لُغَتِهَا وَٱلْأَخْذُ بِأَقْوَالِهَا فِي ٱلْأَوْضَاعِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فِي رَفْعِ ٱلْفَاعِلِ وَنَصْبِ ٱلْمَفْعُولِ وَجَرِّ ٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ وَجَزْمِ ٱلشَّرْطِ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ وَمَا عَدَاهُ فَلَا . وَحُسْنُ ٱلْأَلْفَاظِ وَقُبْحُهَا لَيسَ إِضَافِيًّا إِلَى زَيْدٍ دُونَ عَمْرٍو أَوْ إِلَى عَمْرٍو دُونَ زَيْدٍ لِأَنَّهُ وَصْفٌ ذَوَوِيٌّ لَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا بِٱلْإِضَافَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ لَفْظَةَ ٱلْمُزْنَةِ مَثَلًا حَسَنَةٌ عِنْدَ ٱلنَّاسِ كَافَّةً مِنَ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَهَلُمَّ جَرًّا لَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ فِي حُسْنِهَا . وَكَذٰلِكَ لَفْظَةُ ٱلْبُعَاقِ فَإِنَّهَا قَبِيحَةٌ عِنْدَ ٱلنَّاسِ كَافَّةً مِنَ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتْهَا ٱلْعَرَبُ لَا يَكُونُ ٱسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا مُخْرِجًا لَهَا عَنِ ٱلْقُبْحِ وَلَا يُلْتَفَتُ إِذَنْ إِلَى ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا بَلْ يُعَابُ مُسْتَعْمِلُهَا وَيُغَلَّظُ لَهُ ٱلنَّكِيرُ حَيْثُ ٱسْتَعْمَلَهَا

فَلَا تَظُنَّ انَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلَّذِي يَقِلُّ ٱسْتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَى سَمْعِكَ وَلَا تَجِدُ بِهِ كَرَاهَةً وَتَارَةً يَثْقُلُ عَلَى سَمْعِكَ وَتَجِدُ مِنْهُ ٱلْكَرَاهَةَ. وَذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظِ عَيْبَانِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ غَرِيبُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ (وَٱلْآخَرُ) أَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ. وَإِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فَظَاظَتِهِ وَغَلَاظَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَلِيظَ وَيُسَمَّى أَيْضًا ٱلْمُتَوَعِّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي ٱلْقُبْحِ دَرَجَةٌ أُخْرَى وَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا أَجْهَلُ ٱلنَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱلْفَنِّ أَصْلًا. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ. قُلْتُ: قَدْ ثَبَتَ لَكَ أَنَّهُ مَا كَرِهَهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ. وَسَأَضْرِبُ لَكَ فِي ذٰلِكَ مِثَالًا فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَأَبَّطَ شَرًّا فِي كِتَابِ ٱلْحَمَاسَةِ:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيشًا وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ ٱلْمَسَالِكِ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَحِيشٍ) مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلْقَبِيحَةِ. وَيَا لِلّٰهِ ٱلْعَجَبُ أَلَيْسَ أَنَّهَا بِمَعْنَى (فَرِيدٍ) وَفَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وُضِعَتْ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ مَوْضِعَ جَحِيشٍ لَمَا ٱخْتَلَّ شَيْئًا مِنْ وَزْنِهِ. فَتَأَبَّطَ شَرًّا مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْقَبِيحَ. وَٱلْآخَرُ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ. وَمِمَّا هُوَ أَقْبَحُ مِنْهَا مَا وَرَدَ لِأَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا ٱطْلَخَمَّ ٱلْأَمْرُ وَٱنْبَعَثَتْ عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْسًا دَهَارِيسَا

فلَفْظَةُ (اطْلَخَمَّ) مِنَ الألفاظِ المُنكَرةِ الَّتي جمعتِ الوصفَيْنِ القبيحَيْنِ في انّها غريبةٌ وانّها غليظةٌ في السمعِ كريهةٌ على الذوقِ وكذلك لفظةُ (دهاريس) ايضًا . وعلى هذا وردَ قولُهُ مِنْ ابياتٍ يصِفُ فرسًا مِنْ جُملتِها :

نِعمَ متاعُ الدُّنيا حباكَ بِهِ　　اروعُ لا جيدَرٌ ولا جِبسُ

فلفظةُ (جيدَرٍ) غليظةٌ . واغلظُ منها قولُ ابي الطيّبِ المتنبّي :

جَفَخَتْ وهُمْ لا يَجْفَخُونَ بِها بِهِمْ　　شِيَمٌ على الحسَبِ الأغرِّ دلائلُ

فانَّ لفظةَ (جفَخ) مُرَّةُ الطعمِ واذا مرَّتْ على السمعِ اقشعرَّ منها وابو الطيّبِ في استعمالِها كاستعمالِ تأبّطَ شرًّا لفظةَ جحيشٍ . فانَّ تأبّطَ شرًّا كانتْ لهُ مندوحةٌ عن استعمالِ تلكَ اللفظةِ كما اشرْنا فيما تقدَّمَ . وكذلكَ ابو الطيّبِ في استعمالِ هذهِ اللفظةِ الَّتي هي جفَختْ فانَّ معناها فخرتْ والجَفْخُ الفخرُ يقالُ : جفَخَ فلانٌ اذا فخرَ . ولوِ استعملَ عِوضًا عنْ جفختْ فخرتْ لاستقامَ البيتُ وحظِيَ في استعمالِهِ بالأحسنِ . وما اعلمُ كيفَ يذهبُ هذا وامثالُهُ على مِثلِ هؤلاءِ الفحولِ مِنَ الشعراءِ . وهذا الَّذي ذكرْتُهُ وما يجري مجراهُ مِنَ الألفاظِ هُوَ الوحشيُّ الغليظُ الَّذي ليسَ لهُ ما يدانيهِ في قُبحِهِ وكراهتِهِ . وهذهِ الأمثلةُ دليلٌ على ما اوردْناهُ . والعربُ اذَنْ لا تُلامُ على استعمالِ الغريبِ الحسَنِ مِنَ الألفاظِ وانَّما تُلامُ على الغريبِ القبيحِ . واما الحضريُّ فانَّهُ على استعمالِ القسمَيْنِ معًا وهوَ في احدِهما اشدُّ ملامةً منهُ في الآخرِ

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ إِلَى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ أَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ إِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَادِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ أَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا : ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَإِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَأَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْاِسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَاتِ . كَٱلْعَيْنِ فَإِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ وَعَلَى ٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلْاِسْتِعْمَالِ إِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِأَنَّا إِذَا قُلْنَا : عَيْنٌ . ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ هٰذَا ٱلْاِسْمِ . وَإِذَا قُرِنَ إِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْإِبْهَامُ بِأَنْ تَقُولَ : عَيْنٌ حَسْنَاءُ أَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرِكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ :

انَّ ذٰلكَ يُخِلُّ بفائدةِ وضع اللُّغةِ لِاَنَّ اللُّغةَ انما هيَ وضعُ الالفاظِ في دلالتها على المعاني اي وضعُ الاسماء على المسميات لتكون مُنبئةً عنها عند اطلاق اللفظ والاشتراكِ لا بيان فيه وانما هو ضدُّ البيان. لكنَّ طريق البيان ان يُجعل احدُ المعنيين في اللفظ المشتركِ حقيقةً والآخرُ مجازيا. فاذا قلنا: هذهِ كلمةٌ. واطلقنا القول فُهِمَ منهُ اللفظةُ الواحدةُ. واذا قيَّدنا اللفظ فقلنا: هذهِ كلمةٌ شاعرةٌ. فُهِمَ منهُ القصيدةُ المقصَّدةُ من الشعر وهي مجموعُ كلماتٍ كثيرةٍ. ولو اطلقنا من غير تقييدٍ واردنا القصيدةَ من الشعر لما فُهِمَ مرادُنا البتة. هذا خلاصةُ ما ذهب اليهِ من ينكر وقوع اللفظ المشتركِ في المعنيين حقيقةً. وفي ذلك ما فيه. وسأُبيِّنُ ما يدخلهُ من الخلل فاقولُ في الجواب عن ذلك ما استخرجتهُ بفكري ولم يكن لاحدٍ فيه قولٌ من قبلي وهو: اما قولك: انَّ فائدةَ وضع اللغةِ انما هو البيانُ عند اطلاق اللفظ واللفظُ المشتركُ يُخِلُّ بهذه الفائدةِ. فهذا غيرُ مسلَّمٍ بل فائدةُ وضع اللغةِ هو البيانُ والتحسينُ

(اما البيانُ) فقد وفى الاسماءَ المتباينةَ التي كلُّ اسمٍ واحدٍ دلَّ على مسمًّى واحدٍ. فاذا أُطلِقَ اللفظُ في هذهِ الاسماء كان بيِّناً مفهوماً لا يحتاجُ الى قرينةٍ ولو لم يضعِ الواضعُ من الاسماء شيئاً غيرها لكان كافياً في البيان

(واما التحسينُ) فانَّ الواضعَ لهذهِ اللغةِ العربيَّةِ التي هي احسنُ اللغاتِ نظراً الى ما يحتاجُ اليهِ اربابُ الفصاحةِ والبلاغةِ فيما يصوغونهُ

مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ ورَاَى انَّ مِنْ مُهِمَّاتِ ذٰلِكَ ٱلتَّجْنِيسَ وَلَا يَقُومُ بِهِ اِلَّا ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ ٱسْمٍ وَاحِدٍ دَلَّ عَلَى مُسَمَّيَيْنِ فَصَاعِدًا فَوَضَعَهَا مِنْ اَجلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَتَجَاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ . وَبَيَانُهُ اَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقْضِي بِوَضْعِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَوَضْعُهَا يَذْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنْ وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ. لٰكِنَّهُ اِنْ وَضَعَ ٱسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ بِٱلْقَرِينَةِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ فَتَرَجَّحَ حِينَئِذٍ جَانِبُ ٱلْوَضْعِ فَوُضِعَ

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركَّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٥٤ و٥٥ من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ فِي ٱلْمُفْرَدِ هِيَ اَنْ تَكُونَ مِمَّا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْعَرَبُ ٱلْفُصَحَاءُ كَثِيرًا وَدَارَ عَلَى اَلْسِنَتِهِمْ فَسَلِمَ مِنْ سِتَّةِ اَشْيَاءَ . (اَلْاَوَّلُ) : اَنْ لَا يَتَرَكَّبَ مِنْ حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كَلَفْظَةِ (ٱلْعَخْعَخِ) وَهُوَ نَبْتٌ . سُئِلَ اَعْرَابِيٌّ عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرْعَى ٱلْعَخْعَخَ . وَاِنَّمَا تَنَافَرَتْ حُرُوفُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ لِكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْحَلْقُ . (اَلثَّانِي) : اَنْ لَا تَتَوَالَى فِيهِ اَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثِقْلٌ . (اَلثَّالِثُ) :

أَنْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِيًا فِي كَثْرَةِ ٱلْحُرُوفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنًى نَحْوُ: خَنْدَرِيس. وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ: خِذْ عَنْ ذَا ٱلْمَرْءِ. وَخَيْرُ ٱلْأُمُورِ أَوْسَطُهَا وَهُوَ ٱلثُّلَاثِيُّ إِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ حَرْفِ ٱلِابْتِدَاءِ وَحَرْفِ ٱلْوَقْفِ وَحَرْفٍ فَاصِلٍ بَيْنَ ٱلْوَقْفِ وَٱلِابْتِدَاءِ. أَمَّا لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱلْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ لَكَانَتِ ٱللَّفْظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ: اَخْشَوْشَنَ. مَعْنَاهُ أَزْيَدُ مِنْ خَشُنَ. (ٱلرَّابِعُ): أَنْ لَا يَكُونَ وَحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ: ٱلْإِسْفِنْطِ لِلْخَمْرِ وَٱلْخَنْشَلِيلِ لِلسَّيْفِ وَٱلْفَدَوْكَسِ لِلْأَسَدِ. فَهَذِهِ ٱلْأَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا ٱلطَّبْعُ وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى مَعْنَاهَا إِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ ٱللُّغَةِ. (ٱلْخَامِسُ): أَنْ لَا يَكُونَ مُبْتَذَلًا وَذَلِكَ نَحْوُ أَنْ يَخْرُجَ ٱللَّفْظُ عَنْ أَصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ. (ٱلسَّادِسُ): أَنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا مَكْرُوهٌ كَمَا لَوْ قُلْتَ: لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ. فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ ٱلْإِكْرَامَ وَٱلْإِهَانَةَ. فَلَوْ كَانَ فِي ٱلْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنِ لَكَانَ ٱللَّفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ: لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ. فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنَ. وَعَلَيْهِ يَكُونُ ٱللَّفْظُ حَسَنًا فِي نَفْسِهِ فَيُعَدُّ قَبِيحًا بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَأَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ فَهُوَ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ. (ٱلْأَوَّلُ): سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ ٱلسِّتَّةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلْمُفْرَدِ لِأَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمُ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ. (ٱلثَّانِي): أَنْ يَسْلَمَ مِنْ ضُعْفِ ٱلتَّأْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ:

جزَا رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ   جزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فَإِنَّهُ خَالَفَ ٱلْقِيَاسَ فِي إِعَادَةِ ٱلضَّمِيرِ فِي (رَبّهِ) إِلَى عَدِيٍّ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ لَفْظًا وَمَعْنًى. وَٱلْقَاعِدَةُ ٱلعَرَبِيَّةُ أَنْ يَعُودَ ٱلضَّمِيرُ عَلَى مَا قَبْلَهُ أَوْ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَفْظًا لَا مَعْنًى. (ٱلثَّالِثُ): أَنْ يَسْلَمَ مِنْ تَنَافُرِ ٱلْكَلِمَةِ وَذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ حَالَ ٱلْإِفْرَادِ غَيْرَ مُتَنَافِرَةٍ فَإِذَا رُكِّبَتْ حَصَلَ ٱلتَّنَافُرُ نَحْوُ قَوْلِهِ:

وَقَبْرُ حَرْبٍ (١) بِمَكَانٍ قَفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قِيلَ: إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ لَا يُمْكِنُ إِنْشَادُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ إِلَّا وَيَغْلَطُ ٱلْمُنْشِدُ فِيهِ لِأَنَّ نَفْسَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُرْبَ فِي ٱلْمَخَارِجِ يُحْدِثَانِ ثِقَلًا. وَإِذَا كَانَ ٱلتَّنَافُرُ فِي حُرُوفِ ٱلْكَلِمَةِ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ فَصَاحَةِ ٱلْمُفْرَدِ وَلَا يَسْلَمُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنَ ٱلتَّنَافُرِ مَتَى تَسْلَمُ مُفْرَدَاتُهُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَى   مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فَٱلتَّنَافُرُ فِيهِ مِنْ وَجْهِ تَكْرَارِ (أَمْدَحْهُ) لَا مِنْ وَجْهِ أَنَّ حُرُوفَ (أَمْدَحْهُ) مُتَنَافِرَةٌ لِٱجْتِمَاعِ حَرْفَيِ ٱلْحَلْقِ. (ٱلرَّابِعُ): أَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ وَهُوَ إِيرَادُ كَلَامٍ خَفِيِّ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى. فَمِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَتَأْخِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا وَحُصُولِ ٱلْفَصْلِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَلَازِمَةِ كَقَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ يَمْدَحُ إِبْرَاهِيمَ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ:

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ (١)

ٱلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُمَلَّكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا   وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ. لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ. لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ. وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ. وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

---

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربهُ الَّا ابن اختهِ وهو هشام المملَّك اي المعطى الملك

(٢) المعنى: اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن واتجرع غصصاً تفيض لاجلها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يُسرٌ

ذٰلِكَ . (اَلْخَامِسُ) اَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ ٱلْمُوجِبِ فِي ٱلثِّقْلِ كَتَكْرَارِ ٱللَّفْظَةِ ذَاتِهَا وَتَوَالِي ٱلْاِضَافَاتِ وَٱلصِّفَاتِ وَلَا يُخِلُّ بِٱلْفَصَاحَةِ قَطْعًا تَكْرَارُ ٱللَّفْظَةِ لِلتَّوْكِيدِ وَاِنَّمَا يُعَابُ قُبْحُ ٱلتَّكْرَارِ بِلَا فَائِدَةٍ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

كُنْتُ كُنْتُ كَتَمْتُ ٱلسِّرَّ كُنْتُ كَمَا
كُنَّا وَكُنْتَ وَلٰكِنْ ذَاكَ لَمْ يَكُنِ

فَجَاءَتِ ٱلْحُرُوفُ قَلِقَةً مَكْدُودَةً غَيْرَ مُتَمَكِّنَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا . (وَتَتَابُعُ ٱلْاِضَافَاتِ) مِثْلُ قَوْلِ اَبِي فَائِدٍ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَاَنْتِ بِمَرْاًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ (١)

فَفِيهِ اِضَافَةُ حَمَامَةٍ اِلَى جَرْعَا وَجَرْعَا اِلَى حَوْمَةِ وَحَوْمَةٍ اِلَى ٱلْجَنْدَلِ . وَلَيْسَ هٰذَا بِفَصِيحٍ مَأْنُوس

(وَتَوَالِي ٱلصِّفَاتِ) ذَكَرَهُ ٱلطَّيِّبِيُّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْدِثُ فِي ٱلْكَلَامِ ثِقْلًا وَٱسْتَشْهَدَ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٌ مُحِبٌّ مُبْغِضٌ بَهِجٌ اَغَرُّ حُلْوٌ مُمِرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئًا . والحومة معظم الشيء . والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي يا حمامة ارضٍ قفرةٍ سبخة فان سعاد تراك وتسمعك



الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاول

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبَلاَغَةُ كُلُّ مَا تُبَلِّغُ بِهِ ٱلْمَعْنَى قَلْبَ ٱلسَّامِعِ فَتُمَكِّنُهُ فِي نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَعْرِضٍ حَسَنٍ . وَإِنَّمَا جَعَلْنَا حُسْنَ ٱلْمَعْرِضِ وَقَبُولَ ٱلصُّورَةِ شَرْطًا فِي ٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَتْ عِبَارَتُهُ رَثَّةً وَمَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يُسَمَّ بَلِيغًا وَإِنْ كَانَ مَفْهُومَ ٱلْمَعْنَى مَكْشُوفَ ٱلْمَغْزَى . أَلَا تَرَى إِلَى مَعْنَى ٱلْكَاتِبِ ٱلَّذِي كَتَبَ إِلَى بَعْضِ مُعَامِلِيهِ : (قَدْ تَأَخَّرَ ٱلْأَمْرُ فِيمَا وَعَدْتَ حَمْلَهُ ضَحْوَةَ ٱلنَّهَارِ وَٱلْقَوْمُ غَيْرُ مُقِيمِينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَإِنْ رَأَيْتَ فِي إِزَاحَةِ ٱلْعِلَّةِ مَعَ ٱلْجَهْدِ فَعَلْتَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ) . فَمَعْنَاهُ مَفْهُومٌ وَمَغْزَاهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ كَلَامُهُ بِبَلِيغٍ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى مَفْهُومًا وَٱللَّفْظُ مَقْبُولًا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ . وَمَنْ قَالَ إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ فَقَدْ جَعَلَ ٱلْفَصَاحَةَ وَٱللُّكْنَةَ وَٱلْخَطَأَ وَٱلصَّوَابَ وَٱلْإِغْلَاقَ

وَٱلْإِبَانَةَ سواءٌ . وَأَيضاً فلو كانَ ٱلكَلَامُ ٱلْوَاضِحُ ٱلسَّهلُ وَٱلقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلْحُلْوُ بَلِيغاً وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَبْهِمِ ٱلْمُسْتَغْلَقِ وَٱلْمُتَكَلَّفِ ٱلْمُتَعَقِّدِ أَيضاً بَلِيغاً لَكَانَ كُلُّ ذٰلِكَ مَحْمُوداً وَمَمدُوحاً مَقْبُولاً لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱسمٌ يُمدَحُ بِهِ ٱلْكَلَامُ . فَلَمَّا رَأَينَا أَحدَهُمَا مُسْتَحْسَناً وَٱلْآخرَ مُسْتَهْجَناً عَلِمْنَا أَنَّ ٱلَّذِي يُسْتَحْسَنُ هُوَ ٱلْبَلِيغُ وَٱلَّذِي يُسْتَهْجَنُ لَيسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلْعَتَابِيُّ : كُلُّ مَنْ أَفهَمَكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإِنَّمَا عَنَى أَنَّ مَنْ أَفهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلْأَلفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَلْكَنُ بَلِيغاً لِأَنَّهُ يُفهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلْأَطْفَالُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَعْدَمُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَل لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلسِّنَّوْرُ بَلِيغاً لِأَنَّا نَسْتَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلْإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلْأَعْجَمِيِّ لِلعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِأَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْأَعرَابِيَّ إِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفهَمْهُ إِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَأَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَسْأَلَ بَعْضَ ٱلْأَعْرَابِ عَنْ أَهلِهِ فَقَالَ : كَيفَ أَهلِكَ (بِٱلْكَسْرِ) . فَقَالَ لَهُ ٱلْأَعرَابِيُّ : صَلْباً . إِذْ لَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يَهْلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ أَعرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ :

طَلَلَ ٱلْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ أَشيَاءَ أَفهَمُهَا وَأَشيَاءَ لَا أَفهَمُهَا

فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَائِلُهَا أَشْعَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ أَشْعَرَ مِنْهُ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعَانِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ بِأَسْرِهَا لِعَادَتِنَا لِسَمَاعِ مِثْلِهَا لَا لِأَنَّا أَعْرَفُ بِٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِيضَاحُ ٱلْمَعْنَى وَتَحْسِينُ ٱللَّفْظِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَصْحِيحُ ٱلْأَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ : ٱلْبَلَاغَةُ قَوْلٌ يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ إِلَى فَهْمِهِ بِأَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ . فَقَوْلُهُ : (يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ إِلَى فَهْمِهِ) عِبَارَةٌ عَنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى . وَقَوْلُهُ : (بِأَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ) تَنْبِيهٌ عَلَى تَسْلِيسِ ٱللَّفْظِ وَتَرْكِ تَنْقِيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخَّص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قَالَ أَعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنَ ٱلْكُلْفَةِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْأَفْهَامِ مِنْ أَقْرَبِ وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَلَاغَةُ ٱلْبُلُوغُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَلَمْ يَطُلْ سَفَرُ ٱلْكَلَامِ . قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعُقُولِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ . وَقَالَ أَيْضًا : ٱلْعَقْلُ رَائِدُ ٱلرُّوحِ وَٱلْعِلْمُ رَائِدُ ٱلْعَقْلِ وَٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعِلْمِ . قَالَ إِبْرٰهِيمُ ٱلْإِمَامُ : يَكْفِي مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ لَا يُؤْتَى ٱلسَّامِعُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلنَّاطِقِ وَلَا يُؤْتَى ٱلنَّاطِقُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلسَّامِعِ . قَالَ ٱلْعَتَابِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ مَدُّ

الكلام بمعانيه اذا قصر وحسن التأليف اذا طال . قال اعرابي : البلاغة ايجاز في غير عجز واطناب في غير خطل . وقد قيل لليوناني : ما البلاغة . قال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام . وقيل للرومي : ما البلاغة . قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندي : ما البلاغة . قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . وقيل للفارسي : ما البلاغة . قال : معرفة الفصل من الوصل . وقال علي بن عيسى الرماني : البلاغة ايصال المعنى الى القلب في حسن صورة من اللفظ . وسئل بعضهم عن البلاغة قال : ابلغ الكلام ما حسن ايجازه . وقل مجازه . وكثر اعجازه . وتناسبت صدوره واعجازه . وقيل لجعفر بن خالد : ما البلاغة . قال : التقرب من المعنى البعيد والدلالة بالقليل على الكثير . وقيل لآخر : ما البلاغة . قال : تطويل القصير وتقصير الطويل . وقيل لاعرابي : ما البلاغة . قال : حذف الفضول وتقريب البعيد وحسن الاستعارة . وقيل لجالينوس : ما البلاغة . قال : ايضاح المعضل وفك المشكل . وقيل للخليل بن احمد : ما البلاغة . فقال : ما قرب طرفاه وبعد منتهاه . وقيل لخالد بن صفوان : ما البلاغة . قال : اصابة المعنى والقصد الى الحجة . وقيل لآخر : ما البلاغة . قال : تصوير الحق في صورة الباطل وتصوير الباطل في صورة الحق (١) . وقيل لابرهيم الامام : ما البلاغة . فقال : الجزالة والاصالة

(١) لا يجوز ذلك الا على طريقة المغايرة في الامور القابلة المدح والذم

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانٍ : لَمْ يُفَسِّرْ احَدٌ ٱلْبَلَاغَةَ تَفْسِيرَ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ اذْ قَالَ : ٱلْبَلَاغَةُ لِمَعَانٍ تَجْرِي فِي وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ : فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْاشَارَةِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْحَدِيثِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلِٱسْتِمَاعِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلِٱحْتِجَاجِ . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ شِعْرًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱبْتِدَاءً. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ جَوَابًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَجْعًا . وَمِنْهَا مَا يَكُونُ خُطَبًا . وَمِنْهَا رُبَّمَا كَانَتْ رَسَائِلَ . فَغَايَةُ (١) هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلْوَحْيُ فِيهَا وَٱلْإِشَارَةُ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱبْلَغُ وَٱلْإِيجَازُ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ. فَٱلسُّكُوتُ يُسَمَّى بَلَاغَةً مَجَازًا وَهُوَ فِي حَالَةٍ لَا يَنْجَعُ فِيهَا ٱلْقَوْلُ وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا إِقَامَةُ ٱلْحُجَجِ إِمَّا عِنْدَ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ ٱلْخِطَابَ اوْ عِنْدَ وَضِيعٍ لَا يَرْهَبُ ٱلْجَوَابَ . اوْ ظَالِمٍ سَلِيطٍ يَحْكُمُ بِٱلْهَوَى وَلَا يَرْتَدِعُ بِكَلِمَةِ ٱلتَّقْوَى وَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يُعْرَى مِنَ ٱلْخَيْرِ اوْ يَجْلِبُ ٱلشَّرَّ فَٱلسُّكُوتُ اوْلَى كَمَا قَالَ ابُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابٌ   جَوَابُ مَا يُكْرَهُ ٱلسُّكُوتُ

وَرُبَّمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَالٍ ارْفَقَ مِنْ كَلَامِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : كُلُّ صَامِتٍ نَاطِقٌ مِنْ جِهَةِ ٱلدَّلَالَةِ. وَذٰلِكَ انَّ دَلَائِلَ ٱلصَّنْعَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَاضِحَةٌ . وَٱلْمَوْعِظَةُ فِيهَا قَائِمَةٌ . وَقَدْ قَالَ ٱلرَّقَاشِيُّ : سَلِ ٱلْأَرْضَ مَنْ شَقَّ انْهَارَكِ وَغَرَسَ اشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ . فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا اجَابَتْكَ ٱعْتِبَارًا . وَقَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ : (رُبَّمَا كَانَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بِٱلْاسْتِمَاعِ) فَلِأَنَّ ٱلْمُخَاطَبَ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ ٱلِٱسْتِمَاعَ لَمْ

(١) وفي نسخة : عامّة

يَقِفُ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَدِّي إِلَى ٱلْخِطَابِ . فَٱلِاسْتِمَاعُ ٱلْحَسَنُ عَوْنٌ لِلْبَلِيغِ عَلَى إِفْهَامِ ٱلْمَعْنَى

وَقَدْ جَاءَ لِلْبَلَاغَةِ تَعْرِيفَاتٌ أُخَرُ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ حُكَمَاءِ ٱلْهِنْدِ : جِمَاعُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْبَصَرُ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاقِعِ ٱلْفُرْصَةِ وَمِنَ ٱلْبَصَرِ بِٱلْحُجَّةِ أَنْ تَدَعَ ٱلْإِفْصَاحَ بِهَا إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَنْهَا إِذَا كَانَ طَرِيقُ ٱلْإِفْصَاحِ وَعْرًا وَكَانَتِ ٱلْكِنَايَةُ أَحْضَرَ نَفْعًا. قَالَ آخَرُ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا يُؤْنِسُ مَسْمَعُهُ. وَيُؤْيِسُ مَصْنَعُهُ. وَٱلْبَلِيغُ مَنْ يَجْتَنِي مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ أَنْوَارَهَا. وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ثِمَارَهَا. لَيْسَتِ ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ يُطَالَ عِنَانُ ٱلْقَلَمِ أَوْ سِنَانُهُ. أَوْ يُبْسَطَ رِهَانُ ٱلْقَوْلِ وَمَيْدَانُهُ . بَلْ هِيَ أَنْ يَبْلُغَ أَمَدَ ٱلْمُرَادِ بِأَلْفَاظٍ أَعْيَانٍ وَمَعَانٍ أَفْرَادٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَزِيدُ عَلَى ٱلْحَاجَةِ وَلَا إِخْلَالٌ يُفْضِي إِلَى ٱلْفَاقَةِ . وَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَلَاغَةَ قَالَ : هِيَ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ إِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْأَذْهَانِ . وَلَا يُسْلَكُ إِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ. يَعْبَثُ صَاحِبُهَا بِٱلْكَلَامِ . وَيَقُودُهُ بِأَلْيَنِ زِمَامٍ. حَتَّى كَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ تَتَحَاشَدُ فِي ٱلتَّسَابُقِ إِلَى خَوَاطِرِهِ وَٱلْمَعَانِي تَتَغَايَرُ فِي ٱلِانْثِيَالِ عَلَى أَنَامِلِهِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ ٱلطَّائِيِّ :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ ... حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وَقِيلَ فِي بَلِيغٍ : فُلَانٌ مَشْرَفِيُّ ٱلْمَشْرِقِ . وَصَيْرَفِيُّ ٱلْمَنْطِقِ . ٱلْبَيَانُ أَصْغَرُ صِفَاتِهِ. وَٱلْبَلَاغَةُ عَفْوُ خَطَرَاتِهِ . كَأَنَّهُ أُوحِيَ بِٱلتَّوْفِيقِ إِلَى صَدْرِهِ. وَحَسُنَ ٱلصَّوَابُ بَيْنَ طَبْعِهِ وَفِكْرِهِ . يَحُزُّ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ . وَيَسْبِقُ فِيهَا إِلَى دَرْكِ ٱلْمَرَامِ . كَأَنَّمَا جَمَعَ ٱلْكَلَامَ حَوْلَهُ حَتَّى ٱنْتَقَى مِنْهُ وَٱنْتَخَبَ . وَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا طَلَبَ . وَتَرَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَذْنَابًا لَا رُؤُسًا.

وَاَجسَادًا لَا نُفوسًا . وَقِيلَ فِي آخر : يَرْضَى بعفوِ الطَّبْعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خفَّ عَلَى السَّمْعِ . وَيُوجِز فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلّهِ فُلَانٌ اخذ بِأَزِمَّةِ القَوْلِ يَقُودُهَا كَيفَ ارَادَ وَيَجْذُبُهَا انَّى شَاءَ فَلَا تَعصِيهِ بَيْنَ الصَّعبِ وَالذَّلُولِ . وَلَا تُسلِمُهُ عِنْدَ الحُزُونِ وَالسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : الصَّخْرُ الاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : المَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ . فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ المَفصِلَ . وَيَنْسُقُ الدُّرَّ المُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ الكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَق . وَجَامَّةٌ لَمْ تُرْتَقْ . خَاطِرُهُ البَرقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمعًا . وَالسَّيْفُ اَوْ اَحَدُّ قَطْعًا . وَالمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا . وَالفَلَكُ اَو اَقوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ الكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ المَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ المَرْمَى البَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَستَنبِطُ المَشْرَعَ العَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفْلِقُ الصُّخُورَ . وَيَفِيضُ البُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ السِّفَارَةَ . وَيَسْتَوْفِي العِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي الاَلفَاظَ . وَيَسْتَغْرِقُ الاَغرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ الكَلَامُ : لَوْ اَعفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ الاَقْلَامُ : قَدْ اَحفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا المَنْثُورِ . وَاِلفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ: تجمَّعَ قَوْمٌ مِنْ اَهْلِ ٱلصِّناعَاتِ فوَصَفُوا بلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِناعَاتِهِمْ . (فقَالَ ٱلجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلكَلَامِ نِظَامًا مَا ثَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلفِطْنَةُ ووُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ ٱلفَاظِهِ فَٱحْتَمَلَتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلعَطَّارُ) : اَطْيَبُ ٱلكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ اَلْفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشْقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَلَّقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ. وتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ .(وَقَالَ ٱلصَّائِغُ): خَيْرُ ٱلكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلفِكْرِ. وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ. وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْاِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْاِبْرِيزِ . فِي مَعْنًى وَجِيزٍ.(وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلْبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنْتَهُ بِمِعْيَارِ ٱلفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرَ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعَ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلحَدَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلْبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْاِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَهُ بِفِطِّيسِ ٱلْاِفْهَامِ .(وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ) :خَيْرُ ٱلكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ.وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِفَافُ اَلْفَاظِهِ وَحَسُنَتْ مَطَارِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ .وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلمَاتِحُ) : اَبْيَنُ ٱلكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ اَلفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلْفِطَنِ رِيًّا فَٱمْتَتَحْتَ بِهِ سِقَاءً يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطْتَ بِهِ مَعْنًى يُرْوِي مِنْ ظَمَاءِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلخَيَّاطُ) : ٱلبَلَاغَةُ رِدَاءٌ فَجُرْبَانُهُ ٱلبَيَانُ

وَجَيبُهُ ٱلمَعرِفَةُ وَكُمَّاهُ ٱلوَجَازَةُ ودخَارِيصُهُ ٱلإِفهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلحَلَاوَةُ وَلَابِسُهُ جَسَدُ ٱللَّفظِ وَرُوحُ ٱلمَعنَى . (وَقَالَ ٱلصَّبَّاغُ) : اَحسَنُ ٱلكَلَامِ مَا لَمْ تَنضُ بَهجَةَ اِيجَازِهِ . وَلَمْ تَكشِفْ صِبغَةَ اِعجَازِهِ . قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلاِشكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلآدَابِ . وَاَلِفَ عَذَارَى ٱلاَلبَابِ . (وَقَالَ ٱلحَائِكُ) : اَحسَنُ ٱلكَلَامِ مَا اَتَّصَلَتْ لُحمَةُ اَلفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا . (وَقَالَ ٱلبَزَّازُ) : اَحسَنُ ٱلكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقمُ اَلفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يُستَعجَمْ عَنكَ نَشرٌ وَلَمْ يُستَبهَمْ عَلَيكَ طَيٌّ . (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ) : خَيرُ ٱلكَلَامِ مَا لَمْ يَخرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخلِيعِ اِلَى مَنزِلَةِ ٱلتَّقرِيبِ اِلَّا بَعدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَالمُهرِ ٱلَّذِي اَطمَعَ اَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثَقَافَتِهِ . (وَقَالَ ٱلجَمَّالُ) : اَلبَلِيغُ مَنْ اَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَاَنَاخَهُ فِي مَبرَكِ ٱلمَعنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلاِختِصَارَ لَهُ عِقَالًا . وَٱلاِيجَازَ لَهُ مَجَالًا . فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلآذَانِ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلاَذهَانِ . (وَقَالَ ٱلخَمَّارُ) : اَبلَغُ ٱلكَلَامِ مَا طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلعِلمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلفَهمِ وَضَمَّنَتْهُ دِنَانُ ٱلحِكمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلاَفكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلعُقُولِ حِدَّتُهُ . (وَقَالَ ٱلفُقَّاعِيُّ) : خَيرُ ٱلكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ اَلفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلجَهلِ فَطَابَ جُشَاءُ قِطَعِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ . (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ) : خَيرُ ٱلكَلَامِ مَا اِذَا بَاشَرَ دَوَاءُ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبهَةِ اَستَطلَقَتْ طَبِيعَةُ ٱلغَبَاوَةِ فَشَفَى مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَاَورَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ . (قَالَ ٱلكَحَّالُ) : كَمَا اَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذَى ٱلاَبصَارِ فَٱلشُّبهَةُ قَذَى ٱلبَصَائِرِ

فَٱكْحَلْ عَيْنَ ٱللُّكْنَةِ بِمِيلِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱجْلُ رَمَصَ ٱلْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ ٱلْيَقْظَةِ.
(ثُمَّ قَالَ): اَجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى اَنَّ اَبْلَغَ ٱلْكَلَامِ مَا اِذَا اَشْرَقَتْ شَمْسُهُ ٱنْكَشَفَ لَبْسُهُ وَاِذَا صَدَقَتْ اَنْوَاؤُهُ اَخْضَرَّتْ اَحْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوَّل

في حقيقة المعاني

(عن كشَّاف اصطلاحات الفنون بتصرُّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً ٱلْمَقْصُودُ وَفِي ٱلْاِصْطِلَاحِ هُوَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهَا ٱللَّفْظُ اَيْ مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا. وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا. فَٱلْاِفْرَادُ وَٱلتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا ٱلْمَعَانِي تَبَعًا. وَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ ٱلْخَطَاءِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمُرَادِ وَتُعْرَفُ اَحْوَالُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّتِي بِهَا يُطَابِقُ ٱللَّفْظُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ بِٱعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي: اَلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُوصَفُ

بالبلاغة هو الذي يدل بلفظه على معناه اللغوي او العرفي او الشرعي . ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية على المعنى المقصود الذي يريد المتكلم إثباته او نفيه فهناك الفاظ ومعان اول ومعان ثوان . فالمعاني الاول هي مدلولات التراكيب والالفاظ التي تسمى في علم النحو اصل المعنى . والمعاني الثواني الاغراض التي يساق لها الكلام . ولذا قيل : مقتضى الحال هو المعنى الثاني . كرد الانكار ودفع الشك مثلا اذا قلنا : ان زيدا قائم . فالمعنى الاول هو القيام المؤكد والمعنى الثاني رد الانكار ودفع الشك . واذا قلنا : هو اسد في صورة الانسان . فالمعنى الاول هو مدلول هذا الكلام والمعنى الثاني هو انه شجاع . فالمعنى الثاني هو الذي يراد ايراده في الطرق المختلفة والمفهوم من تلك الطرق هو المعنى الاول . وتسميته بالمعنى الثاني لكون اللفظ دالا عليه بواسطة المعنى الاول . فدلالة المعنى الاول على الثاني عقلية قطعا واما دلالة اللفظ على المعنى الاول فقد تكون وضعية وقد تكون عقلية . وقد تسمى المعاني الاول بالخصوصيات والكيفيات الزائدة على اصل المعنى وبالصور والخواص والمزايا مجازا . ثم انهم سموا ترتيب المعاني الاول وكذا المعاني الاول الفاظا . وفضيلة الكلام باعتبار هذا الترتيب لكون المعنى الاول محل الفضيلة لان ترتيب المعاني الاصلية في النفس ثم ترتيب الالفاظ في النطق على حذوها على وجه ينتقل منها الذهن بتوسلها الى الخواص في الافادة بلا اخلال ولا تعقيد هو

ٱلْبَلَاغَةُ.فَيَكُونُ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْأُوَلِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَخْصُوصِ مَنْشَأَ ٱلْفَضِيلَةِ وَمَنَاطَ ٱلْبَرَاعَةِ بِلَا شَكٍّ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي تَتَبَيَّنُ بِٱلْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي سَبِيلٌ إِلَّا بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ تَجَوَّزُوا فَعَبَّرُوا عَنْ تَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ ثُمَّ بِٱلْأَلْفَاظِ بِحَذْفِ ٱلتَّرْتِيبِ . وَإِذَا وَضَعُوا ٱللَّفْظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَفْخِيمِهِ كَانَ يُقَالُ ٱلْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱللَّفْظِ. اَوْ هُوَ مَحَلُّ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ ٱلِٱتِّصَافَ بِٱلْفَصَاحَةِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُرِيدُوا ٱللَّفْظَ ٱلْمَنْطُوقَ وَلٰكِنْ اَرَادُوا مَعْنَى ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي دَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١٠ و ١١ من علم الادب)

اَمَّا صِحَّةُ ٱلْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ اَوْجُهٍ : (اَحَدُهَا) إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً . (وَٱلثَّانِي) ٱسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا . (وَٱلثَّالِثُ) صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا . وَٱلْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْمُقَارَبَةِ لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً . وَٱلثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ ٱلْمُقَابَلَةِ. وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلَّا اَحَدُ هٰذَيْنِ ٱلْوَجْهَيْنِ : ٱلْمُوَافَقَةُ فِي ٱلِٱئْتِلَافِ وَٱلْمُضَادَّةُ مَعَ ٱلِٱخْتِلَافِ . فَاَمَّا فَصَاحَةُ

ٱلألفاظ فتكون بثلاثة اوجه : (احدها) مجانبة ٱلغريب ٱلوحشي حتى لا يمجّه سمع ولا ينفر منه طبع . (وٱلثاني) تنكّب ٱللفظ ٱلمبتذل وٱلعدول عن ٱلكلام ٱلمسترذل حتى لا يستسقطه خاصيّ ولا ينبو عنه فهم عاميّ كما قال ٱلجاحظ في كتاب ٱلبيان : اما انا فلم ار قوماً امثل طريقة في ٱلبلاغة من ٱلكتّاب وذلك انهم قد ٱلتمسوا من ٱلألفاظ ما لم يكن متوعّرا وحشيا ولا ساقطا عاميّا . (وٱلثالث) ان يكون بين ٱلألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة . اما ٱلمطابقة فهي ان تكون ٱلألفاظ كٱلقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بشر بن ٱلمعتمر في وصيته في ٱلبلاغة : اذا لم تجد ٱللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مستقرّها ولا حالّة في مركزها بل وجدتها قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا نكرهها على ٱلقرار في غير موضعها فانك ان لم تتعاط قرض ٱلشعر ٱلموزون ولم تتكلف اختيار ٱلمنثور لم يعبك بترك ذلك احد واذا انت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فهيما عابك من انت اقل عيبا منه وازرى عليك من انت فوقه . واما ٱلمناسبة فهي ان يكون ٱلمعنى يليق ببعض ٱلألفاظ اما لعرف مستعمل او لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك ٱلمعاني بغير تلك ٱلألفاظ كانت نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتياد ما سواها . وقال بعض ٱلبلغاء : لا يكون ٱلبليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك . واما معاطاة ٱلاعراب وتجنب ٱللحن فانما هو من

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ أَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَأَشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخَّص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي أَذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٌ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ أَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ إِلَّا بِغَيْرِهِ . وَإِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَإِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتَجْلُوهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْإِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلِٱخْتِصَارِ وَدِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكُلَّمَا

كَانَتِ ٱلدَّلَالَةُ اوْضَحَ وَافْصَحَ وَكَانَتِ ٱلْاِشَارَةُ ابْيَنَ وَانْوَرَ كَانَتْ انفَعَ وَانجَعَ فِي ٱلْبَيَانِ . ثُمَّ اعْلَمْ حَفِظَكَ ٱللّٰهُ انَّ حُكْمَ ٱلْمَعَانِي خِلَافُ حُكْمِ ٱلْاَلْفَاظِ لِانَّ ٱلْمَعَانِي مَبْسُوطَةٌ اِلَى غَايَةٍ وَمُمْتَدَّةٌ اِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَاسْمَاءُ ٱلْمَعَانِي مَحْصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مَحْدُودَةٌ. وَجَمِيعُ اصْنَافِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي مِنْ لَفْظٍ اوْ غَيْرِ لَفْظٍ خَمْسَةُ اشْيَاءَ لَا تَنْقُصُ وَلَا تَزِيدُ : اوَّلُهَا ٱللَّفْظُ. ثُمَّ ٱلْاِشَارَةُ. ثُمَّ ٱلْعَقْدُ. ثُمَّ ٱلْخَطُّ. ثُمَّ ٱلْحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نُصْبَةً. وَٱلنُّصْبَةُ هِيَ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْاَصْنَافِ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَاتِ . وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلْخَمْسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِلْيَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِلْيَةِ اُخْتِهَا. وَهِيَ ٱلَّتِي تَكْشِفُ لَكَ عَنْ اعْيَانِ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْجُمْلَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفْسِيرِ وَعَنْ اجْنَاسِهَا وَاقْدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسَّارِّ وَٱلضَّارِّ وَعَمَّا يَكُونُ مِنْهَا لَهْوًا مُبَهْرَجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا . وَفِي نَحْوِ قَوْلِ ابِي عُثْمَانَ (اِنَّ ٱلْمَعَانِيَ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ ابُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِابِي دُلَفَ بْنِ عِيسَى ٱلْعِجْلِيِّ :

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى ٱلشِّعْرُ افْنَتْهُ مَا قَرَتْ حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
وَلٰكِنَّهُ فَيْضُ ٱلْعُقُولِ اِذَا ٱنْجَلَتْ سَحَائِبُ مِنْهُ اُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ ابُو ٱلْعَبَّاسِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : لَحْظَةُ ٱلْقَلْبِ اسْرَعُ مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَابْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي اعْمَاقِ اوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَامِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدُ

اِذَا كَتَبَتْ . وَٱلعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِٱلْفَاظٍ كَوَاسٍ فِي اَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِاِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ اَبْنِ بُرْدٍ : بِمَا فُقْتَ اَهْلَ عُمْرِكَ وَسَبَقْتَ اَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ اَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِاَنِّي لَمْ اَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ اِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ اِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاَحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَانْتَقَيْتُ حُرَّهَا وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ مِنْ مُتَكَلَّفِهَا وَمَا مَلَكَ قِيَادِي قَطُّ ٱلْاِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

فَائِدَةُ هٰذَا ٱلْفَصْلِ ٱلْاِحَاطَةُ بِاَسَالِيبِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَتَبَايُنِهَا . وَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مُفْتَقِرٌ اِلَى هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَٱلَّذِي يَلِيهِ بِخِلَافِ غَيْرِهِمَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْمَذْكُورَةِ لَا سِيَّمَا مُفَسِّرِي ٱلْاَشْعَارِ فَاِنَّهُمْ بِهِ اَعْنَى . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْاَصْلَ فِي ٱلْمَعْنَى اَنْ يُحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ وَمَنْ يَذْهَبُ اِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَفْتَقِرُ اِلَى دَلِيلٍ كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِ (ٱلثِّيَابِ) هُوَ مَا يُلْبَسُ وَمَنْ تَاوَّلَ ذَهَبَ اِلَى اَنَّ ٱلْمُرَادَ هُوَ ٱلْقَلْبُ لَا ٱلْمَلْبُوسُ . وَهٰذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ

دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا أَرَدتَّ أَنْ تُصَلِّيَ فَٱدْخُلْ بَيْتَكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ. فَٱلظَّاهِرُ مِنْ هٰذَا هُوَ ٱلْبَيْتُ وَٱلْبَابُ. وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ تَجْمَعُ عَلَيْكَ هَمَّ قَلْبِكَ وَتَمْنَعُ أَنْ يَخْطُرَ بِهِ سِوَى أَمْرِ ٱلصَّلَاةِ. فَعَبَّرَ عَنِ ٱلْقَلْبِ بِٱلْبَيْتِ وَعَنْ مَنْعِ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّتِي تَخْطُرُ لَهُ بِإِغْلَاقِ ٱلْبَابِ. وَهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ. فَٱلْمَعْنَى ٱلْمَحْمُولُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا يَقَعُ فِي تَفْسِيرِهِ خِلَافٌ وَٱلْمَعْنَى ٱلْمَعْدُولُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ يَقَعُ فِيهِ ٱلْخِلَافُ إِذْ بَابُ ٱلتَّأْوِيلِ غَيْرُ مَحْصُورٍ. وَٱلْعُلَمَاءُ مُتَفَاوِتُونَ فِي هٰذَا فَإِنَّهُ قَدْ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ وَجْهاً ضَعِيفاً مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ فَيَكْسُوهُ بِعِبَارَتِهِ قُوَّةً تُمَيِّزُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْقَوِيَّةِ فَإِنَّ ٱلسَّيْفَ بِضَارِبِهِ

إِنَّ ٱلسُّيُوفَ مَعَ ٱلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ ... كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ
تَلْقَى ٱلْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ ... مِثْلَ ٱلْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

وَهٰذَا ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ ذِكْرِهِ هَاهُنَا يَرْجِعُ أَكْثَرُهُ إِلَى ٱلتَّأْوِيلِ لِأَنَّهُ أَدَقُّ وَلَا يَخْلُو تَأْوِيلُ ٱلْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يُحْتَمَلُ غَيْرُهُ. وَإِمَّا أَنْ يُحْتَمَلَ ٱلشَّيْءُ وَغَيْرُهُ. وَتِلْكَ ٱلْغَيْرِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ ضِدًّا أَوْ لَا تَكُونَ ضِدًّا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ. (فَٱلْأَوَّلُ) يَقَعُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ ٱلْأَشْعَارِ وَلَا يَجْرِي فِي ٱلدِّقَّةِ وَٱللَّطَافَةِ مَجْرَى ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ. (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَإِنَّهُ قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ جِدًّا وَهُوَ مِنَ ٱلتَّأْوِيلَاتِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ. لِأَنَّ

دَلَالَةَ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَضِدّهِ اَغرَبُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَغَيْرِهِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : اِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ. وَهٰذَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ ضِدَّيْنِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ تَفعَلْ فِعْلاً تَسْتَحِي مِنْهُ فَٱفعَلْ مَا شِئْتَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَنْزَعُكَ عَنْ فِعْلِ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَٱفعَلْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَانِ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ اَحَدُهُمَا مَدْحٌ وَٱلْآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا كَافُورًا :

وَاَظْلَمُ اَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعِمَ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنْعِمَ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ :

فَاِنْ نِلْتُ مَا اَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا ... شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ ٱلطَّيْرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ يَحْتَمِلُ مَدْحًا وَذَمًّا وَاِذَا اُخِذَ بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى مَا قَبْلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَّمِّ اَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ نَوَالِهِ بِٱلْبُعْدِ وَٱلشُّذُوذِ. وَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ مُفْتَتَحٌ (بِاِنْ) ٱلشَّرْطِيَّةِ وَقَدْ اُجِيبَ بِلَفْظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعْنَاهَا ٱلتَّقْلِيلُ اَيْ : لَسْتُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ فَاِنْ نِلْتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلْتُ اِلَى مَوْرِدٍ لَا يَصِلُ اِلَيْهِ ٱلطَّيْرُ لِبُعْدِهِ . وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدْحِ خَاصَّةً لِاَرْتِبَاطِهِ بِٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي قَبْلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقْصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي شِعْرِهِ كَقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ اَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ
وَلِلّٰهِ سِرٌّ فِي عُلَاكَ وَاِنَّمَا ... كَلَامُ ٱلْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ ٱلْهَذَيَانِ

ثُمَّ قَالَ :

فَمَا لَكَ تَعْنِي بِٱلْاَسِنَّةِ وَٱلْقَنَا ... وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ

فَاِنَّ هٰذَا بِٱلذَّمِّ اَشْبَهُ مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَقُولُ: لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغْتَهُ بِسَعْيِكَ وَاهْتِمَامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعَادَةٍ. وَهٰذَا لَا فَضْلَ فِيهِ لِاَنَّ ٱلسَّعَادَةَ تَنَالُ ٱلْخَامِلَ وَٱلْجَاهِدَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا . وَاَكْثَرُ مَا كَانَ ٱلْمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي قَصَائِدِهِ ٱلْكَافُورِيَّاتِ ... وَهٰذَا ٱلْقِسْمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُوَجَّهَ اَيْ لَهُ وَجْهَانِ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بَرَاعَةِ ٱلشَّاعِرِ وَحُسْنِ تَاَتِّيهِ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) فَاِنَّهُ يَكُونُ اَكْثَرَ وُقُوعًا مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ. لِاَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْاَوَّلَ كَثِيرُ ٱلْوُقُوعِ . وَٱلْقِسْمَ ٱلثَّانِي قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ . وَهٰذَا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ: وَلَا تَقْتُلُوا اَنْفُسَكُمْ . فَاِنَّ هٰذَا لَهُ وَجْهَانِ مِنَ ٱلتَّاْوِيلِ اَحَدُهُمَا ٱلْقَتْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ ٱلَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَٱلْآخَرُ هُوَ ٱلْقَتْلُ ٱلْمَجَازِيُّ وَهُوَ ٱلْاِكْبَابُ عَلَى ٱلْمَعَاصِي فَاِنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِذَا اَكَبَّ عَلَى ٱلْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ .... وَمِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مَا يُحْكَى عَنْ اَفْلَاطُونَ اَنَّهُ قَالَ : تَرْكُ ٱلدَّوَاءِ دَوَاءٌ. فَذَهَبَ بَعْضُ ٱلْاَطِبَّاءِ اِلَى اَنَّهُ اَرَادَ: اِنْ لَطُفَ ٱلْمِزَاجُ وَٱنْتَهَى اِلَى غَايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ ٱلدَّوَاءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَٱلْاِضْرَابُ عَنْهُ دَوَاءٌ . وَذَهَبَ آخَرُونَ اِلَى اَنَّهُ اَرَادَ بِٱلتَّرْكِ ٱلْوَضْعَ اَيْ : وَضْعُ ٱلدَّوَاءِ عَلَى ٱلدَّاءِ دَوَاءٌ . يُشِيرُ بِذٰلِكَ

إلى حذق الطبيب في أوقات علاجه. ومثله في الشعر قول الفرزدق:

إذا جعفر مرت على هضبة الحمى فقد أخذ الأحياء منها قبورها

وهذا يدل على معنيين: (أحدهما) ذم الأحياء والآخر ذم الأموات. أما (ذم الأحياء) فهو أنهم خذلوا الأموات يريد أنهم تلاقوا قتالهم وقوماً آخرين ففر الأحياء عنهم وأسلموهم أو إنهم استنجدوهم فلم ينجدوهم. وأما (ذم الأموات) فهو أن لهم مخازي وفضائح توجب عاراً وشناراً فهم يعدون بها الأحياء ويلصقونها بهم. وعلى هذا ورد قول أبي تمام:

بالشعر طول إذا اصطكت قصائده
في معشر وبه عن معشر قصر

فهذا البيت يحتمل تأويلين. (أحدهما) أن الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك. يريد بذلك أن مآثره كثيرة ومآثر غيره قليلة. (والآخر) أن الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك وذا خمول بمدح غيرك. فلفظة الطول: يفهم منها ضد القصر ويفهم منها الفخر من قولنا: طال فلان على فلان أي فخر عليه. ومما ينتظم بهذا السلك قول أبي كبير الهذلي:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينه فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وهذا يحتمل وجهين من التأويل. (أحدهما) أنه أراد بسعي الدهر سرعة تقضي الأوقات مدة الوصال. فلما انقضى الوصل عاد الدهر إلى حالته في السكون والبطء. (والآخر) أنه أراد بسعي

ٱلدَّهْرِ بِٱللَّئَامِ وَٱلْوِشَايَاتِ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْوَصْلِ سَكَنُوا اَوْ تَرَكُوا ٱلسِّعَايَةَ . وَهٰذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ ٱلْمُضَافِ اِلَيْهِ مَكَانَ ٱلْمُضَافِ كَقَوْلِهِ : وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ اَيْ اَهْلَ ٱلْقَرْيَةِ . وَمِنَ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمَعْنَى فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي عَضُدِ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَوَّلُهَا (اَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا) فَقَالَ :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ   لَمْ يُرْضِهَا اَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وَهٰذَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مِقْدَارَ عَطَايَاهُ ٱلنَّفِيسَةِ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِاَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لِاَنَّ عَطَايَاهُ اَنْفَسُ مِنْهَا . (ٱلْآخَرُ) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ اَنَّهُ يَهَبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لَمَا رَضِيَتْ ذٰلِكَ اِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ. وَهٰذَانِ ٱلْوَجْهَانِ اَنَا ذَكَرْتُهُمَا وَاَتَى ٱلْمَذْكُورُ مِنْهُمَا اَحَدُهُمَا . وَهٰذَا ٱلَّذِي اَشَرْتُ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى اَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا

البحث الخامس

في التَّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ مِيزَانُ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ نَقْدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا بَلِ ٱلْمِحَكُّ ٱلَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ مِقْدَارُ عِيَارِهَا وَلَا يَزِنُ بِهِ اِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُتَّقِدَةٍ وَلَمْحَةٍ مُنْتَقِدَةٍ . فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِّيَ صَرَّافًا .

وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا ٱلتَّرْجِيحِ وَٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ أَنَّ هُنَاكَ يُرَجِّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجِّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي أَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ ٱلتَّوَاتُرِ مَثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ ٱلْآحَادِ أَوْ بَيْنَ ٱلْمُسْنَدِ وَٱلْمُرْسَلِ أَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا لَا يَعْرِضُ إِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ أَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ إِلَى ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخِطَابِيَّةِ . وَرُبَّمَا ٱتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ كَٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ أَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱنْقِسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مَوَاضِعَ ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (أَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ إِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَٱلتَّرْجِيحُ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي أَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي ٱلْآخَرِ . أَوْ حَقِيقَةً فِيهِمَا جَمِيعًا أَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ ٱلْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ . (وَأَمَّا ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ) فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ ٱلنَّظَرِ لِمَكَانِ ٱلْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . وَٱلشَّيْئَانِ ٱلْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ ٱلْمُشْتَبِهَيْنِ . . .

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ) إِذَا كَانَا حَقِيقَيْنِ فَقَوْلُهُ : ٱلْتَمِسُوا ٱلرِّزْقَ فِي خَبَايَا ٱلْأَرْضِ وَٱلْخَبَايَا جَمعُ خَبِيَّةٍ وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَائِنًا مَا كَانَ . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ حَقِيقَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْكُنُوزُ ٱلْمَخْبُوءَةُ فِي بُطُونِ ٱلْأَرْضِ. (وَٱلْآخَرُ) ٱلْحَرْثُ وَٱلْغِرَاسُ . وَجَانِبُ ٱلْحَرْثِ وَٱلْغِرَاسِ اَرْجَحُ لِاَنَّ مَوَاضِعَ ٱلْكُنُوزِ لَا نُعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ وَهُوَ لَا يَأْمُرُ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ شَيْءٌ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَبَقِيَ ٱلْمُرَادُ بِخَبَايَا ٱلْأَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ.

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَجَازَيْنِ) فَقَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

قَدْ بَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا ... وَبَلَوْنَا اَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا

وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلِيبًا ... وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمَا

فَعَلِمْنَا اَنْ لَيْسَ اِلَّا بِشَقِّ النَّفْسِ صَارَ ٱلْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فَٱلسَّاحِلُ وَٱلْقَلِيبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلْكَثِيرَ وَٱلْقَلِيلَ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ . (وَٱلْآخَرُ) اَنَّهُ اَرَادَ بِهِمَا ٱلسَّبَبَ وَغَيْرَ ٱلسَّبَبِ . فَاِنَّ ٱلسَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ وَٱلْقَلِيبُ يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ اِلَى سَبَبٍ . وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ مَجَازٌ . فَاِنَّ حَقِيقَةَ ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ غَيْرُهُمَا وَٱلْوَجْهُ هُوَ ٱلثَّانِي لِاَنَّهُ هُوَ اَدَلُّ عَلَى بَلَاغَةِ ٱلْقَائِلِ وَمَدْحِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ. اَمَّا بَلَاغَةُ ٱلْقَائِلِ فَٱلسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ ٱلتَّكْرِيرِ بِٱلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ ٱلْبَيْتِ وَعَجُزِهِ . فَاِنَّ عَجُزَهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ لِاَنَّ ٱلْبَارِضَ هُوَ اَوَّلُ ٱلنَّبْتِ حِينَ يَبْدُو فَاِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيمًا . فَكَاَنَّهُ قَالَ : اَخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعًا وَمَسْئَلَةً وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا . وَامَّا مَدْحُ ٱلْمَقُولِ

فِيهِ فَلتَعْدَادِ حَالَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُوءَالِهِ وَإِكْثَارِهِ وَإِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا إِمَّا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِيِّ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلِاسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى إِلَى كَيْفِيَّةِ إِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِأَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِإِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا كَمَلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . اِعْلَمْ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ إِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ . وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَأَوْ . وَغَرَضُنَا هَا هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا لَا يُفِيدُ إِلَّا ٱلِاشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَلْقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَقَعُ ذٰلِكَ ٱلِاشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَ

السامع حالة الاول عساه يعرف حالة الثاني . يدلك على ذلك انك اذا عطفت على الاول شيئاً ليس منه سبب ولا هو مما يذكر بذكره لم يستقم . فلو قلت : (خرجت اليوم من داري واحسن الذي يقول بيت كذا) قلت ما يضحك منه . وان لم يكن في قوة المفرد فهو على قسمين : (الاول) ان يكون معنى احدى الجملتين لذاته متعلقاً بمعنى الاخرى كما اذا كانت كالتوكيد لها او كالصفة فلا يجوز ادخال العاطف عليه لان التوكيد والصفة متعلقان بالموكد والموصوف لذاتيهما . والتعلق الذاتي يغني عن لفظ يدل على التعلق . فمثال التوكيد قوله : ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله . ولم يقل : (ويخادعون) لان المخادعة ليست شيئاً غير قولهم : آمنا مع انهم غير مؤمنين . ومما جاء فيه الاثبات (بان والا) على هذا الحد قوله : ان هو الا وحي يوحى . فالاثبات في قوله تأكيد لنفي ما ينفى . (القسم الثاني) ان يكون بين الجملتين تعلق ذاتي فان لم يكن بينهما مناسبة فيجب ترك العاطف ايضاً لان العطف للتشريك ولا تشريك . ومن هاهنا عابوا على ابي تمام قوله :

لا والذي عالم ان النوى مر وان ابا الحسين كريم

اذ لا مناسبة بين مرارة النوى وبين كرم ابي الحسين . ولذلك لم يحسن جواز العاطف . وان كان بينهما مناسبة فاما ان يكون بالذي اخبر بهما او بالذي اخبر عنهما او بهما كليهما . وهذا الاخير

هُوَ ٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْعَطْفِ وَمَعْنَى ٱلْمُنَاسَبَةِ أَنْ يَكُونَا مُتَشَابِهَيْنِ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرٌو. أَوْ مُتَضَادَّيْنِ تَضَادًّا عَلَى ٱلْخُصُوصِ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ. وَكَقَوْلِكَ: ٱلْعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ. فَلَوْ قُلْتَ: زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو شَاعِرٌ ٱخْتَلَّ إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلْقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ. وَإِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ: فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ. يَجِبُ إِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ جَعْلُهُ فَاعِلًا لِلْأَمْرَيْنِ. فَلَوْ قُلْتَ: يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوُهِّمَ أَنَّ ٱلثَّانِي رُجُوعٌ عَنِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا أَفَادَ ٱلْعَاطِفُ ٱلِٱجْتِمَاعَ ٱزْدَادَ ٱلِٱشْتِرَاكُ كَقَوْلِكَ: ٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ أَحْسَنْتَ وَأَسَأْتَ. وَٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ. وَكَقَوْلِهِ:

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ وَأَنْ نَكُفَّ ٱلْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلُ ٱلْفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ أَيْ لَا تَطْمَعُوا أَنْ تَرَوْا إِكْرَامَنَا إِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ إِهَانَتِكُمْ إِيَّانَا. وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَجِبُ إِسْقَاطُ ٱلْعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِٱخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ إِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ. فَقَوْلُهُ: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ إِخْبَارٌ مِنْهُ. فَلَوْ أَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ إِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى. قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: وَإِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ إِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا مَنْزِلَتَهُ إِذَا صُرِّحَ بِذٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كَثِيرًا. فَمِنْ لَطِيفِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

زَعَمَ ٱلْعَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ   صَدَقُوا وَلٰكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

لَمَّا حَكَى عَنِ ٱلْعَوَاذِلِ قَوْلَهُمْ إِنَّهُ فِي غَمْرَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ ٱلسَّامِعَ عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ: فَمَا جَوَابُكَ عَنْ ذٰلِكَ. أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَهُ إِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فَقَالَ: أَقُولُ صَدَقُوا. أَنَا كَمَا قَالُوا وَلٰكِنْ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي فَلَاحِي. وَلَوْ قَالَ : وَصَدَقُوا لٰكِنْ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ فِي أَنَّهُ مَسْئُولٌ. وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ. وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى ٱلْعَاطِفِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ : يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ. وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللّٰهُ : فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ خَبَرٌ

(وَمِمَّا يَجِبُ) ذِكْرُهُ هَا هُنَا ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَإِنَّهَا تَجِيءُ مَعَ ٱلْوَاوِ تَارَةً وَبِدُونِهَا أُخْرَى. فَنَقُولُ ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) وَلَهُ أَحْوَالٌ : (ٱلْأُولَى) أَنْ يُجْمَعَ لَهَا بَيْنَ ٱلْوَاوِ وَضَمِيرِ صَاحِبِ ٱلْحَالِ كَقَوْلِكَ: جَاءَ زَيْدٌ وَمَعَهُ غُلَامُهُ وَلَقِيتُ زَيْدًا وَفَرَسُهُ سَابِقُهُ. وَهٰذِهِ ٱلْوَاوُ تُسَمَّى وَاوَ ٱلْحَالِ. (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ كَقَوْلِكَ : كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَى فِيَّ. وَهُوَ فِي مَعْنَى مُشَافِهًا وَٱلرَّابِطُ ٱلضَّمِيرُ. (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلْوَاوِ مِنْ غَيْرِ ضَمِيرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ وَٱلْجَيْشُ قَادِمٌ. وَزُرْتَنَا وَٱلشِّتَاءُ خَارِجٌ. قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَيَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ حَالَيْنِ: مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ. إِذَا أَجَزْنَا وُقُوعَ حَالَيْنِ

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَٱلْحَسنُ قَادِمٌ . فَٱلْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ ٱلتَّاءِ أَوْ مِنَ ٱلْكَافِ وَٱلْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) أَوْ مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ ٱلْعَامِلُ فِيهَا . (ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْجُمْلَةُ ٱلْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَاضِيًا أَوْ مُضَارِعًا . أَمَّا ٱلْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْوَاوِ وَقَدْ أَوْ بِأَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجِلْتُ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَأَسْرَعْتُ فِي ٱلْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ ٱلْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ أَبِي صَخْرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ   كَمَا ٱنْتَفَضَ ٱلْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ ٱلْقَطْرُ

إِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ إِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ .

وَأَمَّا ٱلْمُضَارِعُ فَإِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِٱلْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِٱلرَّفْعِ) أَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ أَشْبَهَ ٱسْمَ ٱلْفَاعِلِ إِذَا وَقَعَ حَالًا . وَإِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ حَذْفُ ٱلْوَاوِ مُرَاعَاةً لِأَصْلِ ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِيجَابُ وَجَازَ إِثْبَاتُهَا لِأَنَّ ٱلْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ ٱلْحَالَ . فَإِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْاسْمِيَّةِ . فَٱلْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى ٱلْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ ٱلْمَرْفُوعِ فِي أَحَلَّنَا . وَٱلْإِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ : أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَشَبَّهُوا بِهِ ٱلْفِعْلَ

ٱلْمَاضِي فَقَالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمْرًا . وَجَاءَ زَيْدٌ وَمَا ضَرَبَ عَمْرًا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزه بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

امَّا (اِنَّ) فَلَهَا فَوائِدُ : (ٱلْأُولَى) اَنَّهَا تَرْبِطُ ٱلْجُمْلَةَ ٱلثَّانِيَةَ بِٱلْأُولَى وَبِسَبَبِهَا يَحْصُلُ ٱلتَّأْلِيفُ بَيْنَهُمَا حَتَّى كَأَنَّ ٱلْكَلَامَيْنِ أُفْرِغَا اِفْرَاغًا وَاحِدًا وَلَوْ اَسْقَطْتَهَا كَانَ ٱلثَّانِي نَائِبًا عَنِ ٱلْأَوَّلِ كَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ اِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . (ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّكَ تَرَى لِضَمِيرِ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مَعَ (اِنَّ) مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱللُّطْفِ مَا لَا تَرَاهُ اِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ : اِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَاِنَّ ٱللّٰهَ لَا يُضِيعُ اَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (ٱلثَّالِثَةُ) اَنَّهَا تُهَيِّئُ ٱلنَّكِرَةَ وَتُصْلِحُهَا لِاَنْ يُحَدَّثَ عَنْهَا وَاِنْ كَانَتِ ٱلنَّكِرَةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُهَا وَلٰكِنَّ دُخُولَهَا اَصْلَحُ كَقَوْلِ حَسَّانٍ :

اِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ   لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِٱلْاِحْسَانِ

(ٱلرَّابِعَةُ) اَنَّهَا تُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ كَمَا اِذَا قِيلَ لَكَ : ٱلنَّاسُ اَلْبُوا عَلَيْكُمْ فَهَلْ لَكُمْ اَحَدٌ . فَقُلْتَ : اِنَّ زَيْدًا اَوْ اِنَّ عَمْرًا . اَيْ لَنَا . قَالَ ٱلْاَعْشَى :

اِنَّ مَحَلًّا وَاِنَّ مُرْتَحِلًا   وَاِنَّ فِي ٱلسَّفْرِ اِذْ مَضَوْا مَهَلَا

(اَلْخَامِسَةُ) قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ اِذَا قُلْتَ : اِنَّ عَبْدَ ٱللّٰهِ قَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . فَاِذَا قُلْتَ : اِنَّ عَبْدَ ٱللّٰهِ لَقَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ اِنْكَارِ مُنْكِرٍ لِقِيَامِهِ سَوَاءٌ كَانَ ٱلْمُنْكِرُ هُوَ ٱلسَّائِلَ اَوِ ٱلْحَاضِرِينَ

(وَ اَمَّا اِنَّمَا) فَتَارَةً تَجِيءُ لِلْحَصْرِ بِمَعْنَى اَنَّ هٰذَا ٱلْحُكْمَ لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ ٱلْمَذْكُورِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ (لَيْسَ اِلَّا) كَقَوْلِهِ : اِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَقَوْلِهِ : اِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ . وَقَوْلِهِ : اِنَّمَا اَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا . وَتَارَةً تَجِيءُ لِبَيَانِ اَنَّ هٰذَا ٱلْاَمْرَ ظَاهِرٌ عِنْدَ كُلِّ اَحَدٍ سَوَاءٌ كَانَ كَذٰلِكَ اَوْ فِي زَعْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

اِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللّٰهِ م تَجَلَّتْ مِنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

مُدَّعِيًا اَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ اَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ . (فَائِدَةٌ) اِذَا دَخَلَ (مَا وَاِلَّا) عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَنْصُوبِ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلذِّكْرِ مَا ٱتَّصَلَ (بِاِلَّا) مُتَاخِّرًا عَنْهُ . فَاِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ عَمْرًا اِلَّا زَيْدٌ . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَرْفُوعُ . وَاِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ اِلَّا عَمْرًا . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَنْصُوبُ . وَاِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ اِلَّا عَمْرًا . فَٱلْاِخْتِصَاصُ بِٱلضَّارِبِ . وَاِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ اِلَّا زَيْدًا عَمْرٌو . فَٱلْاِخْتِصَاصُ بِٱلْمَضْرُوبِ . وَاِذَا قُلْتَ : لَمْ اَكْسُ اِلَّا زَيْدًا جُبَّةً . فَٱلْمَعْنَى تَخْصِيصُ كُسْوَةِ ٱلْجُبَّةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِزَيْدٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلْحُكْمُ حَيْثُ يَكُونُ يَدُلُّ اَحَدُ ٱلْمَفْعُولَيْنِ جَارًّا وَمَجْرُورًا كَقَوْلِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْحِمْيَرِيِّ :

لَوْ خُيِّرَ ٱلْمِنْبَرُ فُرْسَانَهُ مَا ٱخْتَارَ اِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمُبْتَدَاِ وَٱلْخَبَرِ وَٱلْفِعْلِ وَٱلْفَاعِلِ كَقَوْلِكَ : مَا

زَيدٌ إلّا قائِمٌ وما قائِمٌ إلّا زَيدٌ. وَأمّا (إنَّما) فالاختِصاصُ فيها يَقعُ مَعَ المُتأخِّرِ. فإذا قُلتَ: إنَّما ضَربَ زَيدًا عَمرٌو. فالاختِصاصُ في الضّارِبِ. وقولُهُ: (إنَّما يَخشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ) فالغَرضُ بَيانُ المَرفوعِ وهُوَ أنَّ الخاشِينَ هُمُ العُلَماءُ. ولَوْ قُدِّمَ المَرفوعُ لَصارَ المَقصودُ بَيانَ المَخشِيِّ مِنهُ فالأوَّلُ أتمُّ. ومِنهُ قَولُ الفَرَزدَقِ:

أنا الرّائِدُ الحامِي الذِّمارَ وإنَّما يُدافِعُ عَنْ أحسابِكُمْ أنا أوْ مِثلِي

فإنَّ غَرَضَهُ أنْ يَحصُرَ المُدافِعَ بِأنَّهُ هُوَ لا المُدافَعَ عَنهُ. ولَوْ قالَ: إنَّما أنا أُدافِعُ عَنْ أحسابِكُمْ. تَوَجَّهَ التَّخصِيصُ إلى المُدافَعِ عَنهُ. إذا أدخَلتَ عَلَيهِما (إنَّما) فإنْ قَدَّمتَ الخَبَرَ فالاختِصاصُ لِلمُبتَدإِ. وإنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلخَبَرِ. فإذا قُلتَ: إنَّما هٰذا لَكَ فالاختِصاصُ في (لَكَ) بِدَليلِ أنَّكَ تَقولُ بَعدَهُ: لا لِغَيرِكَ. وإنْ قُلتَ: إنَّما لَكَ هٰذا. فالاختِصاصُ في هٰذا بِدَليلِ أنَّكَ تَقولُ بَعدَهُ لا ذاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجتَمِعُ مَعَهُ حَرفُ النَّفيِ إمّا مُتأخِّرًا كَقَولِكَ: إنَّما يَجِيءُ زَيدٌ لا عَمرٌو. وقالَ لَبِيدٌ:

وإذا جُوزِيتَ قَرضًا فاجزِهِ إنَّما يَجزِي الفَتَى لَيسَ الجَمَلْ

وإمّا مُقَدَّمًا عَلَيهِ كَقَولِكَ: ما جاءَنِي زَيدٌ وإنَّما جاءَنِي عَمرٌو. فَهاهُنا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (إنَّما). وقُلتَ: ما جاءَنِي زَيدٌ وجاءَنِي عَمرٌو. لَكانَ الكَلامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ أنَّهُما جاءا جَميعًا. وإذا أدخَلتَها كانَ الكَلامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ في الجائِي أنَّهُ زَيدٌ لا عَمرٌو. واعلَمْ أنَّ أقوى ما يَكونُ إنَّما إذا كانَ لا يُرادُ بِالكَلامِ الَّذِي بَعدَها نَفسُ مَعناها

وَلٰكِنَّ ٱلتَّعْرِيضَ بِأَمْرٍ هُوَ مُقْتَضَاهُ . وَهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْإِثْبَاتِ . فَإِذَا أُسْقِطَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْكَرَمِ وَأَمْثَالِهِمَا كَمَا يُقَالُ : كَذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وَهٰكَذَا يَفْعَلُ ٱلْكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰكِنِ ٱنْتَقَلَ ٱلشَّيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ . كَمَا إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ أَحَدَهُمَا مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . مِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَأَرَادَ مُرِيدٌ ٱلْإِخْبَارَ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

اَنَّ قَتلَ ٱلخَارِجِيّ هُوَ ٱلَّذِي يَعنِيهِمْ . وَإِنْ كَانَ قَـدْ وَقَعَ قَتلٌ مِنْ رَجُلٍ يَبْعُدُ فِي ٱعتِقَادِ ٱلنَّاسِ وُقُوعُ ٱلقَتْلِ مِنْ مِثْلِهِ قَدَّمَ ٱلمُخْبِرُ ذِكْرَ ٱلفَاعِلِ فَيَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا . لِأَعتِقَادِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلمَذْكُورِ خِلَافَ ذٰلِكَ (اه) . وَلْنَذْكُرْ مِنهُ ثَلَاثَةَ مَوَاضِعَ يُعْرَفُ بِهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ :

(ٱلأَوَّلُ ٱلِاسْتِفهَامُ) فَإِذَا اَدخَلْتَهُ عَلَى ٱلفِعْـلِ وَقُلْتَ : اَضَرَبْتَ زَيْدًا . كَانَ ٱلشَّكُّ فِي وُجُودِ ٱلفِعْلِ مُحَقَّقًا وَٱلشَّكُّ فِي تَعْيِينِ ٱلفَاعِلِ وَهٰكَذَا حُكْمُ ٱلنَّكِرَةِ . فَإِذَا قُلْتَ : اَجَاءَكَ رَجُلٌ فَإِنَّ ٱلمَقْصُودَ هَلْ وُجِدَ ٱلمَجِيءُ مِنْ رَجُلٍ . فَإِذَا قُلْتَ : اَرَجُلٌ جَاءَكَ كَانَ ذٰلِـكَ سُؤَالًا عَنْ جِنْسِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ ٱلحُكْمِ بِوُجُودِ ٱلمَجِيءِ مِنْ إِنْسَانٍ . وَقِسْ عَلَيْهِ ٱلخَبَرَ فِي قَوْلِكَ : ضَرَبْتُ زَيْدًا وَزَيْدًا ضَرَبْتُ . وَجَاءَنِي رَجُلٌ تَمِيمِيٌّ . وَرَجُلٌ تَمِيمِيٌّ جَاءَنِي . ثُمَّ ٱلِاسْتِفهَامُ قَدْ يَجِيءُ لِلإِنكَارِ : وَهُوَ إِمَّا لِلتَّقْرِيرِ وَٱلتَّوْبِيخِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ : اَاَنتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا . وَإِمَّا لِإِنكَارِ اَنَّهُ ٱلفَاعِلُ مَعَ تَحْقِيقِ ٱلفِعْلِ كَقَوْلِـكَ لِمَنِ ٱنتَحَلَ شِعْرًا : آ اَنتَ قُلْتَ هٰذَا . وَإِنْ كَانَ ٱلفِعْلُ مُضَارِعًا فَإِنْ اَدخَلْتَ حَرْفَ ٱلِاسْتِفهَامِ عَلَيْهِ كَانَ إِمَّا لِإِنكَارِ وُجُودِهِ كَقَوْلِهِ : اَنُلْزِمُكُمُوهَا وَاَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . اَوْ لِإِنكَارِ اَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى ٱلفِعْلِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلقَيْسِ :

اَيَقْتُلُنِي وَٱلمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَاَنْيَابِ اَغْوَالِ

اَوْ لِإِزَالَةِ طَمَعِ مَنْ طَمِعَ فِي اَمْرٍ لَا يَكُونُ فَيُجَهِّلُهُ فِي طَمَعِـهِ كَقَوْلِكَ : اَيَرْضَى عَنكَ فُلَانٌ وَاَنتَ عَلَى مَا يَكْرَهُ . اَوْ لِتَعْنِيفِ مَنْ يُضِيعُ ٱلحَقَّ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

أَأَتْرُكُ إِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ   زِيَارَتَـهُ إِنِّي إِذًا لَلَئِيمُ

أَوْ لِتَقْدِيمِ ٱلْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ ٱلْخَطَرَ : أَتَرْكَبُ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ . وَإِنْ أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِاسْمِ فَهُوَ لِإِنْكَارِ صُدُورِ ٱلْفِعْلِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْفَاعِلِ إِمَّا لِلِٱسْتِحْقَارِ كَقَوْلِكَ : أَأَنْتَ تَمْنَعُنِي . أَوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْأَلُ ٱلنَّاسَ . أَوْ لِلْمُبَالَغَةِ إِمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَمْنَعُ سَائِلَهُ . وَإِمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ ٱسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ: أَغَيْرَ ٱللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا وَ أَغَيْرَ ٱللّٰهِ تَدْعُونَ . وَأَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى أَنَّ ٱلْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ أَنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلنَّفْيِ) إِذَا أَدْخَلْتَ ٱلنَّفْيَ عَلَى ٱلْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَإِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِاسْمِ فَقُلْتَ : مَا أَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . ٱقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ ٱلْخِطَابِ كَوْنُ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ   وَلٰكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ ٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ وَحُكْمُ ٱلْمَفْعُولِ) . فَإِذَا قُلْتَ : مَا أَمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ هٰذَا . وَإِذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا أَمَرْتُكَ . ٱقْتَضَاهُ . وَإِذَا قَدَّمْتَ صِفَةَ ٱلْعُمُومِ عَلَى ٱلسَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ أَفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيناقِضهُ ٱلإِثبَاتُ ٱلخَاصُّ . فَلَوْ فعلتَ بَعْضهُ كُنْتَ كَاذِبًا. وَإِنْ قدَّمْتَ ٱلسَّلْبَ وقُلْتَ: لَمْ افعلْ كُلَّ ذٰلِكَ . كَانَ نَفيًا لِلعُمُومِ وَلاَ يُنَافِي ٱلاثبَاتَ ٱلخَاصَّ فلَوْ فعلْتَ بعْضهُ لَمْ تَكُنْ كَاذِبًا.(اَلثَّالِثُ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمُثْبَتِ) مَا تَقدَّمَ فِي ٱلِاْستِفْهَامِ وَٱلنَّفيِ قَائِمٌ هَاهُنَا فَإِذَا قدَّمْتَ ٱلِاْسمَ وقُلْتَ : زَيْدٌ فَعلَ وَانَا فعلْتُ. فَالقَصْدُ انَّ ٱلفَاعِلَ إِمَّا لِتَخْصِيصِ ذٰلِكَ ٱلفِعْلِ بِهِ كَقَوْلِكَ : انَا شَفَعْتُ فِي شَأْنِهِ مُدَّعِيًا ٱلِانْفِرَادَ بِذٰلِكَ . اوْ لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ ٱلفِعْلِ لَهُ لَا لِلحَصْرِ كَقَوْلِكَ :هُوَ يُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . لِيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ انَّ ذٰلِكَ دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ دُرْنَا بِنْتِ عَشْعَشَةَ :

هُمَا يَلْبَسَانِ ٱلْمَجْدَ احْسَنَ لِبْسَةٍ   شَحِيحَانِ مَا ٱسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وَٱلسَّبَبُ فِي هٰذَا ٱلتَّأْكِيدِ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا : (زَيْدٌ) . فَقَدْ اشْعَرْتَ بِأَنَّكَ تُرِيدُ ٱلْحَدِيثَ عَنْهُ فَيَحْصُلُ لِلسَّامِعِ تَشَوُّقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ . فَإِذَا ذَكَرْتَهُ قَبِلَتْهُ ٱلنَّفْسُ قَبُولَ ٱلصَّدِيقِ صَدِيقَهُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ ابْلَغَ فِي ٱلتَّحْقِيقِ وَنَفْيِ ٱلشَّكِّ وَٱلشُّبْهَةِ. وَلِهٰذَا تَقُولُ لِمَنْ تَعِدُهُ : انَا اُعْطِيكَ . انَا اكْفِيكَ . انَا اقُومُ بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مَنْ سَبَقَ لَهُ وَعْدٌ انْ يَعْتَرِضَهُ ٱلشَّكُّ فِي وَفَائِهِ . وَلِذٰلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : أَنْتَ تُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . انْتَ تَجُودُ حِينَ لَا يَجُودُ احَدٌ . وَمِنْ هَاهُنَا تُعْرَفُ ٱلْفَخَامَةُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي فِيهَا ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ . (وَإِنَّهَا) فِيهَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ : فَإِنَّ

ٱلأَبصارَ لَا تعمى وَإِنَّ ٱلكافِرِينَ لَا يُفلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلكَلَامُ فِي ٱلخَبَرِ ٱلمَنفِيِّ . فَاذَا قُلتَ . انتَ لَا تُحسِنُ هٰذَا . كَانَ ابلَغَ مِنْ انْ تقولَ : لَا تُحسِنُ هٰذَا . فَٱلأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ اشَدُّ إِعجَابًا بنفسِهِ وَاكثَرُ دعوى بِأَنَّهُ يُحسِنُ . وَٱعلَمْ انَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقدِيمُ ٱلِٱسمِ كَٱللَّازِمِ وَهُوَ : (كَمِثْلِ) فِي نَحوِ قَولِهِ :

يَاعَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكَ مِثْلِي لَا يَقبَلُ مِنْ مِثْلِكَ

وَقَولِ ٱلمُتَنَبِّي :

مِثْلُكَ يَثْنِي ٱلحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَستَرِدُّ ٱلدَّمعَ عَنْ غَرْبِهِ

وَكَقَولِ ٱلنَّاسِ : مِثْلُكَ يَرْعَى ٱلحَقَّ وَٱلحُرْمَةَ . وَمَا اشبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَقصِدُ فِيهِ ٱلإِنسَانُ سِوَى ٱلَّذِي اُضِيفَ إِلَيهِ وَجِيءَ بِهِ لِلمُبَالَغَةِ . وَٱلمَعنَى إِنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي ٱلحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقتَضَى ٱلقِيَاسِ انْ يَفعَلَ مَا ذُكِرَ فَكَيفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلمُتَنَبِّي عَنْ هٰذَا ٱلمَعنَى فَقَالَ :

وَلَمْ اَقُلْ مِثْلُكَ اَعْنِي بِهِ سِوَاكَ يَافَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وَكَذٰلِكَ حُكمُ (غَيرٍ) إِذَا سُلِكَ فِيهِ هٰذَا ٱلمَسْلَكُ كَقَولِ ٱلمُتَنَبِّي :

غَيرِي بِأَكثَرِ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا اَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

اَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَنخَدِعُ وَيَغتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدِّمْ (مِثْلًا وَغَيرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يُرِدْ هٰذَا ٱلمَعنَى

(امَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقدِيمِ وَٱلتَّأخِيرِ) فَقَدْ يَحسُنُ ٱلتَّقدِيمُ فِي مَوَاضِعَ : (ٱلأَوَّلُ) اَنْ تَكُونَ ٱلحَاجَةُ إِلَى ذِكرِهِ اَشَدَّ كَقَولِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْيَقَ بِمَا قَبلَهُ مِنَ ٱلكَلَامِ اَوْ

بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ: وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ. فَإِنَّهُ أَشْكَلُ بِمَا بَعْدَهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ ٱللّٰهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ. وَبِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ: مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ. (اَلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ أَعْرَفَ أَوْ أَشَدَّ تَعَلُّقًا بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ قَامَ. وَقَامَ زَيْدٌ. وَزَيْدٌ ٱلطَّوِيلُ. (اَلرَّابِعُ) أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدْرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلِاسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ فَإِنَّ ٱلِاسْتِفْهَامَ طَلَبُ فَهْمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ إِضَافِيَّةٌ فَلَا تَسْتَقِلُّ بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشْتَدُّ ٱتِّصَالُهُ بِمَا بَعْدَهُ. (اَلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ. فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَعْرَفَ فَإِنَّ ٱلْوُجُودَ لَمَّا كَانَ أَعَمَّ ٱلْأُمُورِ كَانَ أَعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ. (اَلسَّادِسُ) تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَأَمَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ: (اَلْأَوَّلُ) تَمَامُ ٱلِاسْمِ كَٱلصِّلَةِ وَٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ. (اَلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْأَسْمَاءِ. (اَلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ. (اَلرَّابِعُ) ٱلْمُضْمَرُ وَهُوَ إِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ زَيْدٌ غُلَامَهُ. أَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللَّفْظِ مُقَدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ: وَإِذَا ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. أَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامَهُ زَيْدٌ. جَازَ. وَإِنْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيْدًا. (اَلْخَامِسُ) مَا يُفْضِي إِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلِكَ: ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى. وَأَكْرَمَ هٰذَا هٰذَا. فَيَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ. (اَلسَّادِسُ) ٱلْعَامِلُ ٱلَّذِي يَضْعُفُ عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ أَوْ مَعْنًى كَقَوْلِكَ: هُوَ حَسَنٌ وَجْهًا. وَكَرِيمٌ أَبًا. وَتَصَبَّبَ عَرَقًا. وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَإِنَّ

زَيْدًا قَائِمٌ . وَفِي ٱلدَّارِ سَعْدٌ جَالِسٌ . وَلَا يَجُوزُ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَٱلْمَعْمُولِ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ فَلَا تَقُولُ : كَانَتْ زَيْدًا ٱلْحُمَّى تَأْخُذُ . إِذَا رَفَعْتَ ٱلْحُمَّى بِكَانَتْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْعَامِلِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ . فَإِنْ اَضْمَرْتَ ٱلْحُمَّى فِي كَانَتْ صَحَّتِ ٱلْمَسْئَلَةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلْاَفْعَالَ ٱلْمُتَعَدِّيَةَ ٱلَّتِي يُتْرَكُ ذِكْرُ مَفْعُولَاتِهَا عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مُعَيَّنٌ فَقَدْ يُتْرَكُ مَفْعُولُهُ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا وَيُجْعَلُ حَالُهُ كَحَالِ غَيْرِ ٱلْمُتَعَدِّي كَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ . وَٱلْمَقْصُودُ إِثْبَاتُ ٱلْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِحَدِيثِ ٱلْمَفْعُولِ فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقْدٌ وَأَمْرٌ وَنَهْيٌ وَضَرٌّ وَنَفْعٌ . وَبِٱلْجُمْلَةِ مَتَى كَانَ ٱلْغَرَضُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ فَقَطْ فَلَا تُعَدِّ ٱلْفِعْلَ فَإِنْ تَعْدِيَتَهُ تَنْقُصُ ٱلْغَرَضَ . اَلَا تُرَى اَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : فُلَانٌ يُعْطِي ٱلدَّنَانِيرَ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بَيَانَ جِنْسِ مَا تَنَاوَلَهُ ٱلْإِعْطَاءُ لَا بَيَانُ حَالِ كَوْنِهِ مُعْطِيًا . (ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ لَهُ مَفْعُولٌ مَعْلُومٌ إِلَّا اَنَّهُ يُحْذَفُ مِنَ ٱللَّفْظِ لِأَغْرَاضٍ: (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْمُرَادُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ وَاَنَّ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ دَأْبُهُ لَا بَيَانُ

ٱلمَفعولِ كَقَوْلِ طُفَيلٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعفرًا حِينَ ازلَقتْ بِنَا نَعلُنَا فِي ٱلْوَاطِبِينِ فزلَّتِ
اَبَوْا اَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ اَنَّ اُمَّنَا تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ
هُمُ خَلَطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَٱلْجَاُوا اِلَى حُجُرَاتٍ اَدفَاَتْ وَاَظَلَّتِ

وَٱلأَصلُ اَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتنَا وَٱلْجَاُونَا وَاَدفَاَتنَا وَاَظَلَّتنَا فَحَذَفَ ٱلْمَفعُولَ ٱلْمُعيَّنَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَاَنَّهُ قَدْ اُبهِمَ وَلَمْ يُقصَدْ قَصدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلَانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى اَنْ تَجْعَلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ اَضَافَ اِلَى مَفعُولٍ مُعيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ. (ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ ٱلْمَقصُودُ ذِكرَهُ اِلَّا اِنَّكَ لَا تَذكُرُهُ اِيهَامًا لِأَنَّكَ لَا تَقصِدُ ذِكرَهُ كَقَولِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيظُ عِدَاهُ اَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعٍ

ٱلْمَعْنَى اَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَاَنْ يَسمَعَ وَاعٍ اَخْبَارَهُ . وَلٰكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِكَ اِيذَانًا بِاَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا اَنْ يَقَعَ عَلَيهَا بَصَرٌ وَيَعِيَهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعلَمَ اَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ اَشجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِاَنَّ هَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (ٱلثَّالِثُ) اَنْ يُحْذَفَ لِكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : اَصْغَيْتُ اِلَيْكَ . اَيْ اُذُنِي . وَاَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . اَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ اَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱستِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِلَ وَصْفًا لَهُ

إِلَى حَيْثُ يُعْلَمُ بِٱلضَّرُورَةِ أَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ إِلَّا لَهُ سَوَاءٌ كَانَ فِي نَفْسِهِ كَذٰلِكَ أَوْ بِحَسَبِ دَعْوَى ٱلشَّاعِرِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَذِكْرُهُ يُبْطِلُ هٰذَا ٱلْغَرَضَ. وَلِهٰذَا قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : مَا مِنِ ٱسْمٍ يُحْذَفُ فِي ٱلْحَالَةِ يَنْبَغِي أَنْ يُحْذَفَ فِيهَا إِلَّا وَحَذْفُهُ أَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِهِ فَمِنْ حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

لَا يُبْعِدِ ٱللّٰهُ ٱلتَّلَبُّبَ م وَٱلْغَارَاتِ إِذْ قَالَ ٱلْخَمِيسُ نَعَمْ

أَيْ هٰذِهِ نَعَمْ . قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَمِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَطَّرِدُ فِيهَا حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ بِٱلْقَطْعِ وَٱلِاسْتِئْنَافِ أَنَّهُمْ يَبْدَأُونَ بِذِكْرِ ٱلرَّجُلِ وَيُقَدِّمُونَ بَعْضَ أَمْرِهِ ثُمَّ يَدَعُونَ ٱلْكَلَامَ ٱلْأَوَّلَ فَيَسْتَأْنِفُونَ كَلَامًا آخَرَ إِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ أَتَوْا فِي أَكْثَرِ ٱلْأَمْرِ بِخَبَرٍ مِنْ غَيْرِ مُبْتَدَإٍ مِثَالُ ذٰلِكَ :

وَعَلِمْتُ أَنِّي يَوْمَ ذَا ... كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلْحَدِيدَ م تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدَّا

وَقَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

هُمُ حَلُّوا مِنَ ٱلشَّرَفِ ٱلْمُعَلَّى ... وَمِنْ حَسَبِ ٱلْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

أُسَاةُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلْمٍ ... دِمَاؤُهُمُ مِنَ ٱلْكَلَبِ ٱلشِّفَاءُ

وَأَمْثِلَتُهُ كَثِيرَةٌ . وَمِنْ حَذْفِ ٱلْخَبَرِ قَوْلُهُ : لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أَيْ لَوْلَا أَنْتُمْ مُضِلُّونَا . وَقَوْلُ عُمَرَ : لَوْلَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ . أَيْ لَوْلَا عَلِيٌّ حَاضِرٌ أَوْ مُفْتٍ . وَمِمَّا يَحْتَمِلُ ٱلْأَمْرَيْنِ قَوْلُهُ : طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . وَقَوْلُهُ : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ٱلْإِضْمَارُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱلتَّفْسِيرِ كَقَوْلِكَ : أَكْرَمَنِي وَأَكْرَمْتُ عَبْدَ ٱللّٰهِ أَيْ

اَكْرَمَني عَبدُاللهِ واكْرَمتُ عَبدَاللهِ.وَمِمَّا يُشبِهُ ذٰلِكَ مَفعُولُ الْمَشِيئَةِ اِذَا جَاءَتْ بَعدَ(لَوْ).فَإِنْ كَانَ مَفعُولُهَا عَظِيماً اوْ غَرِيباً فَالأَوْلَى ذِكْرُهُ كَقَوْلِهِ:

وَلَوْ شِئْتُ اَنْ اَبْكِي دماً لبَكَيْتُهُ   عَلَيهِ ولٰكِنْ سَاحَةُ الصَّبرِ اَوسَعُ
فَانَّ بُكَاءَ الاِنْسَانِ دماً عَجِيبٌ.وَاِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَالأَوْلى حَذْفُهُ كَقَوْلِهِ : وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى . وَالتَّقْدِيرُ : وَلَوْ شَاءَ اللهُ اَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى لَجَمَعَهُمْ . وَاعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ تُتْرَكُ الْكِنَايَةُ اِلَى التَّصْرِيحِ لِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ الْفَخَامَةِ كَقَوْلِ الْبُحْتُرِيِّ :

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤْ   دُدِ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلَا
الْمَعْنَى قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلاً . ثُمَّ حَذَفَ لِاَنَّ هٰذَا الْمَدْحَ اِنَّمَا يَتِمُّ بِنَفْيِ الْمِثْلِ فَلَوْ قَالَ : قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلاً فِي السُّؤْدُدِ وَالْمَجْدِ فَلَمْ نَجِدْ لَكَانَ قَدْ اَوقَعَ نَفْيَ الْوُجُودِ عَلَى ضَمِيرِ (الْمِثْلِ) فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ مَا اِذَا اَوْقَعَهُ عَلَى صَرِيحِ الْمِثْلِ . فَاِنَّ الْكِنَايَةَ لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ الصَّرِيحِ . وَعَلَى ذٰلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

لَا اَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ   نَغَّصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

اِنَّ الْكَلِمَ جَمْعُ كَلِمَةٍ . وَالْجَوَامِعَ جَمْعُ جَامِعَةٍ . وَالْجَامِعَةُ اسْمُ فَاعِلَةٍ مِنْ جَمَعَتْ فَهِيَ جَامِعَةٌ . كَمَا يُقَالُ فِي الْمُذَكَّرِ جَمَعَ فَهُوَ جَامِعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْـكَلِمِ ٱلْـكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ . وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي أَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ . وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْأَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ إِذَا مَرَرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ أَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْأَلْحَانِ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ أَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى قَفًا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ

سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنَ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ : (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْـكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ : (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْـكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ . وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ أَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْأَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عَلَيْهَا يَصِفُ بِذٰلِكَ عَدَمَ ٱحْتِفَالِهِ بِٱلْفَوَادِحِ وَقِلَّةَ مُبَالَاتِهِ بِٱلْخُطُوبِ ٱلَّتِي تُحْدِثُ أَفْكَارًا تَسْتَغْرِقُ ٱلْقُلُوبَ وَهٰذِهِ عِبَارَةٌ عَجِيبَةٌ لَا يُؤْتَى بِمِثْلِهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا. (وَأَمَّا) مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ فَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ:

سَقَى ٱللّٰهُ أَوْطَارًا لَنَا وَمَآرِبًا ... تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا

لَيَالِيَ تُنَسِّينِي ٱللَّيَالِي حِسَابَهَا ... بُلَهْنِيَةٌ أَقْضِي بِهَا ٱلْحَوْلَ أَجْمَعَا

سِوَى عِزَّةٍ لَا أَعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ ... وَأَعْمَلُ فِيهِ ٱللَّهْوَ مَرْأًى وَمَسْمَعَا

فَقَوْلُهُ: (لَا أَعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ أَيْ إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ بِٱللَّذَّاتِ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامِ وَلَوْ وَصَفَ ٱشْتِغَالَهُ بِٱللَّذَّاتِ مَهْمَا وَصَفَ لَمْ يَأْتِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ: (لَا أَعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ). (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) مِنْ جَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ فَٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلْإِيجَازُ ٱلَّذِي يُدَلُّ بِهِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ أَيْ تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ جَامِعَةً لِلْمَعَانِي ٱلْمَقْصُودَةِ عَلَى إِيجَازِهَا وَٱخْتِصَارِهَا. وَسَيَأْتِي فِي بَابِ ٱلْإِيجَازِ مِنْهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ وَمَقْنَعٌ. (فَإِنْ قِيلَ): فَمَا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ ذَكَرْتَهُمَا فَإِنَّهُمَا بِٱلنَّظَرِ سَوَاءٌ. (قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ): إِنَّ ٱلْإِيجَازَ هُوَ أَنْ يُؤْتَى بِأَلْفَاظٍ دَالَّةٍ عَلَى مَعْنًى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَزِيدَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَلَا يُشْتَرَطُ فِي تِلْكَ ٱلْأَلْفَاظِ أَنَّهَا لَا نَظِيرَ لَهَا فَإِنَّهَا تَكُونُ قَدِ ٱتَّصَفَتْ بِوَصْفٍ آخَرَ خَارِجٍ عَنْ وَصْفِ ٱلْإِيجَازِ. وَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِيجَازًا أَوْ زِيَادَةً. وَأَمَّا هٰذَا ٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ فَإِنَّهُ أَلْفَاظٌ أَفْرَادٌ فِي حُسْنِهَا لَا نَظِيرَ لَهَا. فَتَارَةً تَكُونُ مُوجَزَةً وَتَارَةً لَا تَكُونُ

مُوجَزَةً . وَلَيْسَ ٱلْغَرَضُ مِنْهَا ٱلْإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلْغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَاشَكَّ أَنَّ ٱلرَّأْسَ أَوْجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأْسَ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ . وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفْظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ (وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحْسَنُ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلرَّأْسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ غَيْرُ ٱلْآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

اَلِٱنْسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلْمَاءِ وَعِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ وَٱلْمَعْنَوِيِّ بَسِيطًا مَفْهُومًا دَقِيقَ ٱلْأَلْفَاظِ جَلِيلَ ٱلْمَعْنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلْمَاءِ ٱلْمُنْسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَرْكِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلْفَاظِهِ أَنْ يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطْبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوْقِ وَتَوَقُّدِ ٱلْفِكْرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلْإِنْشَاءِ وَحُسْنِ ٱلْأَسَالِيبِ . فَإِنْ كَانَ مَصْنُوعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظْهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيْرِهِ مِنْ نَفْسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلْمَيْدَانِ مَا أَثْقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجْمَعَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فَإِنَّهُمْ قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلِٱنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فِقَرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ. وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلْأَبْيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً. وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمُطْرِبِ وَٱلْمُرْقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

اَلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِأَنْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِي شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ. وَقَدْ أَطْبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَأَنْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ. وَإِنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَثِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

يَنظِمُهَا فِي سِلكٍ . وَمِثَالُهُ قَولُ ٱلجَاحِظِ : جَنَّبَكَ ٱللهُ ٱلشُّبهَةَ وَعَصَمَكَ مِنَ ٱلحَيرَةِ وَجعَلَ بَينَكَ وَبَينَ ٱلمَعرُوفِ نَسَبًا وَبَينَكَ وَبَينَ ٱلصِّدقِ سَبَبًا . وَكَقَولِ ٱلنَّابِغَةِ لِلنُّعمَانِ : يُفَاخِرُكَ ٱبنُ أَبِي جَفنَةٍ وَإِنَّ لَقَفَاكَ خَيرٌ مِن وَجهِهِ وَلَشِمَالُكَ خَيرٌ مِن يَمِينِهِ وَلَأَخمَصُكَ خَيرٌ مِن رَأسِهِ وَلَخَطَأُكَ خَيرٌ مِن صَوَابِهِ وَلَخَدَمُكَ خَيرٌ مِن قَومِهِ . وَهٰذَا ٱلنَّظمُ لَا يَستَحِقُّ ٱلفَضلَ إِلَّا بِسَلَامَةِ مَعنَاهُ وَسَلَامَةِ أَلفَاظِهِ إِذ لَيسَ فِيهِ مَعنًى دَقِيقٌ لَا يُدرِكُهُ إِلَّا ثَاقِبُ ٱلفِكرِ . وَرُبَّمَا ظَنَّ بِٱلكَلَامِ أَنَّهُ مِن هٰذَا ٱلجِنسِ وَلَا يَكُونُ مِنهُ . (اَلثَّانِي) أَن تَكُونَ ٱلجُمَلُ ٱلمَذكُورَةُ يَتَعَلَّقُ بَعضُهَا بِبَعضٍ وَهُنَاكَ تَظهَرُ قُوَّةُ ٱلطَّبعِ وَجُودَةُ ٱلقَرِيحَةِ وَٱستِقَامَةُ ٱلذِّهنِ . ثُمَّ لَيسَ لِهٰذَا ٱلبَابِ قَانُونٌ يُحفَظُ فَإِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى وُجُوهٍ شَتَّى :

(فَمِنهَا ٱلإِيجَازُ) وَهُوَ ٱلتَّعبِيرُ عَنِ ٱلغَرَضِ بِأَقَلِّ مَا يُمكِنُ مِنَ ٱلحُرُوفِ وَهُوَ عَلَى ضَربَينِ : (أَحَدُهُمَا) إِيجَازُ قَصرٍ وَهُوَ تَقلِيلُ ٱللَّفظِ وَتَكثِيرُ ٱلمَعنَى . (وَٱلثَّانِي) إِيجَازُ حَذفٍ وَهُوَ ٱلِاستِغنَاءُ بِٱلمَذكُورِ عَمَّا لَم يُذكَرْ . (وَمِنهَا ٱلتَّأكِيدُ) وَهُوَ تَقوِيَةُ ٱلمَعنَى وَتَقرِيرُهُ إِمَّا بِإِظهَارِ ٱلبُرهَانِ كَقَولِ قَابُوسَ :

يَاذَا ٱلَّذِي بِصُرُوفِ ٱلدَّهرِ عَيَّرَنَا ... هَل عَانَدَ ٱلدَّهرُ إِلَّا مَن لَهُ خَطَرُ
أَمَا تَرَى ٱلبَحرَ يَعلُو فَوقَهُ جِيَفٌ ... وَتَستَقِرُّ بِأَقصَى قَعرِهِ ٱلدُّرَرُ
وَفِي ٱلسَّمَاءِ نُجُومٌ غَيرُ ذِي عَدَدٍ ... وَلَيسَ يُكسَفُ إِلَّا ٱلشَّمسُ وَٱلقَمَرُ

(أَو بِٱلعَزِيمَةِ) كَقَولِهِ : فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ .
(أَو بِٱلتَّكرَارِ) كَقَولِهِم : أَللهَ أَللهَ وَٱلأَسَدَ ٱلأَسَدَ

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاوَّل

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرُّف)

(راجع صفحة ٢٧ و ٢٨ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ اَسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ اَلْمَعْنَى وَهَتَكَ لَكَ اَلْحُجُبَ دُونَ اَلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ اَلسَّامِعُ اِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ اَلْبَيَانُ وَمِنْ اَيِّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ اَلدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ اَلْاَمْرِ وَاَلْغَايَةَ اَلَّتِي يَجْرِي اِلَيْهَا اَلْقَائِلُ وَاَلسَّامِعُ اِنَّمَا هُوَ اَلْفَهْمُ وَاَلْاِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ اَلْاِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ اَلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ اَلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ اَلْمَوْضِعِ. وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَلْبَرْمَكِيِّ: مَا اَلْبَيَانُ. قَالَ: اَنْ يَكُونَ اَلِاسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ اَلشَّرِكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِاَلْفِكْرَةِ وَيَكُونَ سَلِيمًا مِنَ اَلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ اَلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ اَلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ اَلتَّأْوِيلِ. وَقَالُوا: اَلْبَيَانُ بَصَرٌ وَاَلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ اَلْعِلْمَ بَصَرٌ وَاَلْجَهْلَ عَمًى وَاَلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ اَلْعِلْمِ وَاَلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ اَلْجَهْلِ. وَقَالُوا: حَيَاةُ اَلْمُرُوءَةِ اَلصِّدْقُ وَحَيَاةُ اَلرُّوحِ اَلْعَفَافُ وَحَيَاةُ اَلْحِلْمِ اَلْعِلْمُ وَحَيَاةُ اَلْعِلْمِ

ٱلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلتَّوْأَمِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ) : ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيُحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا ٱلْمُتَخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقُّنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون لحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعْبِرِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلْإِثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانَ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِنْدَ ٱلْبُلَغَـاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِأَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا أَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْإِفَادَةِ بِٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلِٱحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَأَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعِلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَـاتِ وَأَقْسَامِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَإِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَـةِ لِأَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّـةَ وَٱلِٱلْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّـةً سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ أَوْضَحَ . مَثَلًا : إِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي إِبْصَارِهَا إِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ إِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْإِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا



البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلْبيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبيَانِ بِأَجْمعِهِ. فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلعِبَارَاتِ عَلَى ٱلأُسْلُوبِ ٱلمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً. وَٱلْـكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا. فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلأَصْلِيِّ. وَأَمَّا ٱلمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ. فَٱلمَجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا. وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلِانْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلأَلفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ. فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ. وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلإِنسَانِيَّةِ إِلَى ٱلأَسَدِيَّةِ. أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِاتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَـةَ: قَالَ ٱلأَسَدُ. قَالَ ٱلثَّعلَبُ. فَإِنَّ ٱلقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلأَحْوَالِ. وَإِنَّمَا أُجرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ.... وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْـكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ. وَذَهَبَ آخَرُونَ: إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلمَذهبَينِ فاسِدٌ عِندِي . وسَاجِيبُ ٱلخَصمَ عَمّا ٱدّعاهُ فِيهِمَا فَاقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزاعِ هُوَ اِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّها حَقِيقَةٌ اوْ اِنَّها كُلَّها مَجازٌ . وَلا فَرقَ عِندِي بَينَ قَولِكَ اِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ اَوْ اِنَّها مَجَازٌ . فَاِنَّ كِلَا ٱلطَّرفَينِ عِندِي سَوَاءٌ . لِاَنَّ مُنكِرَهُمَا غَيرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَاَنَا بِصَدَدِ اَنْ اُبَيِّنَ اَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجازًا . وَٱلحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلاَلفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلمَعَانِي وَلَيسَتْ بِٱلحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ اَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلحَقِيقَةُ ٱللَّفظِيَّةُ اِذًا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلمَعنَى ٱلمَوضُوعِ لَهُ فِي اَصلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلمَجَازُ هُوَ نَقلُ ٱلمَعنَى عَنِ ٱللَّفظِ ٱلمَوضُوعِ لَهُ اِلَى لَفظٍ آخَرَ غَيرِهِ . وَتَقرِيرُ ذٰلِكَ بِاَنْ اَقُولَ : ٱلمَخلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفتَقِرُ اِلَى اَسمَاءٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَيهَا لِيُعرَفَ كُلٌّ مِنهَا بِٱسمِهِ مِنْ اَجلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنهَا . فَٱلِاسمُ ٱلمَوضُوعُ بِإِزَاءِ ٱلمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَاِذَا نُقِلَ اِلَى غَيرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّا اِذَا قُلنَا : شَمسٌ . اَرَدنَا بِهِ هٰذَا ٱلكَوكَبَ ٱلعَظِيمَ ٱلكَثِيرَ ٱلضَّوءِ . وَهٰذَا ٱلِاسمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِاَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . وَكَذٰلِكَ اِذَا قُلنَا : بَحرٌ . اَرَدنَا بِهِ هٰذَا ٱلمَاءَ ٱلعَظِيمَ ٱلمُجتَمِعَ ٱلَّذِي طَعمُهُ مِلحٌ . وَهٰذَا ٱلِاسمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِاَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . فَاِذَا نَقَلنَا ٱلشَّمسَ اِلَى ٱلوَجهِ ٱلمَلِيحِ ٱستِعَارَةً كَانَ لَهُ ذٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذٰلِكَ اِذَا نَقَلنَا ٱلبَحرَ اِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلجَوَادِ ٱستِعَارَةً كَانَ ذٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَاِنْ قِيلَ) : اِنَّ ٱلوَجهَ ٱلمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلجَوَادِ بَحرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلجَوَابُ) عَنْ ذٰلِكَ مِنْ وَجهَينِ : (اَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَٱلْآخَرُ وَضْعِيٌّ . (أَمَّا ٱلنَّظَرِيُّ) فَهُوَ أَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ إِنَّمَا جُعِلَتْ أَدِلَّةً عَلَى إِفْهَامِ ٱلْمَعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ صَحِيحًا لَكَانَ ٱلْبَحْرُ يُطْلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلْمَاءِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْمِلْحِ وَعَلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بِٱلْأَشْتِرَاكِ. وَكَذٰلِكَ ٱلشَّمْسُ أَيْضًا فَإِنَّهَا كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلْكَوْكَبِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْكَثِيرِ ٱلضَّوْءِ وَعَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ بِٱلْأَشْتِرَاكِ. وَحِينَئِذٍ فَإِذَا وَرَدَ أَحَدُ هٰذَيْنِ ٱللَّفْظَيْنِ مُطْلَقًا بِغَيْرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفْهَمُ ٱلْمُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ أَحَدِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ ٱلْمُشْتَرَكَيْنِ ٱلْمُنْدَرِجَيْنِ تَحْتَهُ وَنَحْنُ نَرَى ٱلْأَمْرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَإِنَّا إِذَا قُلْنَا: شَمْسٌ أَوْ بَحْرٌ. وَأَطْلَقْنَا ٱلْقَوْلَ لَا يُفْهَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَجْهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ . وَإِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلْكَوْكَبُ ٱلْمَعْلُومُ وَذٰلِكَ ٱلْمَاءُ ٱلْمَعْلُومُ لَا غَيْرُ فَبَطَلَ إِذًا مَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ بِمَا بَيَّنَّاهُ وَأَوْضَحْنَاهُ . (فَإِنْ قُلْتَ) : إِنَّ ٱلْعُرْفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ فَإِنَّ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا إِذَا أُطْلِقَ لَمْ يَذْهَبِ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ إِلَّا إِلَى ٱلْمَجَازِ دُونَ ٱلْحَقِيقَةِ . (قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ) :هٰذَا شَيْءٌ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ . لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ إِطْلَاقُ ٱللَّفْظِ فِيهِ بَيْنَ عَامَّةِ ٱلنَّاسِ فَهٰؤُلَاءِ لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا ٱلْمَعْنَى ٱلْمَجَازِيَّ . لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَصْلَ وَضْعِ ٱلْكَلِمَةِ . وَأَمَّا خَاصَّةُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَصْلَ ٱلْوَضْعِ فَإِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ عِنْدَ إِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ إِلَّا ٱلْحَقِيقَةَ لَا غَيْرُ . . . (وَأَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلْوَضْعِيُّ) فَهُوَ أَنَّ ٱلْمَرْجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ إِلَى أَصْلِ ٱللُّغَةِ ٱلَّتِي هِيَ وَضْعُ ٱلْأَسْمَاءِ عَلَى ٱلْمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا أَنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُسَمَّى شَمْسًا وَلَا أَنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْجَوَادَ يُسَمَّى بَحْرًا . وَإِنَّمَا أَهْلُ

الخطابة والشعر توسعوا في الاساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة الى المجاز ولم يكن ذلك من واضع اللغة في اصل الوضع ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه في التوسعات المجازية . هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئاً لم يكن قبله . فمن ذلك انه اول من عبر عن الفرس بقوله : (قيد الاوابد) . ولم يسمع ذلك لاحد من قبله . . . وواضع اللغة ما ذكر شيئاً من ذلك فعلمنا حينئذ ان من اللغة حقيقة بوضعه ومجازاً بتوسعات اهل الخطابة والشعر . وفي زماننا هذا قد يخترعون اشياء من المجاز على حكم الاستعارة لم تكن من قبل . ولو كان هذا موقوفاً من جهة واضع اللغة لما اخترعه احد من بعده ولا زيد فيه ولا نقص منه . واما الفرق بينه وبين الحقيقة فهو ان الحقيقة جارية على العموم في نظائر . الا ترى اذا قلنا : فلان عالم . صدق على كل ذي علم . بخلاف (واسأل القرية) . لانه لا يصح الا في بعض الجمادات دون بعض اذ المراد اهل القرية لانهم ممن يصح السوال لهم . ولا يجوز ان يقال : واسأل الحجر والتراب . وقد يحسن ان يقال : واسأل الربع والطلل . (واعلم) ان كل مجاز فله حقيقة لانه لم يصح ان يطلق عليه اسم المجاز الا عن حقيقة موضوعة له اذ المجاز هو اسم للموضوع الذي ينتقل فيه من مكان الى مكان فجعل ذلك لنقل الالفاظ من الحقيقة الى غيرها . واذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها الى حالته المجازية فكذلك ليس من ضرورة كل حقيقة ان يكون لها مجاز . فان

مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ كَأَسْمَاءِ ٱلْأَعْلَامِ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْمَجَازَ اَوْلَى بِٱلِاسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَصْلُ اَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ اَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخِطَابِيِّ هُوَ اِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ اِلَيْهِ عِيَانًا . اَلَا تُرَى اَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لٰكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَاِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى اَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَاِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةُ ٱلْأَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) هُوَ اَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْأَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلْاِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ اَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِأَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ اَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ اَبْلَغُ لِأَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ اَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَاَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ اَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ حَتَّى اِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيُشَجَّعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . أَوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

اَثبَتَ اَليَدَ لِلشَّمالِ مُبالغَةً فِي تَشبِيهِا بِالقَادِرِ فِي اَلتَّصرُّفِ فِيهِ . وَحَدَّ اَلرُّمَّانِيُّ اَلإستِعارَةَ فقَالَ : هِيَ تعلِيقُ العِبارَةِ عَلَى غَيرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ فِي اَصلِ اَللُّغَةِ عَلَى سَبِيلِ اَلنَّقلِ لِلإبَانَةِ . وَقَالَ اَبنُ اَلمُعتَزِّ : هِيَ اَستِعارَةُ اَلكَلِمَةِ مِنْ شَيْءٍ قَدْ عُرِفَ بِهَا اِلَى شَيْءٍ لَمْ يُعرَفْ بِهَا . وَذَكَرَ اَلخَفَاجِيُّ كَلَامَ اَلرُّمَّانِيِّ وَقَالَ : وَتَفسِيرُ هٰذِهِ اَلجُملَةِ اَنَّ قَولَهُ مَثَلًا : (وَاَشتَعَلَ اَلرَّأْسُ شَيبًا) . اَستِعارَةٌ لِاَنَّ اَلإشتِعَالَ لِلنَّارِ وَلَمْ تُوضَعْ فِي اَصلِ اَللُّغَةِ لِلشَّيبِ فَلَمَّا نُقِلَ اِلَيهِ بَانَ اَلمَعنَى لِمَا اَكتَسَبَهُ مِنَ اَلتَّشبِيهِ . لِاَنَّ اَلشَّيبَ لَمَّا كَانَ نَافِذًا فِي اَلرَّأْسِ شَيئًا فَشَيئًا حَتَّى يُحِيلَهُ اِلَى غَيرِ لَونِهِ اَلاَوَّلِ كَانَ بِمَنزِلَةِ اَلنَّارِ اَلَّتِي تَسرِي فِي اَلخَشَبِ حَتَّى تُحِيلَهُ اِلَى غَيرِ حَالَتِهِ اَلمُتَقَدِّمَةِ . فَهٰذَا مِنْ نَقلِ اَلعِبَارَةِ عَنِ اَلحَقِيقَةِ فِي اَلوَضعِ لِلبَيَانِ وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ اَوضَحَ مِنَ اَلحَقِيقَةِ لِاَجلِ اَلتَّشبِيهِ اَلعَارِضِ فِيهَا . لِاَنَّ اَلحَقِيقَةَ لَوْ قَامَتْ مَقَامَهَا لَكَانَتْ اَولَى بِهَا لِاَنَّهَا اَلاَصلُ وَلَيسَ يَخفَى عَلَى اَلمُتَأَمِّلِ اَنَّ قَولَهُ : (وَاَشتَعَلَ اَلرَّأْسُ شَيبًا) . اَبلَغُ مِنْ : كَثُرَ شَيبُ اَلرَّأْسِ . وَهُوَ حَقِيقَةُ هٰذَا اَلمَعنَى . وَقَولُهُ : (يَومَ يُكشَفُ عَنْ سَاقٍ) . اَحسَنُ وَاَبلَغُ فِي مَا قُصِدَ لَهُ مِنْ قَولِهِ لَوْ قَالَ : يَومَ يُكشَفُ عَنْ شِدَّةِ اَلاَمرِ . وَاِنْ كَانَ اَلمَعنَيَانِ وَاحِدًا . اَلَا تَرَى اَنَّكَ تَقُولُ لِمَنْ يَحتَاجُ اِلَى اَلجِدِّ فِي اَمرِهِ : شَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ . فَيَكُونُ هٰذَا اَلقَولُ مِنكَ اَركَزَ فِي نَفسِهِ مِنْ قَولِكَ : جِدَّ فِي اَمرِكَ . وَقَالَ دُرَيدُ بنُ اَلصِّمَّةِ :

كَمِيشُ اَلاِزَارِ خَارِجٌ نِصفُ سَاقِهِ صَبُورٌ عَلَى اَلضَّرَّاءِ طَلَّاعُ اَنجُدِ

وَقَالَ ٱلْهُذَلِيُّ :

وَكُنتُ إِذَا جَارٌ دَعَا بِغُمُومِهِ ... أُشَمِّرُ حَتَّى يَنصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ اصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَٱلِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَامَّا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَٱعْلَمْ انَّنَا إِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَأَيْتُ اسَدًا . وَارَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَإِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ اسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ انَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ إِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى انَّهُ لَيْسَ بِاسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَإِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْاسَدُ . فَهُوَ ابْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَإِنَّ ٱلْاوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ انْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَإِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَاسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْاثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْادَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ . وَسَأُوضِحُ وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ وَأُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَاقُولُ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْادَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْادَاةِ فَنَقُولُ : إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى انَّهُ تَشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْادَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ اسَدٌ . اي كَٱلْاسَدِ . فَادَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَإِذَا اُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي اُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهورُ اداةِ ٱلتَّشبِيهِ وَإِذَا أُظهِرَتْ ازَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ ... فَٱلفرقُ إِذًا بَيْنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلأَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ انَّ ٱلتَّشبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ يَحْسُنُ إِظْهَارُ اداةِ ٱلتَّشبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ اَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ إِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَأَيضًا فَكُلُّ اسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ انَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ إِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ اوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ : رَأَيتُ نَخْلَةً اوْ خَامَةً . وَأَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهَمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ أَلطَفَ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ اسْتِعَارَاتٍ إِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِإِتْمَامِ ٱلتَّشبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَٱعْلَمْ انَّهُ لَا بُدَّ أَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْأَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلْإِفْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ ٱرْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى احَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخلهُ الاستعارة وما لاتدخلهُ

(عن صناعة الترسل ايضاً)

اَلأَعلَامُ لَا يَدخُلُهَا ٱلاِستِعَارَةُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي ٱلمَجَازِ . وَاَمَّا ٱلفِعلُ فَالاِستِعَارَةُ تَقَعُ اَوَّلًا فِي ٱلمَصدَرِ ثُمَّ تَقَعُ بِوَاسِطَةِ ذٰلِكَ فِي ٱلفِعلِ . فَإِذَا قُلتَ : نَطَقَتِ ٱلحَالُ بِكَذَا . فَهٰذَا اِنَّمَا يَصِحُّ لِاَنَّكَ وَجَدتَّ ٱلحَالَ مُشَابِهَةً لِلنُّطقِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلشَّيْءِ فَلَا جَرَمَ ٱستَعَرتَ ٱلنُّطقَ لِتِلكَ ٱلحَالَةِ ثُمَّ نَقَلتَهُ اِلَى ٱلفِعلِ . وَٱلاَسمَاءُ ٱلمُشتَقَّةُ فِي ذٰلِكَ كَالفِعلِ . فَظَهَرَ اَنَّ ٱلاِستِعَارَةَ اِنَّمَا تَقَعُ وُقُوعًا اَوَّلِيًّا فِي اَسمَاءِ ٱلاَجنَاسِ . ثُمَّ ٱلفِعلُ اِذَا كَانَ مُستَعَارًا فَٱستِعَارَتُهُ اِمَّا مِن جِهَةِ فَاعِلِهِ كَقَولِهِ : نَطَقَتِ ٱلحَالُ بِكَذَا اَو لَعِبَت بِهِ ٱلهُمُومُ . وَكَقَولِ جَرِيرٍ :

يَحْشَى ٱلرَّوَامِسَ رَبعُهَا فَتُجِدُّهُ ... بَعدَ ٱلبِلَى وَتُمِيتُهُ ٱلاَمطَارُ

اَو مِن جِهَةِ مَفعُولِهِ كَقَولِ ٱبنِ ٱلمُعتَزّ :

جُمِعَ ٱلحَقُّ لَنَا فِي اِمَامٍ ... قَتَلَ ٱلجُورَ وَاَحيَا ٱلسَّمَاحَا

اَو مِن جِهَةِ ٱلفَاعِلِ وَٱلمَفعُولِ كَقَولِهِ : يَكَادُ ٱلبَرقُ يَخطَفُ اَبصَارَهُم . وَيَتَّصِلُ بِهٰذَا تَرشِيحُ ٱلاِستِعَارَةِ وَتَجرِيدُهَا . اَمَّا تَرشِيحُهَا فَهُوَ اَن تَنظُرَ فِيهَا اِلَى ٱلمُستَعَارِ وَتُرَاعِيَ جَانِبَهُ وَتُوَلِيَهُ مَا تَستَدعِيهِ وَتَضُمَّ اِلَيهِ مَا تَقتَضِيهِ كَقَولِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَصَدرٍ اَرَاحَ ٱللَّيلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضَاعَفَ فِيهِ ٱلحُزنُ مِن كُلِّ جَانِبِ

اَلْمُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ الْاِزَاحَةُ مَنْظُورٌ اِلَيْهِ فِي لَفْظِ الْعَازِبِ . وَاَمَّا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ اَنْ يَكُونَ الْمُسْتَعَارُ لَهُ مَنْظُورًا اِلَيْهِ كَقَوْلِهِ : فَاَذَاقَهَا اللّٰهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ . فَاِنَّ الْاِذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ اَثَرِ الضَّرَرِ وَالْاَلَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ الْمُرِّ. الشَّبَعُ وَاللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَاَنَّهُ قَالَ : فَاَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ اَلَمِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى اَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ اَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ اِلَى الْمُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى اَسَدٍ دَامِي اَوْ دَامِي الْبَرَاثِنِ مَثَلًا. وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ الْبَيْتِ اِلَى الْمُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ الرِّدَاءِ اِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

اِسْتَعَارَ الرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِاَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ الرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِالْغَمْرِ الَّذِي هُوَ وَصْفُ الْمَعْرُوفِ وَالنَّوَالِ لَا وَصْفُ الرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ الْاِسْتِعَارَةُ بِالْكِنَايَةِ وَهُوَ اَنْ لَا يُصَرِّحَ بِذِكْرِ الْمُسْتَعَارِ بَلْ يَذْكُرُ بَعْضَ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ اَقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ النَّاسُ . وَكَقَوْلِ اَبِي ذُؤَيْبٍ :

وَاِذَا الْمَنِيَّةُ اَنْشَبَتْ اَظْفَارَهَا اَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى اَنَّ الشُّجَاعَ اَسَدٌ وَالْعَالِمَ بَحْرٌ وَالْمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَاِنْ كَانَ يُشْبِهُ الْاِسْتِعَارَةَ الْمُجَرَّدَةَ اِلَّا اَنَّهُ اَغْرَبُ وَاَعْجَبُ. وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعصِ اَطْرَافَ ٱلرِّمَاحِ فَإِنَّهُ   يُطِيعُ ٱلْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهذَمِ

أرَادَ أنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِأَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ أَيْ أَشْرَعُوا ٱلأَسِنَّةَ وَأَخِّرُوا ٱلرِّمَاحَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ أَيْضاً . وَقَدْ يُنْزِلُونَ ٱلاِسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَأَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَأَنَّ ٱلاِسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ أَصْلًا . مِثَالُهُ ٱسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوّاً مَكَانِيّاً . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ   بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ أَيْضاً :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا   تُحَاوِلُ ثَأْراً عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ أَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَأَحَدُهُمَا أَنْقَصُ مِنَ ٱلْآخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

اَسمَ ٱلزَّائدِ مُبالغةً فِي تحقيقِ ذلكَ ٱلوَصفِ لهُ كقولكَ: رَأيتُ اَسدًا. وَانتَ تعنِي رجلًا شجاعًا. (وَٱلثَّانِي) تعتمدُ لوازمهُ عِندمَا يكونُ جهةُ ٱلإشتراكِ وصفًا وَاِنَّما ثبتَ كمالهُ فِي ٱلمُستعارِ فِي وَاسِطةِ شيءٍ آخر فتُثبتُ ذلكَ ٱلشيءَ لِلمستعارِ لهُ مُبالغةً فِي اِثباتِ ٱلمشتركِ. كقولِ تأبَّطَ شرًّا:

اِذَا هزَّهُ فِي عظمِ قِرنٍ تهلَّلَتْ نَوَاجِذُ اَفوَاهِ ٱلمنايَا ٱلضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ ٱلمنايَا عِندَ هزَّةِ ٱلسَّيفِ بِٱلسُّرُورِ وَكمالُ ٱلفرحِ وَٱلسُّرُورِ اِنَّمَا يظهرُ بِٱلضَّحِكِ ٱلَّذِي يتهلَّلُ بِهِ ٱلنَّوَاجِذُ اَثبتَهُ تحقيقًا لِلوَصفِ ٱلمقصودِ وَاِلَّا فليسَ لِلمنايَا مَا يُنقَلُ اِليهِ اَسمُ ٱلنَّوَاجِذِ. وَهكذا ٱلكلامُ فِي قولِ ٱلحماسيِّ:

سَقَاهُ ٱلرَّدَى سيفٌ اِذَا سُلَّ اَومضَتْ اِلَيهِ مَنَايَا ٱلموتِ مِن كُلِّ مَرقبِ

وَمِنْ هذَا ٱلبابِ قولُهُمْ: فُلَانٌ مُرخِي ٱلعِنانِ وَمُلقِي ٱلزِّمامِ. وَٱلفرقُ بَيْنَ ٱلقسمَيْنِ اَنَّكَ اِنْ رجعتَ فِي ٱلاَوَّلِ اِلى ٱلتَّشبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلمقصدُ مِنْ كُلِّ ٱستعارةٍ مُقيَّدةٍ وَجدتَهُ يأتِيكَ عفوًا كقولِكَ: رَأيتُ رَجلًا كَالاَسدِ اَوْ مِثلهُ اَوْ شِبهُهُ. وَاِنْ رُمتَهُ فِي ٱلثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلكَ ٱلمُؤَاتَاةَ اِذْ لَا وَجهَ اَنْ تقولَ: شيءٌ مِثلُ ٱليدِ لِلشِّمالِ. وَاِنَّمَا تَهيَّأَ لكَ ٱلتَّشبِيهُ بعدَ اَنْ تخرقَ اِليهِ سِترًا اَوْ تعملَ تأمُّلًا وَفكرًا. وَفِي اِغفالِ هذَا ٱلاَصلِ وُقوعٌ فِي ٱلتَّشبِيهِ. وَذلكَ اَنَّ مَنْ وَضعَ فِي نفسِهِ اَنَّ كُلَّ اَسمٍ يُستعارُ فلَا بُدَّ اَنْ يكونَ هُناكَ شيءٌ يُمكِنُ ٱلاِشارةُ اِليهِ تتناوَلُهُ فِي حالةِ ٱلمجازِ كمَا تتناوَلُ مُسمَّاهُ فِي حالةِ

ٱلْحَقِيقَةِ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . وَقَوْلِهِ : تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . ارْتَبَكَ فِي ٱلشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ ٱلظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ . فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱلْخَلَاصُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلتَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَإِثْبَاتِ ٱلْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . إِذَا عُرِفَ هٰذَا فَٱلنَّوْعُ ٱلْأَوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ إِمَّا أَنْ يَشْتَرِكَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي ٱلصِّفَاتِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي ٱلسُّرْعَةِ . فَإِنَّ ٱلطَّيَرَانَ وَٱلْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمَكَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّ ٱلطَّيَرَانَ أَسْرَعُ . أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَأَيْتُ شَمْسًا . وَيُرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . فَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلنَّارُ . وَٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلشَّيْبُ . وَٱلْجَامِعُ ٱلِٱنْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي ٱلنَّارِ أَقْوَى . وَإِمَّا غَيْرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمِ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلرِّيحُ وَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلْمَرْءُ وَٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ ٱلنَّتِيجَةِ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ فَيُنَزَّلُ ٱلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ ٱلْكَامِلِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْعَدَمِ لِلْوُجُودِ إِذَا ٱشْتَرَكَا فِي عَدَمِ ٱلْفَائِدَةِ أَوِ ٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْوُجُودِ لِلْعَدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ ٱلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَهْلِ بِٱلْمَوْتِ لِٱشْتِرَاكِ ٱلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ ٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ ٱلْمَوْتَ إِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ: وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ أَمْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ: بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ: إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ: وَقَدِ ٱخْتَارَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِاسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلِاسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ أَحْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسْطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِانْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ أَعْجَازِهِ وَأَوَاخِرِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وَهٰذَا ٱلَّـذِي ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ لَا أَرْضَى بِهِ غَايَةَ ٱلرِّضَى وَلَوْ كُنْتُ أَسْكُنُ إِلَى تَقْلِيدِ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَقَـلَّدْتُهُ لِحُسْنِ نَظَرِهِ وَصِحَّةِ فِكْرِهِ وَهُوَ عِنْدِي مِنَ ٱلْوَسَطِ لَيْسَ مِنْ جَيِّدِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَلَا مِنْ رَدِيئِهَا . وَإِنَّمَا قُلْتُ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ أَفْصَحَ بِأَنَّ ٱمْرَءَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا جَعَلَ لِلَّيْلِ وَسَطًا وَعَجُزًا ٱسْتَعَارَ لَهُ ٱسْمَ ٱلصُّلْبِ وَجَعَلَهُ مُتَمَطِّيًا مِنْ أَجْلِ ٱمْتِدَادِهِ وَجَعَلَ ٱلْكَلْكَلَ مِنْ أَجْلِ نُهُوضِهِ وَكُلُّ هٰذَا إِنَّمَا يَحْسُنُ بَعْضُهُ لِأَجْلِ بَعْضٍ . فَذِكْرُ ٱلصُّلْبِ إِنَّمَا حَسُنَ لِأَجْلِ ٱلْعَجُزِ . وَٱلتَّمَطِّي لِأَجْلِ ٱلصُّلْبِ . وَٱلْكَلْكَلُ لِمَجْمُوعِ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلْاِسْتِعَارَةُ ٱلْمَبْنِيَّةُ عَلَى غَيْرِهَا فَلِذٰلِكَ لَمْ أَرَ أَنْ تُجْعَلَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَكَانَتِ ٱسْتِعَارَةُ طُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَجَعَلْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيَةٍ ... يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا ٱلرَّحْلُ

أَوْفَقَ وَأَوْضَحَ . لِأَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ إِلَى مُقَدَّمَةٍ حِلْيَتِهَا .
(وَقَالَ) وَقَدْ كُنْتُ مَثَّلْتُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلْمَذْمُومَةِ بِبَيْتَيْنِ أَحَدُهُمَا قَوْلُ ٱبْنِ نُبَاتَةَ :

حَتَّى إِذَا بَهَرُوا ٱلْأَبَاطِحَ وَٱلثَّرَى ... نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ

فَنَظَرُ أَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ مِنْ أَشْبَهِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَأَلْيَقِهَا . لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ إِذَا كَانَ مُقَابِلًا لِمَنْ يَمُرُّ بِهِ كَأَنَّهُ مُنَاظِرٌ إِلَيْهِ . وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي بَيْتُ أَبِي تَمَّامٍ :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ ٱلدِّينِ وَٱسْتَتَرَتْ ... بِٱلْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ ٱلشِّرْكِ فَٱصْطَلِمَا

وَقُرَّةُ عَيْنِ ٱلدِّينِ وَٱسْتِتَارُ عُيُونِ ٱلشِّرْكِ مِنْ أَقْبَحِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ

لِعَدَمِ ٱلشَّبَهِ ٱلَّذِي لِأَجْلِهِ جَعَلَ لِلشِّرْكِ عُيُونًا . وَمَنْ تَأَمَّلَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ لَا يَفْهَمْ مَعْنَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ وَٱلشِّرْكَ لَا عُيُونَ لَهُمَا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ قَبُحَتْ ٱسْتِعَارَةُ ٱلْعُيُونِ لِأَحَدِهِمَا وَحَسُنَتْ لِلْآخَرِ . وَٱلْعِلَّةُ فِيهِ أَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ . وَٱلدِّينُ وَٱلشِّرْكُ لَيْسَ فِيهِمَا مَا يُشْبِهُهَا وَلَا يُقَارِبُهَا .

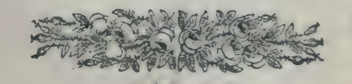
وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ كَقَوْلِ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ :

رَبَا ٱلنَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ وَلَا بَرِحَتْ   حَوَامِلُ ٱلْمُزْنِ فِي أَجْدَاثِكُمْ تَضَعُ

وَلَا يَزَالُ جَنِينُ ٱلنَّبْتِ يُرْضِعُهُ   عَلَى قُبُورِكُمُ ٱلْعَرَّاصَةُ ٱلْهَمِعُ

لِأَنَّ ٱلْمُزْنَ تَحْمِلُ ٱلْمَاءَ وَإِذَا حَمَلَتْ تَضَعُهُ فَٱسْتِعَارَةُ ٱلْحَمْلِ لَهَا وَٱلْوَضْعِ ٱلْمَعْرُوفَيْنِ مِنْ أَقْرَبِ شَيْءٍ وَأَشْبَهِهِ . وَكَذٰلِكَ جَنِينُ ٱلنَّبْتِ لِأَنَّ ٱلْجَنِينَ ٱلْمَسْتُورَ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجُنَّةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلنَّبْتُ مَسْتُورًا وَٱلْغَيْثُ يَسْقِيهِ كَانَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلرَّضَاعِ

وَأَمْثَالُ ٱلْمَحَاسِنِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْمَسَاوِئِ كَثِيرَةٌ وَقَدْ أَخَذَ ٱلْقَوْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ حَقَّهُ . مَعَ أَنَّ أَقْوَالَ ٱلْعُلَمَاءِ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ



البحث الثامن

في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيَّة للثعالبي)

وَامَّا ما جاءَ فِي قَوْلِ ٱلعَرَبِ مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَجَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُمْ . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : أَفْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهَى نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . ٱنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . ٱرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نوّرت حدائقُ الجوّ . شاب رأسُ الليلِ . لبستِ الشمسُ جلبابها . قامَ خطيبُ الرعدِ . خفق قلبُ البرقِ . انحلَّ عِقدُ السماء . وهي عِقدُ الأنداءِ . انقطَعَ شريانُ الغمامِ . تنفّسَ الربيعُ . تعطّرَ النسيمُ . تبرّجتِ الأرضُ . قويَ سلطانُ الحرّ . آنَ أنْ يجيشَ مرجلُهُ . ويثورَ قسطلُهُ . انحصرَ قناعُ الصيفِ . جاشتْ جيوشُ الخريفِ . حلّتِ الشمسُ الميزانَ . وعدلَ الزمانُ . دبّتْ عقاربُ البردِ . أقدمَ الشتاءُ كلكلَهُ . شابتْ مفارقُ الجبالِ . يومٌ عبوسٌ قمطريرٌ . كشّرَ عن نابِ الزمهريرِ .

وكقولِهم في محاسنِ الكلامِ : الأدبُ غذاءُ الروحِ . الشبابُ باكورةُ الحياةِ . النارُ فاكهةُ الشتاءِ . العيالُ سوسُ المالِ . النبيذُ كيمياءُ الفرحِ . الوحدةُ قبرُ الحيّ . الصبرُ مفتاحُ الفرجِ . الدّينُ داءُ الكرامِ . النمّامُ جسرُ الشرّ . الإرجافُ زندُ الفتنةِ . الشكرُ نسيمُ النعيمِ . الربيعُ شبابُ الزمانِ . الولدُ ريحانةُ الروحِ . الشمسُ قطيفةُ المساكينِ . الطيبُ لسانُ المروءةِ . ويسمّونَ النباتَ نوًا . قالَ : وجفَّ أنواءُ السحابِ . أي جفَّ البقلُ . ويقولونَ للمطرِ سماءٌ . قالَ الشاعرُ :

إذا سقطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رعيناها وإنْ كانوا غضابا

ويقولونَ : ضحكتِ الأرضُ إذا أنبتتْ لأنّها تبدي عن حسنِ النباتِ كما يفترُّ الضاحكُ عن الثغرِ . ويقالُ : ضحكتِ الظلمةُ . والنورُ يضاحكُ الشمسَ . قالَ الأعشى :

يضاحكُ الشمسَ منهُ كوكبٌ مشرقٌ

مؤزّرٌ لعميمِ النبتِ مكتهلُ

وَيقُولُونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحابُ بِٱلبَرْقِ وَحَنَّ بِٱلرَّعْدِ وَبَكَى بِٱلقَطْرِ . وَيقُولُونَ: لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلْقِرْبَةِ اَيْ شِدَّةً وَمَشَقَّةً . (وَاصْلُ هٰذَا اَنَّ حامِلَ ٱلْقِرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعْرَقَ) . وَيقُولُونَ اَيْضًا : لَقِيتُ مِنْهُ عَرَقَ ٱلْجَبِينِ . وَٱلعَرَبُ تَقُولُ: بِاَرْضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ . وَذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِاَنَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

كَٱلْكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلْكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلبَابِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : ٱلْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلْمَنْطِقِ . وَقَوْلُهُ : اُذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللّٰهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَقَوْلُهُ : ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . وَقَوْلُهُ : وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلْعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَقَالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ . وَقَالَ : وَامَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْاِسْلَامِ . وَلَهُ قَوْلُهُ لِاَبْنِ عَبَّاسٍ : اَرْغِبْ رَاغِبَهُمْ وَٱحْلِلْ عُقْدَةَ ٱلْخَوْفِ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : ٱلعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلْمَسْئَلَةُ . وَقَوْلُهُ : ٱلْحِلْمُ وَٱلْاَنَاةُ تَوْاَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ . وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ اَمْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا . وَلَمْ تُطِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَبَّتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ . وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ آمِنٍ اِلَّا اَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ . وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلْمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللّٰهُ

فِي مَا لَهُ وَرَغْبَةُ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَاشْرَبَ قَلْبَهُ ٱلْإِشْفَاقَ . فَهُوَ يَحْسِدُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى ٱلْكَثِيرِ جَزِلُ ٱلظَّاهِرِ حَزِينُ ٱلْبَاطِنِ . فَإِذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَفِرَ عُمْرُهُ وَضَحَى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاشَدَّ حِسَابَهُ وَاقَلَّ عَفْوَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ : ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي قَصَّرَ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ . وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ ٱلْأَمَانَةِ اعْجَفِ ٱلْخِيَانَةِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ : ٱلرَّأْيُ لِأَصْحَابِهِ لَا خَيْرَ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلْفَطِيرِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْقَضِيبِ . فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ : دَعُوا ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ فَإِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحَلِّهِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : إِنَّكَ لَحَسَنُ ٱلْكِدْنَةِ . قَالَ : عِنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَالَ اكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلْحِلْمُ دِعَامَةُ ٱلْعَقْلِ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ : رَحِمَ ٱللهُ اَبَاكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرِي ٱلْعَيْنَ جَمَالًا وَٱلْأُذُنَ بَيَانًا . وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاكَ . قَالَ : ٱلتُّرَابُ يَابِسٌ وَٱلْمَالُ عَابِسٌ . وَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ : بَلَغَنِي اَنَّكَ بَخِيلٌ : قَالَ مَا اَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلَا اذُوبُ فِي بَاطِلٍ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ : إِنِّي لَأُحِبُّكَ . قَالَ : رَائِدُ ذٰلِكَ عِنْدِي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْإِسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : ٱلشُّكْرُ كُفُوُّ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ اعْرَابِيٌّ : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ ٱلْقَتْ عَلَى ٱلْأَرْضِ اَدْرَاعَهَا فَمَحَتْ صُورَةَ ٱلْأَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِٱلْآذَانِ . وَقَالَ اعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : يَسَارُ ٱلنَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ ٱلْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ ٱلنِّعَمِ غَرْثَانَ مِنَ ٱلْكَرَمِ . وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ : جَعَلُوا ٱلْحَرْبَ

ارشِيَةَ ٱلْمَوْتِ وَٱسْتَقَوْا بِهَا ارْوَاحَ ٱلعَدُوِّ . وَقَالَ آخَرُ : فُلَانٌ أَمْلَسُ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالَ احْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ شَتَمَهُ رَجلٌ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَأْمُونِ : رَأَيْتُهُ يَسْتَمْلِي مَا يَلْقَانِي بِهِ مِنْ عَيْنَيْكَ . وَقِيلَ لِأَعرَابِيٍّ : ايُّ طَعَامٍ اطْيَبُ . قَالَ : ٱلْجُوعُ ابْصَرُ . وَمَدَحَ اعْرَابِيٌّ رَجُلًا قَالَ : كَانَ يَفْتَحُ مِنَ ٱلرَّأْيِ ابْوَابًا مُنْسَدَّةً وَيَغْسِلُ مِنَ ٱلْعَارِ وُجُوهًا مُسْوَدَّةً . إِذَا عَرَضَتْ لَهُ زِينَةُ ٱلدُّنْيَا هَجَّنَتْهَا صُورَةُ ٱلْحَمْدِ عِنْدَهُ وَإِنَّ لِلْمَصَانِعِ لَغَارَةً عَلَى امْوَالِهِ كَغَارَةِ سُيُوفِهِ عَلَى اعْدَائِهِ . وَمَدَحَ اعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اولَائِكَ غُرَرٌ تُضِيءُ فِي ظُلَمِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ صَغَتْ آذَانُ ٱلْمَجْدِ إِلَيْهِمْ . وَقَالَ اعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ رَجُلًا : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ انَّ ٱللّٰهَ مَادَّتُهُ . وَمَدَحَ اعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : لِسَانُهُ احْلَى مِنَ ٱلشَّهْدِ وَقَلْبُهُ سِجْنُ ٱلْحِقْدِ . إِنْ اسَأْتَ إِلَيْهِ احْسَنَ وَكَأَنَّهُ ٱلْمُسِيءُ . وَإِذَا اجْرَمْتَ غَفَرَ وَكَأَنَّهُ ٱلْمُجْرِمُ . إِشْتَرَى بِٱلْمَعْرُوفِ عِرْضَهُ مِنَ ٱلْأَذَى فَهُوَ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِأَسْرِهَا فَوَهَبَهَا رَاى بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ حُقُوقًا لَا يَسْتَعْذِبُ ٱلْخَنَى وَلَا يَسْتَحْسِنُ غَيْرَ ٱلْوَفَاءِ . وَقَالَ اعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : لَا تُدَنِّسْ شِعْرَكَ بِعِرْضِ فُلَانٍ فَإِنَّهُ سَمِينُ ٱلْمَالِ مَهْزُولُ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلْمَرْزُوقِينَ فُجَاءَةً قَصِيرُ عُمْرِ ٱلْغِنَى طَوِيلُ حَيَاةِ ٱلْفَقْرِ . وَسَأَلَ اعْرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ : عَلَيْكَ بِٱلصَّيَارِفِ . فَقَالَ : هُنَاكَ وَرَارَةُ ٱللُّؤْمِ . وَذَكَرَ اعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : اولَائِكَ قَوْمٌ قَدْ سَلَخَتْ اقْفَاءَهُمْ بِٱلْهِجَاءِ وَدَبَغَتْ جُلُودَهُمْ بِٱللُّؤْمِ . فَلِبَاسُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْمَلَامَةُ وَزَادُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ٱلنَّدَامَةُ . وَذَمَّ اعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : هُمْ اقَلُّ ذُنُوبًا إِلَى اعْدَائِهِمْ

وَاَكْثَرُ تَجَرُّمًا عَلَى اَصْدِقَائِهِمْ . يَصُومُونَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيُفْطِرُونَ عَلَى ٱلْفَحْشَاءِ . وَذَمَّ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ تَغْدُو اِلَيْهِ مَوَاكِبُ ٱلضَّلَالَةِ وَتَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ بُذُورُ ٱلْآثَامِ مُعْدِمٌ مِمَّا يُحِبُّ مُثْرٍ مِمَّا يُكْرَهُ . وَقَالَ آخَرُ : مَا رَاَيْتُ دَمْعَةً تَرَقْرَقُ فِي عَيْنٍ وَتَجْرِي عَلَى خَدٍّ اَحْرَ مِنْ عَبْرَةٍ اَمْطَرَتْهَا عَيْنَاهُ وَاَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ وَذَكَرَ زُهَّادًا : فَازَ قَوْمٌ اَدَّبَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ وَاَحْكَمَتْهُمُ ٱلتَّجَارِبُ وَلَمْ تَغْرُرْهُمُ ٱلسَّلَامَةُ ٱلْمَنْطَوِيَةُ عَلَى ٱلْهَلَكَةِ . وَرَحَلَ عَنْهُمُ ٱلتَّسْوِيفُ ٱلَّذِي قَطَعَ بِهِ ٱلنَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ وَاَحْسَنُوا ٱلْمَقَالَ وَشَفَعُوهُ بِٱلْفِعَالِ تَرَكُوا ٱلنَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا. لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ لَا يَرَاهُمْ اِلَّا فِي وَجْهٍ عِنْدَ ٱللهِ وَجِيهٍ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ وَالِيًا فَقَالَ : كَانَ اِذَا وُلِّيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ وَاَرْسَلَ ٱلْعُيُونَ عَلَى عُيُونِهِ . فَهُوَ شَاهِدٌ مَعَهُمْ غَائِبٌ عَنْهُمْ فَٱلْمُحْسِنُ آمِنٌ وَٱلْمُسِيءُ خَائِفٌ . وَذَكَرَ اَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : كَانَ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ ذَا اُذُنَيْنِ وَٱلْجَوَابُ مِنْهُ ذَا لِسَانَيْنِ . لَمْ اَرَ اَحَدًا كَانَ اَرْتَقَ لِخَلَلِ ٱلسَّرَّاءِ مِنْهُ كَانَ بَعِيدَ مَسَافَةِ ٱلرَّأْيِ يَرْمِي بِطَرْفِهِ حَيْثُ اَشَارَ ٱلْكَرَمُ . وَمَا زَالَ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ ٱلْاِخْوَانِ وَيُسِيغُهُمُ ٱلْعَذْبَ . وَوَصَفَ اَعْرَابِيٌّ قَوْمَهُ فَقَالَ : اِذَا ٱصْطَفُّوا تَحْتَ ٱلْقَتَامِ سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلسِّهَامُ بِوُقُوفِ ٱلْحِمَامِ . وَاِذَا تَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ فَغَرَتِ ٱلْمَنَايَا بِاَفْوَاهِهَا . فَكَمْ مِنْ يَوْمٍ عَارِمٍ قَدْ اَحْسَنُوا اَدَبَهُ وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ ضَاحَكَتْهَا اَسِنَّتُهُمْ وَخَطْبٍ قَدْ ذَلَّلُوا مَنَاكِبَهُ . اِنَّمَا كَانُوا كَٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يَنْكَشُّ غِمَارُهُ وَلَا يُنْهَنَهُ تَيَّارُهُ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ : لِمَ لَا تَشْرَبُ ٱلنَّبِيذَ . فَقَالَ : لَا اَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي .

وَقَالَ آخَرُ : اَلْخَطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : اَلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا ٱلْاِسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلِٱئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (ٱلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَ ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وِقْفَةَ حَائِمِ

ظَمْآنَ أَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ ... وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مليحٌ مِنْ عَيبٍ. وَلَاخَلَا مِنْ مَرْفُوعٍ رَيبٌ. فَمَعَ هٰذِهِ ٱلْمحَاسِنِ ٱلظَّرِيفَةِ مَا سَلِمَ ٱلْبَيْتَانِ مِنْ عَيبِ ٱلْقَافِيَةِ. فَقَدْ غَيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كَسْرَةَ ٱلدَّخِيلِ عَلَى ٱلضَّمَّةِ. وَجَاءَ فِي ذَلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ اَدِيبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلسَّلَامِيِّ :

وَٱلنَّقعُ ثَوبٌ بِٱلنُّسُورِ مُطَرَّزٌ ‏ ‏ وَٱلْاَرْضُ فَرْشٌ بِٱلْجِيَادِ مُخَمَّلُ

وَسُطُورُ خَيلِكَ اِنَّمَا اَلِفَاتُهَا ‏ ‏ سُمْرٌ تُنَقِّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشْكِلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوْبِ وَٱلتَّطْرِيزِ وَٱلْخَمْلِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلْاَلِفَاتِ وَٱلنِّقَطِ وَٱلشَّكْلِ

(تَنْبِيهٌ) وَلَوْ ذُكِرَ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبُهُ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَيبًا. كَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا ‏ ‏ مَبْرُورَةً لَا تُكَذَّبْ

بِرَبِّ زَمْزَمَ وَٱلْحَوْ ‏ ‏ ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيهِ ذِكْرَ ٱلْحَوضِ مَعَ زَمْزَمٍ وَٱلصَّفَا وَٱلْمُحَصَّبِ. وَاِنَّهُ غَيرُ مُنَاسِبٍ ذِكْرُهُ مَعَهَا. وَاِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكْرُ ٱلْحَوضِ مَعَ ٱلْمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ وَشِبْهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَومِ ٱلْقِيَامَةِ

(تَنْبِيهٌ ثَانٍ) لَوْ جَاءَ ٱلْكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَاَفْرَدَ اَحَدَهُمَا وَثَنَّى ٱلْآخَرَ اَوْ جَمَعَهُ وَمَا اَشْبَهَ ذَلِكَ كَانَ عَيبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا ‏ ‏ اَمَا وَٱللهِ مَا مَاتُوا لِتَبْقَى

وَمَا لَكَ فَٱعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ ‏ ‏ اِذَا ٱسْتَكْمَلْتَ آجَالًا وَرِزْقَا

فَجَمَعَ (ٱلْاَجَلَ) وَاَفْرَدَ (ٱلرِّزْقَ) مَعَ اَنَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (اَلثَّانِي) اَنْ يُذْكَرَ شَيْءٌ اَوْ اَشْيَاءُ كُلٌّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فِي جُمَلٍ مُسْتَوِيَةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ لِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا اَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا اِمَّا اَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَاِمَّا اَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْاَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي اَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانٍ كَٱلْيَمِّ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا وَاَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ اَخَا عِلْمِ

(اَلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلنَّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ اِنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ اِنْ تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدْ رُمْتَ لَمْ يَرُمِ
اِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَاِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى فَعَلْتَ تُسْعَدْ وَاِنْ لَاحَظْتَ تُحْتَرَمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي اِلَى اَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

اَقِلْ اَنِلْ اَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ اَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ اَدْنِ سُرَّ صِلِ

(اَلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ اَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَتَخْتِمَ ٱلْكَلَامَ بِشَيْئَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْاَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْاَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلأَشيَاءِ. (ٱلرَّابِعُ) انْ تَذْكُرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تَذْكُرَ مَعَهُ لَفظًا مُشتَرَكًا بَيْنَ امرَينِ: احَدُهُما يُلَائِمُ ٱلأَوَّلَ وَٱلآخَرُ لا يُلَائِمُهُ فَيَتَوَهَّمُ ٱلسَّامِعُ انَّهُ مُرَادِفُ ٱلْمُلَائِمِ ولَيسَ كَذٰلِكَ. ويُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ اِيهامَ ٱلنَّظِيرِ. كَقَوْلِ ٱلقَائِلِ: ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. فَيُتَوَهَّمُ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ ولَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلنَّجْمِ ٱلنَّبَاتُ لَا ٱلكَوْكَبُ لِعَطْفِ ٱلشَّجَرِ عَلَيْهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(عن السكاكي والدسوقي والثعالبي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

اِنَّ عَلَاقَةَ ٱلْمَجَازِ ٱلْمُصَحِّحَةَ لَهُ اِمَّا انْ تَكُونَ مُشَابَهَةَ ٱلْمَنقُولِ اِلَيهِ بِٱلْمَنقُولِ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَيُسَمَّى ٱلْمَجَازُ ٱسْتِعَارَةً كَمَا مَرَّ. وَاِمَّا انْ تَكُونَ عَلَاقَةُ ٱلْمَجَازِ غَيْرَ ٱلْمُشَابَهَةِ فَيُسَمَّى مُرْسَلًا كَلَفْظِ ٱلْيَدِ اِذَا ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْقُدْرَةِ كَمَا يُقَالُ: جَلَّتْ ايَادِيهِ عِنْدِي. اَيْ كَثُرَتْ نِعْمَتُهُ لَدَيَّ. وَٱتَّسَعَتِ ٱلْيَدُ فِي ٱلْبَلَدِ. وَٱلْيَدُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعُضْوُ ٱلْمَخْصُوصُ وَٱلْعَلَاقَةُ كَوْنُ ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ مَصْدَرًا لِلنِّعْمَةِ فَاِنَّهَا تَصِلُ اِلَى ٱلْمُنعَمِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْيَدِ فَتَكُونُ ٱلْجَارِحَةُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلْفَاعِلِيَّةِ لَهَا. وَايضًا بِٱلْيَدِ تَظْهَرُ ٱلنِّعْمَةُ فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَهَا. وَاِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ لِلْقُدْرَةِ فَلِاَنَّ اَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطَانُ ٱلْقُدْرَةِ فِي ٱلْيَدِ وَبِهَا تَكُونُ ٱلأَفعَالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلضَّرْبِ

وَٱلقطْع وَٱلْاخذِ وغَيرِ ذلِكَ . وَانواعُ ٱلعلَاقَةِ ٱلْمُعتبرَةِ كَثيرَةٌ مِنهـا عَائدَةٌ اِلَى (ٱلتَّضمُّنِ) وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى زِيادَةٍ اوْ نُقْصَانٍ . (فَمِنَ ٱلنُّقْصَانِ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ جُزْئِهِ وَإِطْلَاقُ ٱلخَاصِّ لِلعَامِّ . وَهٰذَا مِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى بَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَهُمْ يُرِيـدُونَ كُلَّهُ فَيَقُولُونَ : قَعَدَ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

ٱلْوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعَالِهِمْ

وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

اَوْ يَرْبِطُ بَعْضَ ٱلنُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَفِي ٱلقُرْآنِ : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ اَبصَارِهِمْ . وَٱلْمُرَادُ يَغُضُّوا اَبصَارَهُمْ كُلَّهَا . (وَكَذٰلِكَ) يَصِفُونَ ٱلبَعْضَ بِصِفَةِ ٱلْكُلِّ كَقَوْلِهِ : نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ . فَٱلْخَطَأُ صِفَةُ ٱلْكُلِّ وَصَفَ بِهِ ٱلنَّاصِيَةَ . وَمِثْلُ ذٰلِكَ اِطْلَاقُهُمْ لَفظَ (بَعْضٍ) مُرَادًا بِهِ ٱلْكُلُّ كَقَوْلِهِ : لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ اَيْ كُلَّهُ . وَمِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ اَنْ تُقِيمَ ٱلْوَاحِدَ مَقَامَ ٱلْجَمْعِ فَيَقُولُونَ : قَرَرْنَا بِهِ عَيْنًا . اَيْ اَعيُنًا . وَكَقَوْلِهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِنْهُمْ . وَٱلتَّفْرِيقُ لَا يَكُونُ اِلَّا بَيْنَ ٱثْنَيْنِ . وَٱلتَّقْدِيرُ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ . وَمِنْ هٰذَا ٱلبَابِ سُنَّةُ ٱلْعَرَبِ اَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلْمَلِكِ ٱلْكَبِيرِ : ٱنْظُرُوا فِي اَمْرِي . وَلِأَنَّ ٱلسَّادَةَ وَٱلْمُلُوكَ يَقُولُونَ : نَحْنُ فَعَلْنَا وَاِنَّا اَمَرْنَا . فَعَلَى قَضِيَّةِ هٰذَا ٱلِابْتِدَاءِ يُخَاطَبُونَ فِي ٱلْجَوَابِ . (وَمِنَ ٱلزِّيَادَةِ) وَهُوَ عَكْسُ مَا قَبْلَهُ اِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْعَامِّ لِلْخَاصِّ وَمِنْهُ بَابُ ٱلتَّخْصِيصِ بِأَسْرِهِ وَاِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْكُلِّ عَلَى ٱلْجُزْءِ نَحْوُ : يَجْعَلُونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ · يُرِيدُ ٱلْأَنْمُلَةَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْأَصَابِعِ · وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلْأَصَابِعِ فِي ٱلْأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ · (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) أَيْضًا ٱلْإِتْيَانُ بِٱلْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ · وَإِنَّمَا أَرَادَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ · وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : اِفْعَلَا ذٰلِكَ · وَٱلْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ · وَكَقَوْلِهِ : أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ · وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ · وَكَمَا قَالَ ٱلْأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلْعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى ... وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللهَ فَاعْبُدَا

وَيُقَالُ إِنَّهُ أَرَادَ : وَٱللهَ فَاعْبُدَنْ · فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلْخَفِيفَةَ أَلِفًا · وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ · (وَمِنْ أَنْوَاعِ) ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلْمَجَازِ ٱلْمُرْسَلِ مَا يَقُودُ إِلَى (ٱلِٱسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا ٱقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ · (فَمِنْ ذٰلِكَ) إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ · أَيْ هَلْ يَفْعَلُ · أَطْلَقَ ٱلِٱسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلْفِعْلِ لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ · وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا · أَيِ ٱلْمَطَرَ · لِأَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ · (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ · كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ · أَيِ ٱلْقَبُولَ وَٱلْعَمَلَ بِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ · وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلْغَيْثَ · أَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلْغَيْثُ · (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : أَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا · أَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ · وَكَقَوْلِهِ : يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا · أَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ · (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عَلَيهِ نَحْوُ : آتُوا ٱلْيَتَامَى اَموَالَهُمْ . اي ٱلَّـذِينَ كَانُوا يَتَامَى لِاَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَ اَموَالَهُم حَتَّى يَبلُغُوا وَلَا يُتمَ بَعْدَ ٱلْبُلُوغِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا يَؤُولُ اِلَيهِ نَحْوُ : اِنِّي اَرَانِي اَعْصِرُ خَمرًا اي عِنبًا . يُعْصَرُ فَيؤُولُ اِلَى ٱلْخَمْرِ . وَكَقَوْلِهِ : وَلَا يَلِدُوا اِلَّا كَفَّارًا . اَيْ صَائِرًا اِلَى ٱلْـكُفْرِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَحَلِّهِ نَحْوُ: فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ اَيْ اَهلَ نَادِيهِ. اَيْ مَجْلِسِهِ . وَكَقَوْلِهِ: اَسْاَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا . اَيْ اَهلَهَا . (وَمِنْهُ عَكْسُهُ) اَيْ اِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْحَالِّ عَلَى ٱلْمَحَلِّ . نَحْوُ : حَلُّوا فِي رَحْمَةِ ٱللهِ اَيْ فِي ٱلْجَنَّةِ لِاَنَّهَا مَحَـلُّ ٱلرَّحْمَةِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ آلَتِهِ نَحْوُ: وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ . اَي ٱجْعَلْ لِي ثَنَاءً حَسَنًا وَٱللِّسَانُ آلَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلثَّنَاءِ. (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ نَحْوُ: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ. اَيْ اَنْذِرْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ. وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ لِلرَّجُلِ تَسْتَجْهِلُهُ: يَاعَاقِلُ . وَٱلْمَرْاَةِ تَسْتَقْبِحُهَا : يَا قَمَرُ . (وَكَذٰلِكَ) يَقْلِبُونَ ٱلْمَعْنَى نَحْوُ : عَرَضْتُ ٱلنَّاقَةَ عَلَى ٱلْحَوْضِ . يُرِيدُونَ ٱلْحَوْضَ عَلَى ٱلنَّاقَةِ . (وَمِنْهُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ اَوْ يَكُونُ مِنْهُ نَحْوُ : يَوْمٌ عَاصِفٌ . اَيْ عَاصِفُ ٱلرِّيحِ . وَلَيْلٌ نَائِمٌ وَسَاهِرٌ وَصَائِمٌ اَيْ يُنَامُ فِيهِ وَيُسْهَرُ وَيُصَامُ . (وَمِنْهُ) اِضَافَةُ ٱلْفِعْلِ اِلَى مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ تَشْبِيهًا . كَقَوْلِهِ: جِدَارٌ يُرِيدُ اَنْ يَنْقَضَّ. وَلَا اِرَادَةَ لِلْجِدَارِ. وَلٰـكِنَّهُ تَوَسَّعَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْمَجَازِ فَعَبَّرُوا عَنِ ٱلْجَمَادِ بِفِعْلِ ٱلْاِنْسَانِ كَمَا قَالَ ٱلرَّاجِزُ :

اِمْتَلَاَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

اَيْ كَفَانِي وَلَيسَ لِلْحَوْضِ قَوْلٌ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلرَّاعِي ٱلشَّاعِرِ ٱلنَّصْرَانِيِّ:

فِي مَهْمَهٍ فُلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا ... فَلْقَ ٱلْفُؤُوسِ اِذَا اَرَدْنَ تَصُولَا

وَٱلْعَرَبُ تُسَمِّي ٱلتَّهَيُّؤَ لِلْفِعْلِ وَٱلِاحْتِيَاجَ اِلَيْهِ اِرَادَةً. وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِلَفْظِ ٱلْمَاضِي وَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ وَبِلَفْظِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ مَاضٍ كَقَوْلِهِ: لِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِيَاءَ ٱللّٰهِ اَيْ لِمَ قَتَلْتُمْ. وَكَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

فَاَدْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ اَدَعْ ... لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي ٱلْقَصَائِدِ مُصْنِفَا

اَيْ لِمَنْ يَكُونُ بَعْدِي. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: وَكَانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا. اَيْ كَانَ وَيَكُونُ وَهُوَ كَائِنٌ ٱلْآنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِٱلْمَفْعُولِ بِلَفْظِ ٱلْفَاعِلِ فَيَقُولُونَ: سِرٌّ كَاتِمٌ اَيْ مَكْتُومٌ. وَمَكَانٌ عَامِرٌ اَيْ مَعْمُورٌ. وَمَاءٌ دَافِقٌ اَيْ مَدْفُوقٌ. وَعِيشَةٌ رَاضِيَةٌ اَيْ مَرْضِيَّةٌ. وَحَرَمٌ آمِنٌ اَيْ مَأْمُونٌ. وَقَالَ جَرِيرٌ:

اِنَّ ٱلْبَلِيَّةَ مَنْ تَمَلُّ كَلَامَهُ ... فَٱنْقَعْ فُؤَادَكَ مِنْ حَدِيثِ ٱلْوَامِقِ

اَيْ مِنْ حَدِيثِ ٱلْمَوْمُوقِ. وَيَعْكِسُونَ هٰذَا ٱلْعَمَلَ وَيَسْتَعْمِلُونَ ٱلْفَاعِلَ بِلَفْظِ ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ: كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا اَيْ آتِيًا. وَكَقَوْلِهِ: حِجَابٌ مَسْتُورٌ اَيْ سَاتِرٌ. وَيُقِيمُونَ ٱلِاسْمَ وَٱلْمَصْدَرَ مَقَامَ ٱلْفَاعِلِ وَٱلْمَفْعُولِ. فَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ: رَجُلٌ عَدْلٌ اَيْ عَادِلٌ. وَرِضًى اَيْ مَرْضِيٌّ. وَبَنُو فُلَانٍ لَنَا سِلْمٌ اَيْ مُسَالِمُونَ. وَحَرْبٌ اَيْ مُحَارِبُونَ. (وَكَذٰلِكَ) يَحْمِلُونَ ٱللَّفْظَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فِي تَذْكِيرِ ٱلْمُؤَنَّثِ وَتَأْنِيثِ ٱلْمُذَكَّرِ فَيَتْرُكُونَ حُكْمَ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ وَيَحْمِلُونَهُ عَلَى مَعْنَاهُ كَمَا يَقُولُونَ: ثَلَاثَةُ اَنْفُسٍ. وَٱلنَّفْسُ مُؤَنَّثَةٌ وَاِنَّمَا حَمَلُوهُ عَلَى مَعْنَى ٱلْاِنْسَانِ اَوْ مَعْنَى ٱلشَّخْصِ

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْدَنَا إِلَّا ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلَأْلَأَتْ فِي ٱلْحِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَّرَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

أَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا .
وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ .
فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا
عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ إِذَا أُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو
إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا أَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ
ٱلْأَصْلِيِّ . وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ
لَهُ : ٱلْإِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ أَنْ
يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ
لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فَيُومِئُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ ٱلسَّتْرِ . يُقَالُ : كَنَيْتُ ٱلشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ . وَأُجْرِيَ هٰذَا ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي يُسْتَرُ فِيهَا ٱلْمَجَازُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً عَلَى ٱلسَّاتِرِ وَعَلَى ٱلْمَسْتُورِ مَعًا . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَسْتُورَ فِيهَا هُوَ ٱلْمَجَازُ لِأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ تُفْهَمُ أَوَّلًا وَيَتَسَارَعُ ٱلْفَهْمُ إِلَيْهَا قَبْلَ ٱلْمَجَازِ . لِأَنَّ دَلَالَةَ ٱللَّفْظِ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ وَضْعِيَّةٌ . وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَإِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا يُفْهَمُ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْفِكْرَةِ وَبِهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . فَٱلْحَقِيقَةُ أَظْهَرُ وَٱلْمَجَازُ أَخْفَى وَهُوَ مَسْتُورٌ بِٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ تَأَوَّلْتُ ٱلْكِنَايَةَ بِغَيْرِ هٰذَا وَهِيَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ ٱلْكُنْيَةِ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا : أَبُو فُلَانٍ . فَإِنَّا إِذَا نَادَيْنَا رَجُلًا ٱسْمُهُ عَبْدُ ٱللّٰهِ وَلَهُ وَلَدٌ ٱسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ . كَانَ ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِنَا : يَا عَبْدَ ٱللّٰهِ . فَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَكِلَاهُمَا وَاقِعٌ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْكِنَايَةِ فَإِنَّا إِذَا شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى جَانِبِ ٱلْمَجَازِ . وَإِنْ شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ . إِلَّا إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْوَصْفِ ٱلْجَامِعِ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَلْحَقَ بِٱلْكِنَايَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا وَمِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : هُوَ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ وَكَثِيرُ رَمَادِ ٱلْقِدْرِ . يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ طَوِيلُ ٱلْقَامَةِ كَثِيرُ ٱلْقِرَى فَلَمْ يَذْكُرِ ٱلْمُرَادَ بِلَفْظِهِ ٱلْخَاصِّ بِهِ وَلٰكِنْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ رِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْقَامَةَ إِذَا طَالَتْ طَالَ ٱلنِّجَادُ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْقِرَى كَثُرَ رَمَادُ ٱلْقِدْرِ . وَكَقَوْلِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ ٱلسِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ ٱلتَّنَحْنُحُ وَٱلسُّعَالُ. وَٱلْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي ٱلْإِثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ ٱلتَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: ٱلْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَٱلْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ وَٱلسَّمَاحَةَ وَٱلنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ٱبْنِ ٱلْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ ٱلْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ ٱلْحَجَّاجِ:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ ٱلسَّمَاحَةُ م وَٱلْمَجْدُ وَفَضْلُ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْحَسَبُ

وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ ٱلْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ ٱلْقُبَّةِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كِنَايَتَانِ: ٱلْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ ٱلْكَلْبِ مَهْزُولُ ٱلْفَصِيلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى ٱلِٱسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ ٱسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَٱلصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفظِهِ وَٱلْكِنَايَةُ ضِدُّ ٱلصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ اَحَدُهَا : ٱلْخُصُوصُ وَٱلْعُمُومُ . وَٱلْآخَرَ ٱلصَّرِيحُ . وَٱلْآخَرُ ٱلْحَمْلُ عَلَى جَانِبِ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ فِي بَابِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ اَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْكِنَايَةِ إِلَى ٱلْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ ٱلْجُزْءِ وَخَاصِّ ٱلْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَجُوزُ اَنْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ ٱسْتِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي مُفْرَدِهِ وَٱلنَّظَرِ إِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي اَبْيَاتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي اُمَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ اَبِي مُسْلِمٍ :

اَرَى خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ اَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ فِي ٱلتَّعْرِيضِ فَوَجَدْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْكِنَايَةِ وَلَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفْصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اَوْرَدُوا لَهُمَا اَمْثِلَةً مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَاَدْخَلُوا اَحَدَهُمَا فِي ٱلْآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ اَمْثِلَةً مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ اَمْثِلَةً مِنَ ٱلْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلْغَانِمِيُّ وَٱبْنُ سِنَانٍ وَٱلْخَفَاجِيُّ وَٱلْعَسْكَرِيُّ . وَسَاذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَاُمَيِّزُ اَحَدَهُمَا

عَنِ ٱلْآخَرِ لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ اِذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجَازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلْجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنْهُمَا ٱلْمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ اَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا اَرَدْتَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَاَمَّا ٱلتَّعْرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ لَا بِٱلْوَضْعِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلْمَجَازِيِّ . فَاِنَّكَ اِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعْرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : اِنِّي لَمُحْتَاجٌ وَلَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَاَنَا عُرْيَانٌ وَٱلْبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَاِنَّ هٰذَا وَاَشْبَاهَهُ تَعْرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيْسَ هٰذَا ٱللَّفْظُ مَوْضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . اِنَّمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلْكِنَايَةِ فَاِنَّهَا لَفْظِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَجَازِ . وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعْرِيضُ تَعْرِيضًا لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى فِيهِ يُفْهَمُ مِنْ عَرْضِهِ اَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعْرِيضَاتِ ٱلْاَدَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : اَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : اَيَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْاِنْكَارِ عَلَيْهِ لِتَاَخُّرِهِ عَنِ ٱلْمَجِيءِ اِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ ٱلْمُعْرِبِ عَنِ ٱلْاَدَبِ . وَمِنْ اَمْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْاُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي اِبِلٍ وَلَا غَنَمْ   وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

إِعلَمْ اَنَّ ٱلْعَرَبَ يَلْتَجِئُونَ إِلَى ٱلْكِنَايَةِ إِذَا مَا اَرَادُوا ٱلتَّعْرِيضَ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ فَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْأَعوَرِ بِٱلْمُمَتَّعِ . وَعَنِ ٱلَّذِي فِي عَيْنَيْهِ نُكْتَةُ بَيَاضٍ بِٱلْمُكَوْكَبِ . وَعَمَّنْ فِي وَجْهِهِ اَثَرُ ضَرْبَةٍ بِٱلْمُشَطَّبِ . وَلِبَعْضِهِمْ فِي اَبْرَصَ :

اَخُو لَخْمٍ اَعَارَكَ مِنْهُ ثَوْبًا ... هَنِيئًا بِٱلْقَمِيصِ ٱلْمُسْتَجَدِّ

اَرَادَ بِاَخِي لَخْمٍ جَذِيمَةَ ٱلْأَبْرَصَ . وَلِلصَّاحِبِ فِي ٱلْجَرَبِ :

اَبَا ٱلْعَلَاءِ هِلَالُ ٱلْهَزْلِ وَٱلْجِدِّ ... كَيفَ ٱلنُّجُومُ ٱلَّتِي يَطْلُعْنَ فِي ٱلْجِلْدِ

وَيُكَنَّى عَنِ ٱلْحَوَلِ بِٱلتَّأَخُّرِ . قَالَ ٱلدُّؤَلِيُّ :

بِيضُ ٱلْمَطَابِخِ لَا تَشْكُو إِمَاؤُهُمُ ... طَبْخَ ٱلْقُدُورِ وَلَا غَسْلَ ٱلْمَنَادِيلِ

قَالَ آخَرُ :

ثِيَابُ طَبَّاخٍ إِذَا ٱتَّسَخَتْ ... اَنْقَى بَيَاضًا مِنَ ٱلْقَرَاطِيسِ

وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ ٱلْخُوَارَزْمِيُّ :

فَتًى مُخْتَصِرُ ٱلْمَأْكُو ... لِ وَٱلْمَشْرُوبِ وَٱلْعِطْرِ

نَقِيُّ ٱلْكَأْسِ وَٱلْقَصْعَةِ ... مِ وَٱلْمِنْدِيلِ وَٱلْقِدْرِ

وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْجَاهِلِ بِاَنَّهُ مِنَ ٱلْمُسْتَرِيحِينَ . وَيُرْوَى اَنَّ خِلَافًا وَقَعَ بَيْنَ بَعْضِ ٱلْخُلَفَاءِ وَبَيْنَ نَدِيمٍ لَهُ فِي مَسْأَلَةٍ . فَٱتَّفَقَا عَلَى رَأْيِ بَعْضِ اَهْلِ ٱلْعِلْمِ فَأُحْضِرَ . فَوَجَدَ ٱلْخَلِيفَةَ مُخْطِئًا فَقَالَ : ٱلْقَائِلُونَ

بِقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ اَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنْصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ إِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْأُطْرُوشُ إِذَا خَاطَبَهُ اَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ : اِرْفَعْ صَوْتَكَ فَإِنَّ بِأُذُنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ إِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ اَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ اقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : اَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ اَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِأَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ) . وَيَقُولُونَ اَيْضًا : فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانٍ . (وَمِيزَانٌ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ) . وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ مَلُولًا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى . وَإِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْإِيمَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَإِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْأَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى اَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَإِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ اَحَذُّ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ اَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَإِذَا كَانَ قَمِلَ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيْسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ. قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يُكْرَمْ
أَنْتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ   فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ   وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْأَحْيَاءِ وَجِهَازُ ٱلْمَوْتَى. وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ ٱلْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ ٱلْبَقْلِ. وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ. وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ   بِرَحْمَةِ ٱللهِ أَيُّمَا رَجُلِ
أَبُوكَ أَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَهُ   كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ   مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ   لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ. وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنْسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا   فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللّٰهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ   فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ :

شِمتُ بَرقَ ٱلوَزيرِ فَٱنهَلَّ حَتَّى ... لَم أَجِدْ مَهرَبًا إِلَى ٱلأَقدامِ
فَكَأَنّي وَقَدْ تَقَاصَرَ بَاعِي ... خَابِطٌ فِي عُبَابِ أَخضَرَ طَامِي

يَعنِي ٱلبَحرَ. وَقَالَ ٱلحَجَّاجُ لِأَبنِ ٱلقَبعثَرِيِّ: لَأَحمِلَنَّكَ عَلَى ٱلأَدهَمِ. يَعنِي ٱلقَتلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيهِ وَقَالَ: مِثلُ ٱلأَمِيرِ يَحمِلُ عَلَى ٱلأَدهَمِ وَٱلأَشهَبِ. يُرِيدُ ٱلخَيلَ. وَمِنْ ذٰلِكَ: أَنَّ ٱلمَنصُورَ كَانَ فِي بُستَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي أَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ إِبرَاهِيمَ بْنَ عَبدِ ٱللهِ بْنِ ٱلحَسَنِ وَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. فَقَالَ: طَاعَةٌ يَا أَمِيرَ ٱلمُؤمِنِينَ. فَتَفَاءَلَ ٱلمَنصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ. وَمِثلُ ذٰلِكَ: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ. فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ لِلفَضلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ: مَا ذَاكَ. فَقَالَ: عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا أَمِيرَ ٱلمُؤمِنِينَ. وَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ ٱلخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ. وَمِنْ كَلَامِ ٱلعَرَبِ أَيضًا فِي هٰذَا ٱلبَابِ قَولُهُمْ: فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوبِ. يُرِيدُونَ بِهِ أَنَّهُ لَا عَيبَ فِيهِ وَلَيسَ بِمَوضُوعِ نَقَاءِ ٱلثَّوبِ ٱلبَرَاءِ مِنَ ٱلعَيبِ وَإِنَّمَا ٱستُعمِلَ فِيهِ تَمثِيلًا. وَقَالَ ٱمرُؤُ ٱلقَيسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وَأَوجُهُهُمْ عِندَ ٱلمَشَاهِدِ غُرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَولُهُمْ: فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوبِ. يُرِيدُونَ أَنَّهُ لَيسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ. وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوبِ إِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَولُهُمْ: طَيِّبُ ٱلحُجزَةِ أَيْ عَفِيفٌ. قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى:

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يُحَيَّوْنَ بِٱلرَّيحَانِ يَومَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلأَصمَعِيُّ: إِذَا قَالَتِ ٱلعَرَبُ: ٱلثَّوبَ وَٱلإِزَارَ. فَإِنَّهُمْ

يُرِيدُونَ ٱلبَدَنَ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ أَوْسَعُ بَنِي أُمَيَّةَ ثَوْبًا . أَيْ أَكْثَرُهُمْ مَعْرُوفًا . وَفُلَانٌ غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا كَانَ كَثِيرَ ٱلْمَعْرُوفِ . قَالَ كُثَيِّرٌ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا   غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ رَحْبُ ٱلذِّرَاعِ . وَمِنَ ٱلْكِنَايَاتِ ٱللَّطِيفَةِ مَا ذَكَرَهَا ٱلْأُدَبَاءُ فِي ٱلشَّيْبِ وَٱلْكِبَرِ . فَيَقُولُونَ : عَرَضَتْ لِفُلَانٍ فَتْرَةٌ . عَرَضَ لَهُ مَا يَمْحُو ذُنُوبَهُ وَيُكَفِّرُ سَيِّئَاتِهِ . أَقْمَرَ لَيْلُهُ نَوَّرَ غُصْنُ شَبَابِهِ . فَضَّضَ ٱلزَّمَانُ آبْنُوسَهُ . وَجَاءَهُ ٱلنَّذِيرُ . وَقَرَعَ نَاجِذَ ٱلْحِلْمِ . وَٱرْتَاضَ بِلِجَامِ ٱلدَّهْرِ . أَدْرَكَ زَمَانَ ٱلْحُنْكَةِ . رَفَضَ غِرَّةَ ٱلصِّبَى وَلَبَّى دَاعِيَ ٱلْحِجَى . وَمِنْ كِنَايَاتِهِمْ عَنِ ٱلْمَوْتِ : ٱسْتَأْثَرَ ٱللّٰهُ بِهِ . أَسْعَدَهُ ٱللّٰهُ بِجِوَارِهِ . نَقَلَهُ إِلَى دَارِ رِضْوَانِهِ . وَمَحَلِّ غُفْرَانِهِ . إِنْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ وَٱنْقَلَبَ إِلَى مَحَلِّ عَفْوِهِ . إِخْتَارَ لَهُ ٱلنُّقْلَةَ مِنْ دَارِ ٱلْبَوَارِ إِلَى دَارِ ٱلْأَبْرَارِ

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعة الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

اَلْمُبَالَغَةُ نَوْعٌ مَعْدُودٌ مِنْ مَحَاسِنِ فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ : أَحْسَنُ ٱلشِّعْرِ أَكْذَبُهُ . وَبِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ : أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ مَنِ ٱسْتُجِيدَ كَذِبُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعُدَّ

ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ:

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْساً وَإِنْ حُمُقَا

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ. لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلِٱسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ. وَقَالُوا: رُبَّمَا إِنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلِٱمْتِنَاعِ. وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلِٱسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ. وَٱلَّذِي أَقُولُهُ: إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ. وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ. وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ. وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ. وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى. وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرِكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلَ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ. (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عَادَةً . (وَٱلْاغْرَاقُ) وَصفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً .
(وَٱلْغُلُوُّ)وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ.وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ
ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ اوَّلًا انَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى
وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ :
هِيَ انْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْاحْوَالِ لَوْ وُقِفَ عِنْدَهَا لَاجْزَاتْ
فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ ابْلَغَ مِنْ مَعْنَى قَصْدِهِ
كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلتَّغْلِبِيِّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : اِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ احْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَاِنَّ
ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ اِلَى اقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ اِلَى
اكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَاطَاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ
قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى اِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ ابْنُ
رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ اقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ
ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَجُلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْامْكَانُ
وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا انَّهَا ضَرْبٌ مِنَ
ٱلْمَحَاسِنِ اِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْاغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَاِنْ كَانَ ٱلْاغْرَاقُ
وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ انْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ
عُلَمَاؤُهُ انَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلْالْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنَ
امْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

اضَاءَتْ لَهُمْ احْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ

فَٱلْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا ٱنْتَهَى فِي بَيْتِهِ اِلَى قَوْلِهِ : دُجَى ٱللَّيْلِ وَلٰكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ اَبْلَغُ وَاَبْدَعُ وَاَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَاَصْرَعُ اَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ   وَاَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ اَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاَصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ : اَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ ٱلْحَمَاسَةِ اِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِٱلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ   وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ   وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَٱنْظُرْ مَا اَحْلَى ٱحْتِرَاسَهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَٱنْظُرْ كَيْفَ اَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِاَنْ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ اَخْرَجَ بَقِيَّةَ ٱلْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ اِلَيَّ عَارِفَةً   حَتَّى اَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ ٱلْحَكَمِ ٱلْخُضَرِيِّ :

وَاَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَاَبْخَلُ بِٱلْقِرَى
مِنَ ٱلْكَلْبِ اَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ اَعْجَفُ

فَٱلْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ اَشَدُّ بُخْلًا اِذَا كَانَ جَائِعًا اَعْجَفَ اَمَّا (ٱلْاِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَلٰكِنَّهُ دُونَ ٱلْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلْأَصْطِلَاحِ اِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَقَ بَيْنَهُمَا. وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْاِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ انَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ. وَكُلٌّ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِلَّا اِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ اِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلْاِحْتِمَالِ. (وَلَوْلَا) لِلْاِمْتِنَاعِ. (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ. وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ مِنَ اَنْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ. وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ اِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلْاِسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْاِمْكَانِ مِثْلُ: (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ: يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْاَبْصَارَ. اِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ اَنَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْاَبْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً. وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا اِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ). وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ اِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلْاِمْتِنَاعِ اِلَى ٱلْاِمْكَانِ. وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْاِغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِاَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ اَيْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي اَظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْاِغْرَاقِ

وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْاَنْفِ:

لَكَ اَنْفٌ يَا ٱبْنَ حَرْبٍ اَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْاُنُوفُ
اَنْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيماً :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا ... وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ بُرْغُوثاً عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ ... يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ اُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا ... مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَاَسْتَظَلَّتِ
وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْماً تَمِيمٌ جُمُوعُهَا ... عَلَى ذُرْوَةٍ سَخَالَةٍ لَاَسْتَقَلَّتِ

اَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْاِغْرَاقِ فَاِنَّهُ ٱلْاِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلًا وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ اِلَى قِسْمَيْنِ : مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُولُ لَا بُدَّ اَنْ يُقَرِّبَهُ ٱلنَّاظِمُ اِلَى ٱلْقَبُولِ بِاَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللَّهُمَّ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ اَنْ يَسْبِكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخَيُّلَاتِ ٱلْمُحَسَّنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ اِلَى قَبُولِهَا فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَاِنَّ اِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولًا . وَمِنْهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ... تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا
تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ ... تَجِدُّ اِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ ... لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ اِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ اَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً اِلَّا اِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى اِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَامَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ اَبِي نُوَّاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا اِلَى مَوْضِعِ ٱلْاَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ اَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فَيَطَّلِعَ نُدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : اِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَّافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ اِلَى اَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا اِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْاَفْهَامُ عَنْ اِدْرَاكِهِ مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْاَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَاَنِّي دَحَوْتُ ٱلْاَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَاَنِّي بَنَى ٱلْاِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي اِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْاِطَالَةُ لَاَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَاَبِي

---

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليه عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُؤَاسٍ وَٱبْنِ هَانِئٍ ٱلاَنْدَلُسِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَابِي ٱلعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُتَاخِّرِينَ كَٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ . وَفِي مَا قَدَّمْنَا كِفَايَةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنْ مَقَاتِلِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ ٱلْمَأْخَذِ وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْآخَرُ يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ . فَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ اَسْرِعْ . وَامَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فَكَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلاَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ. وَكُلٌّ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ يَنْقَسِمُ اِلَى مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . وَمَقْصُودِي مِنَ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِمَعْنًى . وَغَيْرِ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِغَيْرِ مَعْنًى . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْمُفِيدَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ تَأْكِيدًا وَتَشْدِيدًا مِنْ اَمْرِهِ. وَاِنَّمَا يُفْعَلُ ذٰلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي كَرَّرْتَ فِيهِ كَلَامَكَ اِمَّا مُبَالَغَةً فِي مَدْحِهِ اَوْ فِي ذَمِّهِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ. وَلَا يَأْتِي اِلَّا فِي اَحَدِ طَرَفَيِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلذِّكْرِ . وَٱلْوَسَطُ عَارٍ مِنْهُ لِاَنَّ اَحَدَ ٱلطَّرَفَيْنِ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلْمُبَالَغَةِ اِمَّا بِمَدْحٍ اَوْ ذَمٍّ اَوْ غَيْرِهِمَا وَٱلْوَسَطُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْمُبَالَغَةِ . وَغَيْرُ ٱلْمُفِيدِ لَا يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَيْهِ

(فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلْأَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُهُ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمَانَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلْخَلْقِ وَٱلْعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلْآخِرَةِ إِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلْأَوَّلِ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ ٱلْغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللهُ مَا أَشْجَعَهُ أَوْ مَا أَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

أَلَا يَا أَسْلَمِي ثُمَّ أَسْلَمِي ثُمَّتَ أَسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَإِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلْمَعْنَى مُضَافًا إِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفْظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلْكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلْعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ   وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِقلُ هُوَ ٱلعِبءُ وَٱلعِبءُ هُوَ ٱلثِقلُ . وَرُبَّمَا اَشكَلَ هٰذَا ٱلمَوضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتعَاطَى هٰذِهِ ٱلصِنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ ٱلتَأكِيدُ لِلمَعْنَى ٱلمَقصُودِ وَٱلمُبَالَغَةُ فِيهِ . اَمَّا ٱلمُرَادُ بِقَولِهِ : (عَذَابٌ مِنْ رِجزٍ) اَيْ عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ . وَاَمَا بَيتُ اَبِي تَمَّامٍ فَاِنَّهُ تَضَمَّنَ ٱلمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلمَمْدُوحِ بِحَمْلِهِ لِلاَنْقَالِ . وَهٰذَا ٱلمَوضِعُ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيهِ اَحَدٌ سِوَايَ . وَلَرُبَّمَا اُدْخِلَ فِي ٱلتَّكرِيرِ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوعِ مَا لَيسَ مِنهُ . فَمِنهُ قَولُهُ : ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعدِ ذٰلِكَ وَاَصلَحُوا اِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . فَلَمَّا تَكَرَّرَ اِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَينِ عُلِمَ اَنَّ ذٰلِكَ اَدَلُّ عَلَى ٱلمَغفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ ٱلاَقوَالُ يُظَنُّ اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلتَّكرِيرِ وَلَيسَتْ كَذٰلِكَ . وَقَدْ اَنعَمتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَاَيتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكمِ ٱلتَّكرِيرِ وَذَاكَ اِنَّهُ اِذَا طَالَ ٱلفَصْلُ مِنَ ٱلكَلَامِ وَكَانَ اَوَّلُهُ يَفتَقِرُ اِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفهَمُ اِلَّا بِهِ فَٱلاَولَى فِي بَابِ ٱلفَصَاحَةِ اَنْ يُعَادَ ٱللَّفظُ ٱلاَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ ٱلفَصْلِ كَيْ لَا يَجِيءَ ٱلكَلَامُ مَنثُورًا لَا سِيَّمَا فِي (اِنَّ وَاَخَوَاتِهَا) . فَاِذَا وَرَدَتْ (اِنَّ) وَكَانَ بَينَ اَسمِهَا وَخَبَرِهَا فُسحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ ٱلكَلَامِ فَاِعَادَةُ (اِنَّ) اَحسَنُ فِي حُكمِ ٱلبَلَاغَةِ وَٱلفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعَلَيهِ وَرَدَ قَولُ بَعضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلحَمَاسَةِ :

اَ بِجنَّا وَقَيدًا وَاَشتِيَاقًا وَغُربَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ اِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَاِنَّ ٱمرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيتُهُ لَكَرِيمُ

فإنه لما طال الكلام بين اسم (إنّ) وخبرها أعيدت (إنّ) مرة ثانية لأنّ تقدير الكلام: وإنّ امرءا دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم. لكن بين الاسم والخبر مدى طويل فإذا لم تعد (إنّ) مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة. وهذا لا يتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً. وكذلك يجري الأمر إذا كان خبر (إنّ) عاملاً في معمول يطول ذكره فإن إعادة الخبر ثانية هو الأحسن. وعلى هذا جاء قوله في سورة يوسف إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. فلما قال: إني رأيت ثم طال الفصل كان الأحسن أن يعيد لفظ (الرؤية) فيقول: رأيتهم لي ساجدين. ومن باب (التكرير في اللفظ والمعنى) الدال على معنى واحد قوله: وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد. يا قوم إنّ هذه الدنيا متاع وإنّ الآخرة هي دار القرار. فإنه إنما كرر نداء قومه ها هنا لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سنة الغفلة ولأنهم قومه وعشيرته فيتحزن لهم ويتلطف بهم فيستدعي بذلك أن ينزلوا على نصيحته. وهذا في التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز وأشد موقعاً من الاختصار. ومما ورد من هذا النوع شعراً قول بعض شعراء الحماسة:

إلى معدن العز المؤثّل والندى   هناك هناك الفضل والخلق الجزل

فقوله: هناك هناك من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز

لِأَنَّهُ فِي مَعْرِضِ مَدْحٍ فَهُوَ يُقَرِّرُ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ مَا عِنْدَ ٱلْمَمْدُوحِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافِ ٱلْمَذْكُورَةِ مُشِيرًا إِلَيْهَا كَأَنَّهُ قَالَ : ادُلُّكُمْ عَلَى مَعْدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْمُسَاوِرِ ٱبْنِ هِنْدٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... إِذَا حَدَثَانُ ٱلدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ

فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ ... عَلَيَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَعَجُزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لِأَنَّ تَلَاحُمَ ٱلْكُرَبِ عَلَيْهِ كَتَعَالِي ٱلْمَوْجِ مِنْ فَوْقِهِ . وَإِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ مَقَامُ مَدْحٍ وَإِطْرَاءٍ أَلَا تُرَى أَنَّهُ يَصِفُ إِحْسَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ حِدْثَانِ دَهْرِهِ فِي ٱلتَّكْرِيرِ . وَفِي قُبَالَتِهِ لَوْ كَانَ ٱلْقَائِلُ هَاجِيًا فَإِنَّ ٱلْهِجَاءَ فِي هٰذَا كَٱلْمَدْحِ . (اَلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَرْوَانَ ٱلْأَصْغَرِ :

سَقَى ٱللهُ نَجْدًا وَٱلسَّلَامُ عَلَى نَجْدٍ ... وَيَاحَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى ٱلْقُرْبِ وَٱلْبُعْدِ

نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا ... لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهَيْهَاتَ مِنْ نَجْدِ

وَهٰذَا مِنَ ٱلْعِيِّ ٱلضَّعِيفِ فَإِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ نَجْدٍ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي ٱلْأَوَّلِ ٱلثَّنَاءُ عَلَى نَجْدٍ . وَفِي ٱلثَّانِي أَنَّهُ تَلَفَّتَ إِلَيْهِ نَاظِرًا مِنْ بَغْدَادَ وَذٰلِكَ مَرْمًى بَعِيدٌ . ٱلْمَعْنَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ . أَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ فَيُحْمَلُ عَلَى ٱلْجَائِزِ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِأَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوْجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجْدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ أُجِيزَ فِيهِ ٱلتَّكْرِيرُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ

يُسوِّغ هذا ٱلمعنى ٱلوارِدَ فِي ٱلبيتَينِ مَعًا مِنْ غَيرِ أنْ يأتِيَ بِهذا ٱلتَّكريرِ ٱلمُتتابِعِ سِتَّ مرَّاتٍ . وعلى هٰذا ٱلأسلوبِ ورَدَ قولُ أبي نُوَاس :

أقمنا بها يومًا ويومًا وثالثًا ويومًا لهُ يومُ ٱلترحّلِ خامِسُ

ومُرادُهُ مِنْ ذٰلكَ أنَّهم أقامُوا بِها أربعةَ أيّامٍ . ويا عجبًا لهُ بِمِثلِ هٰذا ٱلبيتِ ٱلسَّخيفِ ٱلدالِّ على ٱلعِيِّ ٱلفاحِشِ فِي ضِمنِ أبياتٍ عجيبةِ ٱلحُسنِ تتقدَّمُ هٰذا ٱلبيتَ . ومِنْ هٰذا ٱلبابِ أيضًا قولُ أبي ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتنبِّي :

ولمْ أرَ مِثلَ جيرانِي ومِثلِي لِمِثلِي عِندَ مِثلِهِمِ مَقامُ

فهذا هو ٱلتَّكريرُ ٱلفاحِشُ ٱلَّذِي يُؤثِّرُ فِي ٱلكلامِ نقصًا . ألا ترى أنَّهُ يقولُ : لمْ أرَ مِثلَ جِيرانِي فِي سُوءِ ٱلجِوارِ ولا مِثلِي فِي مُصابرَتِهِمْ ومُقامِي عِندَهُمْ . إلَّا أنَّهُ قدْ كرَّرَ هٰذا ٱلمعنى فِي ٱلبيتِ مرَّتينِ . وعلى نحوٍ مِنْ ذٰلكَ جاءَ قولُهُ :

وقَلقلتُ بِٱلهمِّ ٱلَّذِي قلقلَ ٱلحشَى قلاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قلاقِلُ

(وأمَّا ٱلقِسمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكريرِ وهُوَ ٱلَّذِي يُوجدُ فِي ٱلمعنى دُونَ ٱللَّفظِ) فذٰلكَ ضربانِ : مُفيدٌ وغيرُ مُفيدٍ . (ٱلضَّربُ ٱلأوَّلُ) ٱلمُفيدُ وهُوَ فرعانِ : (ٱلأوَّلُ) إذا كانَ ٱلتَّكريرُ فِي ٱلمعنى يدلُّ على معنيينِ مُختلفينِ وهُوَ موضعٌ مِنَ ٱلتَّكريرِ مُشكِلٌ لِأنَّهُ يسبِقُ إلى ٱلوهمِ أنَّهُ تكريرٌ يدلُّ على معنًى واحِدٍ وهُوَ ليسَ كذٰلِكَ . . . بلْ يُقصدُ بِهِ ٱلتَّأكيدُ وٱلتَّقريرُ وٱلتَّنصُّلُ عمَّا يُرمى بِهِ ٱلمُتكلِّمُ . وممّا

يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلْآخَرُ عَامٌّ. كَقَوْلِهِ: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱللّٰهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ. لِأَنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ أَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ أَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ. وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْخَيْرَ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْأَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ. فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا أَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ. وَكَقَوْلِهِ: حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى. وَكَقَوْلِهِ: فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ. وَكَقَوْلِهِ: إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا. فَإِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْأَرْضِ. لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْأَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ. وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْأَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا... وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ أَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ. (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ. وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي أَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ: أَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي. فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ. وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا. وَلَا نَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ: إِنَّ مِنْ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلْعفْوَ وَٱلصَّفْحَ وَٱلْمَغْفِرَةَ وَٱلْجَمِيعُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلزِّيَادَةِ فِي تَحْسِينِ عَفْوِ ٱلْوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذَا وَامْثَالُهُ يُنْظَرُ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكْرِيرُ فِيهِ اَوْجَزُ مِنْ لَمْحَةِ ٱلْايجَازِ وَاوْلَى بِٱلْاسْتِعْمَالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي اَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

نَزَلْتُ عَلَى آلِ ٱلْمُهَلَّبِ شَاتِيًا ... بَعِيدًا عَنِ ٱلْاَوْطَانِ فِي زَمَنِ ٱلْمَحْلِ
فَمَا زَالَ بِي اِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ ... وَاِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمُ اَهْلِي

فَاِنَّ ٱلْاِكْرَامَ وَٱلْاِفْتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحْتَ ٱلْاِحْسَانِ وَاِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنْوِيهِ بِذِكْرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلْايجَابِ لِحَقِّهِ . (اَلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكْرِيرِ ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصَّبَا ... وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا اَثْلَاثَا

فَاِنَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلْقَبُولِ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ خَبْطًا كَثِيرًا وَٱلْاَكْثَرُ مِنْهُمْ اَجَازَهُ . فَقَالُوا : اِذَا كَانَتِ ٱلْاَلْفَاظُ مُتَغَايِرَةً وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُعَبَّرُ عَنْهُ وَاحِدًا فَلَيْسَ ٱسْتِعْمَالُ ذٰلِكَ بِعَيْبٍ . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ اَنَّ ٱلنَّاثِرَ يُعَابُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِهِ مُطْلَقًا اِذَا اَتَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَاَمَّا ٱلنَّاظِمُ فَاِنَّهُ يُعَابُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ . اَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَاَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلْاَعْجَازُ مِنَ ٱلْاَبْيَاتِ لِمَكَانِ ٱلْقَافِيَةِ . وَاِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيْبًا لِاَنَّهُ قَافِيَةٌ

وَٱلشَّاعِرُ مُضطَرٌّ إِلَيهَا وَٱلْمُضطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيهِ كَقَولِ ٱمرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي قَصِيدَتِهِ ٱللاَّمِيَّةِ ٱلَّتِي مَطلَعُهَا :

أَلَا ٱنْعَمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وَإِذَا كَانَ قَلِيلَ ٱلْهُمُومِ فَإِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالٍ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ لَيسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَولُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

قَالَتْ إِمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْعَزَاءَ وَإِنَّ ٱلصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا

هَلَّا ٱلْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً مَالًا نَعِيشُ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مَعِيبٌ لِأَنَّهُ كَرَّرَ ٱلْعَزَاءَ وَٱلصَّبْرَ إِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِأَنَّ ٱلْقَافِيَةَ هِيَ ٱلْبَاءُ . وَأَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي فَلَيسَ بِمَعِيبٍ لِأَنَّ ٱلتَّكْرِيرَ جَاءَ فِي ٱلنَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَطْلَقُوا أَعِنَّةَ ٱلْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ ٱلتَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمُ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلْعَقْدُ عَلَى أَحَدِ ٱلشَّيْئَيْنِ

يسدُّ احدُهما مسدَّ ٱلآخرِ في حالٍ. وهٰذا هُوَ ٱلتَّشبيهُ ٱلعامُّ ٱلَّذي يدخلُ تحتَهُ ٱلتَّشبيهُ ٱلبليغُ وغيرُهُ . وٱلتَّشبيهُ ٱلبليغُ هُوَ اخراجُ ٱلاغمضِ الى ٱلاوضحِ مع حُسنِ ٱلتَّأليفِ . ومِنهُم مَن قالَ : ٱلتَّشبيهُ هُوَ ٱلدَّلالةُ على اشتراكِ شيئَيْنِ في وصفٍ هو مِن اوصافِ ٱلشَّيْءِ ٱلواحدِ . وقالَ ٱبنُ رشيقٍ في ٱلعمدةِ : ٱلتَّشبيهُ صفةُ ٱلشَّيْءِ بما قاربَهُ وشاكلَهُ مِن جهةٍ واحدةٍ لانَّهُ لو ناسبَهُ مناسبةً كلّيةً كانَ اياهُ . الا ترى الى قولِهم : خدٌّ كالوردِ انَّما مرادُهم احمرارُ اوراقِهِ وطراوتُها لا ما سوى ذلكَ مِن صُفرةِ وسطِهِ وخضرةِ كمائمِهِ (اه) . وقيلَ : ٱلتَّشبيهُ الحاقُ ادنى ٱلشَّيئَيْنِ باعلاهُما في صفةٍ اشتركا في اصلِها وٱختلفا في كيفيَّتِها قوَّةً وضعفًا . قلتُ : وهٰذا حدٌّ مفيدٌ . واوردَ ٱبنُ ابي ٱلاصبعِ في كتابِهِ تحريرِ ٱلتَّحبيرِ حدًّا زادَ في حُسنِهِ على ٱلحدِّ وهُوَ : أنَّ ٱلتَّشبيهَ تشبيهانِ (ٱلاوَّلُ) منهُما تشبيهُ شيئَيْنِ متَّفقَيْنِ بانفسِهما كتشبيهِ ٱلجوهرِ بٱلجوهرِ مثلُ قولِكَ : ماءُ ٱلنِّيلِ كماءِ ٱلفراتِ . وتشبيهِ ٱلعرضِ بٱلعرضِ كقولِكَ : حُمرةُ ٱلخدِّ كحُمرةِ ٱلوردِ . وتشبيهِ ٱلجسمِ بٱلجسمِ كقولِكَ : ٱلزَّبرجدُ مثلُ ٱلزُّمرُّدِ . (وٱلثَّاني) تشبيهُ شيئَيْنِ مختلفَيْنِ بٱلذَّاتِ يجمعُهما معنًى واحدٌ مشتركٌ . كقولِكَ : حاتمٌ كٱلغمامِ وعنترةُ كٱلضِّرغامِ . وتشبيهُ ٱلاتِّفاقِ وهُوَ ٱلاوَّلُ تشبيهٌ حقيقيٌّ . وتشبيهُ ٱلاختلافِ وهُوَ ٱلثَّاني تشبيهٌ مجازيٌّ وٱلمرادُ ٱلمبالغةُ . وٱلتَّشبيهُ رُكنٌ مِن اركانِ ٱلبلاغةِ لاخراجِهِ ٱلخفيَّ الى ٱلجليِّ وادنائِهِ ٱلبعيدَ مِنَ ٱلقريبِ . وهُوَ حُكمٌ اضافيٌّ لا يوجدُ الَّا بينَ ٱلشَّيئَيْنِ بخلافِ ٱلاستعارةِ وليسَ ٱلحُكمُ

اَنَّهُ اِذَا صَحَّتِ ٱلْاِسْتِعَارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَاِنَّ ٱلْمُشَابَهَةَ اِذَا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلْاِسْتِعَارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَا تَقُولُ : كَاَنَّكَ اَوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ اِذَا اَوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْاَلَةَ فَكَاَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي اَوْ كَاَنَّ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي. لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ حَتَّى كَاَنَّهَا صَارَتْ حَقِيقِيَّةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائدهِ

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ اَنَّ لِلتَّشْبِيهِ اَدَوَاتٍ كَنَحْوِ وَكَاَنَّ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا اُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةُ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا اَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ ... وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ

كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْرِ م ... وَيُفْنِي فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابَهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْاَحْنَفِ :

لَا جَزَى ٱللّٰهُ دَمْعَ عَيْنَيَّ خَيْرًا ... وَجَزَى ٱللّٰهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي

نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا ... وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ

كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ اَخْفَاهُ طَيٌّ ... فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمضمرِ ٱلاداةِ) قولُهُ : وَجَعلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً . فشبَّهَ ٱللَّيلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ انَّهُ يستُرُ ٱلنَّاسَ بعضهم عن بعضٍ لِمَنْ ارادَ هرباً مِنْ عدوٍّ او ثَبَاتاً لعدوٍّ او اخفاءَ لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلاطِّلَاعَ عَلَيْهِ مِنْ امرِهِ وَقَدْ وردَ فِي ٱلامثالِ مثلُهُ : ٱللَّيْلُ جُنَّةُ ٱلْهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْراً قَولُ ابي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمتنبّي :

وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْراً وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا
وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْساً وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمضمرِ ٱلْأَدَاةِ . وَإِنَّ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهَ ابلغُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاداةِ وَاوجزُ . اما كَوْنُهُ ابلغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمشبهِ مُشَبَّهاً بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ اداةٍ فيكُونُ هُوَ اِيَّاهُ . فَإِنَّكَ اذا قُلْتَ : زَيْدٌ اسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جعلْتَهُ اسَداً مِنْ غَيْرِ اظهارِ اداةِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَامَّا كَوْنُهُ اوجزَ فلحذفِ اداةِ ٱلتَّشْبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضْمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِنَا : زَيْدٌ اسَدٌ . انْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيْدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلْاقْدَامِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . اِلَّا انَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئاً نَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ سِوَى انْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهاً بِٱلْاسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُخْتَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اكْشَفَ وَابْيَنَ مِنْ انْ لَوْ قُلْنَا : زَيْدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءُ ٱلْجَنَانِ وَاشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ اعْنِي ٱلْاسَدَ . وَامَّا زَيْدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيْسَ مَعْرُوفاً بِهَا

وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيضاً يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإِيجَازِ وَإِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَٱلْأَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. فَٱلتَّشْبِيهُ إِذاً يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ: ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلْبَيَانُ. وَٱلْإِيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ. إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعَرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ. وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ. فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ. لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ: أَنَّكَ إِذَا مَثَّلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْخَيَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَيِ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتاً فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَناً يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ إِذَا أَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتاً فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحاً يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ. وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ: قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ:

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ ٱلنَّحْلِ تَمْدَحُهُ   وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ ٱلزَّنَابِيرِ

أَلَا تَرَى كَيْفَ مَدَحَ وَذَمَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِتَصْرِيفِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمَجَازِيِّ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ ٱلَّذِي خَيَّلَ بِهِ إِلَى ٱلسَّامِعِ خَيَالًا يُحَسِّنُ ٱلشَّيْءَ عِنْدَهُ تَارَةً وَيُقَبِّحُهُ أُخْرَى. وَلَوْلَا ٱلتَّوَصُّلُ بِطَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ لَمَا أَمْكَنَهُ ذٰلِكَ. وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ كَافٍ فِيمَا أَرَدْنَاهُ. وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يَجِيءَ مَصْدَرِيًّا كَقَوْلِنَا: أَقْدَمَ إِقْدَامَ ٱلْأَسَدِ وَفَاضَ فَيْضَ ٱلْبَحْرِ. وَهُوَ أَحْسَنُ مَا ٱسْتُعْمِلَ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ. كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ فِي وَصْفِ ٱلْخَمْرِ:

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا   وَثَبَتْ وَثْبَ ٱلْجَرَادْ

وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا   أَخَذَتْ أَخْذَ ٱلرُّقَادْ

وَقِيلَ: إِنَّ مِنْ شَرْطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ وَأَعْظَمُ. وَٱلْقَوْلُ ٱلسَّدِيدُ فِي ذٰلِكَ هُوَ مَا أَذْكُرُهُ: وَهُوَ أَنَّ إِطْلَاقَ مَنْ أَطْلَقَ قَوْلَهُ فِي أَنَّ مِنْ شُرُوطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلْأَصْغَرُ بِٱلْأَكْبَرِ قَوْلٌ غَيْرُ حَاصِرٍ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ. لِأَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ يَأْتِي تَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ وَتَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ. وَتَارَةً فِي غَيْرِ مَعْرِضِ مَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ. وَإِنَّمَا يَأْتِي قَصْدًا لِلْإِبَانَةِ وَٱلْإِيضَاحِ. وَلَا يَكُونُ تَشْبِيهُ أَصْغَرَ بِأَكْبَرَ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَنْ ذَهَبَ. بَلِ ٱلْقَوْلُ ٱلْجَامِعُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ لَا يُعْمَدُ إِلَيْهِ إِلَّا لِضَرْبٍ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا أَوْ بَيَانًا أَوْ إِيضَاحًا وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةِ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفظَةِ اَفْعَلَ (يُرِيدُ افعلَ ٱلتَّفضِيلِ) . فَإِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفظَةُ (اَفْعَلَ) فَلَيْسَ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ . اَلَا تَرَى اَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضمَرِ ٱلْاَدَاةِ : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلْاَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ اَشْجَعُ مِنْهُ . فَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ اَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَإِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا إِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْاَعْلَامِ . وَهٰذَا تَشْبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ . لِأَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ اَكْبَرُ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ : إِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ اَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا : إِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَقْبَحَ وَإِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْإِيضَاحُ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَبْيَنَ وَاَوْضَحَ . فَتَقْدِيرُ لَفظَةِ (اَفْعَلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ) : اَلْاَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا إِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْاُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبصرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ .وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . اَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ .وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُثْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ. اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْأَخْلَاقِ . اَوْ فِي حَالَةٍ اِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ اَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : أَلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ اِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُرْشُبِ ٱلْأَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدرَى اَيْنَ طَرَفَاهَا . فَاِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ اِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا اَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ اَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَأَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَأَنَّهَا نُجُومٌ . وَاِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْأَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيِّتٍ لَيْسَ فِيهِ أَمَلٌ يُرتَجى لِنَفعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحتَ ٱلتُّرَابِ وَفَوقَ ٱلأَرْضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(ٱلثَّالِثُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (ٱلرَّابِعُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ ٱلْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ ٱلْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ : مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا. فَإِذَا كَانَ ٱلْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا . وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلشَّمْسِ بِٱلظُّهُورِ وَٱلْمِسْكِ بِٱلثَّنَاءِ فَقَالَ : ٱلشَّمْسُ كَٱلْحُجَّةِ فِي ٱلظُّهُورِ . وَٱلْمِسْكُ كَٱلثَّنَاءِ فِي ٱلطِّيبِ . كَانَ سَخِيفًا مِنَ ٱلْقَوْلِ . فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي ٱلْأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ ٱلْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَٱلْأَصْلِ ٱلْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ ٱلتَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ . وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَكَأَنَّ ٱلنُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ٱبْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ ٱلسُّنَّةِ بِٱلْبَيَاضِ وَٱلْإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ : أَتَيْتُكُمْ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا . وَٱشْتَهَرَتِ ٱلْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِٱلظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ ٱلشَّاعِرُ أَنَّ ٱلسُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ ٱلْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلَّتِي لَهَا ٱخْتِصَاصٌ بِٱلسَّوَادِ وَٱلظُّلْمَةِ. فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ ٱلتَّشْبِيهُ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا . ثُمَّ

يُتخَيَّلُ اصلًا فيُشَبَّهُ بِهِ. وهٰذا هُوَ ٱلتَّأوِيلُ فِي قَولِ ابِي طالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَٱلظَّلَامُ كَأَنَّهُ ۞ يَوْمُ ٱلنَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَرْفُقِ

فَإِنَّهُ لَمَّا كانَتِ ٱلأَوْقَاتُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ٱلمَكَارِهُ تُوصَفُ بِٱلسَّوادِ (يُقَالُ: ٱسْوَدَّتِ ٱلدُّنْيا فِي عَيْنَيْهِ). جَعَلَ يَوْمَ ٱلنَّوى كَأَنَّهُ اشْهَرُ وَاعْرَفُ بِٱلسَّوادِ مِنَ ٱلظَّلَامِ فَعَرَّفَهُ بِهِ وَشَبَّهَهُ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ فُؤَادَ مَنْ لَا يَرْفُقُ تَظَرُّفًا. وَٱلقَلْبُ ٱلقَاسِي يُوصَفُ بِشِدَّةِ ٱلسَّوادِ. فَصَارَ هٰذا ٱلقَلْبُ اصْلًا عِنْدَهُ فِي ٱلسَّوادِ فَقِسْ عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ حِينَ اهْدَى لِلقَاضِي ابِي ٱلحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلعَزِيزِ ٱلجُرْجَانِيِّ عِطْرًا :

يَا ايُّهَا ٱلقَاضِي ٱلَّذِي نَفْسِي لَهُ ۞ فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

اهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ ۞ فَكَأَنَّمَا اهْدِي لَهُ اخْلَاقَهْ

وَٱلعَادَةُ تَشْبِيهُ ٱلثَّنَاءِ بِٱلعِطْرِ وَهُوَ عَكَسَ ٱلأَمْرَ عَلَى جِهَةِ ٱلمُبَالَغَةِ كَمَا بَيَّنَّا. وَقُلْتُ فِي تَشْبِيهِ حِصْنٍ :

كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ ٱلجَوَّ يَكْنِفُهُ ۞ وَهْمٌ تُمَثِّلُهُ فِي طَيِّهَا ٱلفِكَرُ

لِأَنَّهُ لَمَّا ٱرْتَفَعَ ٱلحِصْنُ فِي ٱلجَوِّ حَتَّى صَارَ كَٱلوَهْمِ فَيَكُونُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلمَحْسُوسِ بِمَا تُخُيِّلَ انَّهُ مَحْسُوسٌ لِإِظْلَامِهِ فِي ٱلعَيْنِ اوْ فُرِضَ لَهُ ٱلخَفَاءُ حَتَّى صَارَ يُشْبِهُ مَعْقُولًا بِمَعْقُولٍ. وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ تَشْبِيهُ ٱلوُجُودِ بِٱلتَّخَيُّلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلأَعْيَانِ كَتَشْبِيهِ ٱلجَمْرِ بَيْنَ ٱلرَّمَادِ بِبَحْرٍ مِنَ ٱلمِسْكِ مَوْجُهُ ٱلذَّهَبُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يَتِمُّ إِذَا فَرَضَ ٱلمُتَخَيِّلُ امُورًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْجُودٌ فِي ٱلأَعْيَانِ. فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلتَّشْبِيهُ حَسَنًا لَطِيفًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي ٱلنَّرْجِسِ :

كَأَنَّ عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلغَضِّ بَيْنَنَا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ: طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ. لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَةَ كَمَا قَالَ : مَا هٰذَا بَشَرٌ إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَعْقُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ). وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بَلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اكثر كان التشبيه اوغل في كونه عقليًا كقوله : انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلًا او نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالامس . فان التشبيه منتزع من مجموع هذه الجمل من غير ان يمكن فصل بعضها من بعض . فانك لو حذفت منها جملة واحدة من اي موضع كان اخلّ ذلك بالمقصود من التشبيه . ثم ما به المشابهة ان كان مركبًا فانه على قسمين : (الاول) ما لا يمكن افراد احد اجزائه بالذكر كقوله :

كأن سهيلًا والنجوم وراءه　　صفوف صلاة قام فيها امامها

فانه لا يمكن افراد اجزاء هذا التشبيه اذ لو قلت : كأن سهيلًا امامٌ وكأن النجوم صفوف صلاةٍ . ذهبت فائدة هذا التشبيه . (الثاني) ما يمكن افراده بالذكر ويكون اذا ازيل منه التركيب صحيح التشبيه في طرفيه الا ان المعنى مغيّر كقول ابي طالب الرقّي :

وكأن اجرام النجوم لوامعًا　　دررٌ نثرن على بساطٍ ازرق

فلو قلت : كأن النجوم دررٌ وكأن السماء بساطٌ ازرقُ وجدت التشبيه مقبولًا . ولكن المقصود من الهيئة المشبّه بها قد زال . وربما كان التشبيه في امورٍ كثيرةٍ ولا يتقيّد بعضها ببعضٍ . وانما يكون بعضها مضمومًا الى البعض وكلّ واحدٍ منها منفردٌ بنفسه

كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَالْأَسَدِ بَأْسًا وَٱلْبَحْرِ جُودًا وَٱلسَّيْفِ مَضَاءً وَٱلْبَدْرِ بَهَاءً. وَكَقَوْلِكَ: هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ. وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ ٱلتَّرْتِيبُ. (وَٱلثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ ٱلْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ ٱلْبَاقِي. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَّا ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَسْلُوكَةُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلنَّهْجُ ٱلْقَاصِدُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ ٱلْجَوَادِ بِٱلْبَحْرِ وَٱلْمَطَرِ. وَٱلشُّجَاعِ بِٱلْأَسَدِ. وَٱلْحَسَنِ بِٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ. وَٱلْفَهِمِ ٱلْمَاضِي بِٱلسَّيْفِ. وَٱلْعَالِي ٱلرُّتْبَةِ بِٱلنَّجْمِ. وَٱلْحَلِيمِ ٱلرَّزِينِ بِٱلْجَبَلِ. وَٱلْحَيِيِّ بِٱلْبِكْرِ. ثُمَّ يُشَبِّهُونَ ٱللَّئِيمَ بِٱلْكَلْبِ. وَٱلْجَبَانَ بِٱلصِّفْرِدِ. وَٱلطَّائِشَ بِٱلْفَرَاشِ. وَٱلذَّلِيلَ بِٱلنَّقَدِ وَٱلنَّعْلِ. وَٱلنَّفْعَ بِٱلْوَتَدِ. وَٱلْقَاسِيَ بِٱلْحَدِيدِ وَٱلصَّخْرِ. وَٱلْبَلِيدَ بِٱلْجَمَادِ. وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَامًا فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَٱلسَّمَوْءَلِ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَحَاتِمٍ فِي ٱلسَّخَاءِ. وَٱلْأَحْنَفِ فِي ٱلْحِلْمِ. وَسَحْبَانَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ. وَقُسٍّ فِي ٱلْخَطَابَةِ. وَلُقْمَانَ فِي ٱلْحِكْمَةِ. وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ ٱلذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي ٱلْعِيِّ. وَهَبَنَّقَةَ فِي ٱلْحُمْقِ. وَٱلْكُسَعِيِّ فِي ٱلنَّدَامَةِ. وَمَادِرٍ فِي ٱلْبُخْلِ

وَٱلتَّشْبِيهُ يَزِيدُ ٱلْمَعْنَى وُضُوحًا وَيُكْسِبُهُ تَأْكِيدًا . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّنًا . كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَإِنْ تَفُقِ ٱلْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ قُلْتَ : هُوَ كَٱلْقَابِضِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ شُرْبًا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ عَطَشًا . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلْأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَٱلرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلْمُنْتِنِ حَمَلَتْ نَتْنًا . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطَّيِّبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا   إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حَرِي

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ   فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ   أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضًا : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلْعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَٱلْمِسْكِ يُخْبَأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ . أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ : أَنْتَ أَدَامَ ٱللّٰهُ عِزَّكَ . وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَّا خَبَرَكَ . وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ .

فأنباؤك تأتينا كما وشى بالمسك رياه . ونمّ على الصباح محياه .
وقال : الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال . كالأسد يهاب وإن
كان رابضاً . والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنياً .
كالكلب يهون على الناس وإن طوق . وقال : لا يجب للمذنب
ان يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف منه كالشيء المنتن كلما أثير
ازداد نتناً . وقال أيضاً : من يصنع المعروف لعاجل الجزاء فهو
كملقي الحب للطير لا لينفعها بل ليصيدها به . وقال أيضاً : المال إذا
اجتمع ولم يصرف في الحقوق أسرع إليه الهلاك من كل وجه كالماء
إذا اجتمع في موضع ولم يكن له طريق إلى النفوذ تفجر من جوانبه
فضاع . وقال أيضاً : يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب
فاسداً فإذا صاحبه فسد مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط
ماء البحر فإذا خالطته ملحت . ومن التشابيه الحسنة قول جعفر بن
محمد : الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما
ازداد رياً ازداد مرارة . ومن التشابيه الشعرية البديعة قول لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع

ثم قال :

وأصبحت مثل السيف أخلق جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع

وكقول صالح بن جناح العبسي :

ألا إنما الإنسان غمد لقلبه ... ولا خير في غمد إذا لم يكن نصل

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَاجَنَى لَهَا وَلَاظِلَّ إِلَّا انْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ فَكَٱلْغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا

لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا

وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ

وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِي وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ.

كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلأَوْبَةِ وَتَقَايُلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللهُ عَاقِدُ

وَلَهُ أَيضاً وهُوَ مِنْ جِنْسِ ٱلإِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ يَتَبَارَيَانِ دَماً وَعَرْفاً سَاكِبَا
كَٱلبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلتَفَتَّ رَأَيْتَهُ يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُوراً ثَاقِبَا
كَٱلشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْءُهَا يَغْشَى ٱلبِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا
كَٱلبَحْرِ يَقْذِفُ لِلقَرِيبِ جَوَاهِراً جُوداً وَيَبْعَثُ لِلبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيراً مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ . وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلقَيْسِ فِي ٱلفَرَسِ :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَأَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وَلِٱبْنِ ٱلمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِأَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورٍ جَادَهَا م ٱلفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ أَذْفَرِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ أَوْ جَدْوَلٌ أَوْ سِمْطُ دُرٍّ أَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهاً وَاحِداً مُقَيَّداً بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ أَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَإِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهاً مُسْتَقِلّاً

بِذَاتِهِ. لِأَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ أَدَّى إِلَى ٱنْتِهَاءِ مُؤْيِسٍ. وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجُمْلَةٍ فَإِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ. وَهُوَ أَنْ يُجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهُ مُشَبَّهًا بِهِ. وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ: غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ. وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ. كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ ... وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْأَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ أَصْلًا. وَهٰذَا أَبْلَغُ وَأَحْسَنُ وَأَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ. لِأَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ. وَإِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

وَإِذْ ذَكَرْنَا أَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي ٱقْتِفَاءُ أَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَذْهَبِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ. عَلَى أَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِأَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ أَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ. وَٱلَّذِي يُرَدُّ مِنْهُ مُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ. كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ:

مَا لِرِجْلِ ٱلْمَالِ أَمسَتْ   تَشْتَكِي مِنْكَ ٱلْكَلَالَا

فَجَعَلَ لِلْمَالِ رِجْلًا وَذٰلِكَ تَشْبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ أَقْبَحِ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً   وَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلإِهَابَ وَمَا بَقِي   مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبْحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَنْدَنَةٌ حَوْلَ مَعْنًى لَيْسَ بِطَائِلٍ. فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَقُولَ: ذَهَبْتَ بِٱلْأَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْأَدْنَى. أَوْ: ذَهَبْتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ. وَأَمَّا (ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُظْهَرُ ٱلْأَدَاةِ) فَهٰذِهِ أَمْثَالٌ أَوْرَدْتُهَا لِتَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى أَشْبَاهِهِ فَإِنَّ لِذِكْرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكْرِ ٱلْحَدِّ وَحْدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

عَلَا حَاجِبَيْكَ ٱلشَّيْبُ حَتَّى كَأَنَّهُ   ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ أَبْعَدِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ:

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَٱعْتَدَلَتْ لَهُ   قِدَاحٌ كَأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ   جُرْبُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكَحِيلُ ٱلْمُشْعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُرْبِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضْلًا عَنْ أَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَيْنَهُمَا فِي ٱللَّوْنِ. وَمِنَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وجرى على الورق النجيعُ القاني   فكأنّهُ النارنجُ في الأغصانِ

وهذا تشبيهٌ يُنكرهُ أهل التجسيم. وقد عدُّوا من التشابيه التي هي غير بليغةٍ قول الشاعر في وصف الروض :

كأنَّ شقائق النُّعمانِ فيهِ   ثيابٌ قد روينَ من الدِّماء

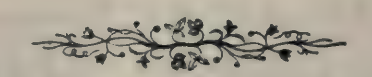
فهذا وإن كانَ تشبيهاً مُضيئاً فإنَّ فيهِ بشاعةَ كثرةِ الدِّماء التي تعافُ الأنفسُ اللطيفةُ رؤيتها. وفي أقوال العرب تشابيهُ تمجُّها الأذواقُ الصحيحةُ وتنفرُ منها الطباعُ السليمةُ. فمن ذلكَ قولُ النابغةِ وقد عابهُ الأصمعيُّ بين يدي الرشيدِ :

نظرت إليكَ بحاجةٍ لم تقضِها   نظرَ المريضِ إلى وجوهِ العُوَّدِ

قال الأصمعيُّ : قد يُكرهُ تشبيهُ الممدوحِ بالمريضِ. ومثلهُ قولُ أبي محجنٍ الثقفيّ في قينةٍ :

وترجعُ العودَ أحياناً وتخفضُهُ   كما يطيرُ ذبابُ الروضةِ الغَرِدُ

فإنَّ القينةَ لم ترضَ أن تشبّهَ نفسها بالذبابِ. ولذلكَ رغبَ المولَّدونَ عن تشابيهِ العربِ لأنها مع عقادةِ التركيبِ لم تسفرْ عن كبيرِ أمرٍ فخالفوها في كثيرٍ من الشعرِ إلى ما هو أليقُ بالوقتِ وأمسُّ بأهلهِ



البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعيّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ ٱلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ ٱلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ مُقَدَّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ ٱلدِّينِ بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ ٱلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا ٱللّٰهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُ ٱللّٰهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ ٱلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللّٰهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ

وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَاِخْوَانٌ اِذَا مَا مَدَحْتُهُمْ   أُحَكَّمُ فِي اَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ اَرَاكَ اَصْطَنَعْتَهُمْ   فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ اَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهٰذَا ٱلْمَلِكِ : اَنْتَ اَحْسَنْتَ اِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ . وَاَنَا اَحْسَنَ اِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ . فَكَمَا اَنَّ مَدْحَ مَنْ اَحْسَنْتَ اِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ اَحْسَنَ اِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا . قَالَ ٱبْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ : وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ   وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى   اِذَا قَلَّ مِنْ اَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ : لِكُلِّ اِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ . وَنَفْسٌ اَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ . وَٱلْاِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْاَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا اُخْرَى . وَاَنْتَ اِذَا اَمَرَتْكَ ٱلْاَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ اِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ . فَاَنْتَ اَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَٱعْلَمْ اَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ اِمَّا حَمْلِيٌّ . وَاِمَّا شَرْطِيٌّ . فَٱلْاَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ : مِنْهَا مَا يُرْوَى اَنَّ اَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ . فَقَالَ لَهُ : مِمَّنْ اَنْتَ . فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ . فَقَالَ اَبُو دُلَفَ :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا   وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ : نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ اِلَيْكَ . فَاَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ اَلْزَمَهُ فِيهِ اَنَّ ٱلْمَجِيءَ اِلَيْهِ ضَلَالٌ . وَلَعَمْرِي اِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اوضح دلالة في هذا الباب من غيره واعذب في الذوق واسهل في التركيب . فانه جملة واقعة بعد (لو) وجوابها . وهذه الجملة على اصطلاحهم مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم كما جاء : لو تعلمون ما اعلم (يريد امور الآخرة) لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا . وتمام الدليل ان يقال : لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما اعلم

ولقد زادوا على هذين القياسين القياس الفقهي وذلك ان يقاس فرع على اصل بجامع بينهما فيلزم التساوي في الحكم . كما يحكى ان الوليد قال لبعضهم : انشد من قولك في الخمر . فانشده :

كميت اذا شجت وفي الكاس وردها
لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذى من دونها وهي دونه
لوجه اخيها في الاناء قطوب

فقال له الوليد : شربتها ورب الكعبة . فقال : لئن كان وصفي لها رابك لقد رابني معرفتك بها . (يقول) : كما ان معرفتي بوصفها رابتك كذلك معرفتك بها رابتني



الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبهِ

البحث الاوَّل

في تمييز الكلام جيّدهِ من رديئهِ ونادرهِ من باردهِ

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ اَيَّدَكَ اللهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفظِهِ وَاصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَاسْتِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ اَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ اَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا اَصْلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي اَلْاَلْفَاظِ اَثَرٌ . فَتَجِدُ اَلْمَنظُومَ مِثْلَ اَلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَاِذَا كَانَ اَلْكَلَامُ كَذٰلِكَ كَانَ بِاَلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِاَلتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ اَلْاَوَّلِ :

هُمُ اَلْاُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ اَنْفُسَهُمْ ... فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا اِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ اَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا اَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ ... وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا ... وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

وَاَعْلَمُ اَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ ... مِنَ اَلدَّهْرِ اِلَّا قَدْ اَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ ... مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي

وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ ... وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى ... إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادِ لَعَلَّنِي ... أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لِذِي ٱلْحَقِّ مَحْمَلُ

فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ ... تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ

أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي رَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ... وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ

وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ

وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي ... عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ ... وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَلَسْتُ بِخَابِيءٍ ابدًا طعامًا   حِذارَ غدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعامُ

وَهٰذا وَإِنْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَإِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفظِ غَدٍ . فَإِنْ كَانَ ٱلكَلَامُ قَدْ جَمعَ ٱلعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ . وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطُّلَاوَةِ . وَسَلِمَ مِنْ سَخْفِ ٱلتَّأْلِيفِ . وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ . وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ . وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ . وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَاسِئِ ٱلْبَشِعِ . وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفِرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ . وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ . وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْفَرُّ لِلْمُنْتِنِ . وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ . وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ . وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ . وَٱلْفَهْمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي إِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ . وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ إِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ . وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي إِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَإِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طُلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ أَوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوَابًا . وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . أَلَا تَرَى

إلى قول حبيب:

مستسلمٌ لله سائسُ أمةٍ ... بذوي تجهضمها له استسلام

فيه صوابُ اللفظ وليس هو بحسنٍ ولا مقبولٍ. ومن الدليل على أنَّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنَّ الخطب الرائعة والأشعار الرائقة ما عُملت لإفهام المعاني فقط لأنَّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام جيدها في الإفهام وإنما يدلُّ حسنُ الكلام وإحكامُ صنعته ورونقُ ألفاظه وجودةُ مطالعه وحسنُ مقاطعه وبديعُ مبادئه وغريبُ مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه. وأكثرُ هذه الأوصاف ترجعُ إلى الألفاظ دون المعاني. وتوخّي صواب المعنى أحسنُ من توخّي هذه الأمور في الألفاظ. فلهذا تأنّق الكاتبُ في الرسالة والخطيبُ في الخطبة والشاعرُ في القصيدة وهم يبالغون في تجويدها. ويغلون في ترتيبها ليدلّوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم. ولو كان الأمرُ في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدًّا كثيرًا وأسقطوا عن أنفسهم تعبًا طويلًا. ولهذا دليلٌ آخر: أنَّ الكلام إذا كان لفظُهُ حلوًا عذبًا وسلسًا سهلًا ومعناهُ وسطًا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر:

ولمّا قضينا من منًى كلَّ حاجةٍ ... ومسّحَ بالأركان من هو ماسحُ

وشُدّت على حُدب المهاري رحالُنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطيّ الأباطحُ

وليس تحت هذه الألفاظ كبيرُ معنًى وهي رائقةٌ معجبةٌ. وإنما

هِيَ : وَلَمَّا قَضَيْنَا ٱلْحَجَّ وَمَسَّحْنَا ٱلْأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ ٱلْإِبِلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بَعْضُنَا بَعْضًا جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُ بِنَا ٱلْإِبِلُ فِي بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوَابًا وَٱللَّفْظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلْفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلْبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلْفُوظًا وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلْبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَقَوْلِ عَمْرِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا ... مَا قَطَّرَ ٱلْفَارِسُ إِلَّا أَنَا

شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ سَرَابِيلَهُ ... وَٱلْخَيْلُ تَعْدُو زِيَمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبِ ... رَحِمَ ٱللهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ

يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي ... يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلْأَلْفَاظِ إِذَا جَرَتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصِدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِئَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرَ أَبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخلَدٍ قَالَ: انْشَدَنَا إِبرَاهِيمُ بْنُ ٱلعَبَّاسِ لِخَالِهِ ٱلعَبَّاسِ بْنِ ٱلأَحنَفِ:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفعَلْ وَإِنْ سُئِلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ
صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ ٱلْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا ٱلشِّعرُ ٱلْحَسَنُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّهْلُ ٱللَّفظِ ٱلعَذْبُ ٱلْمُسْتَمَعِ ٱلْقَلِيلُ ٱلنَّظِيرِ ٱلعَزِيزُ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُطْمِعُ ٱلْمُمْتَنِعُ ٱلْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ ٱلصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا ٱلكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ ٱلكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ ٱلسَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَٱلْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي ٱلْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ ٱلْمَنْظُومِ ٱلْمُطْمِعِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ ٱلَّذِي طَلَبَ ٱلْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ ٱلْمَطَايَا وَأَنضَى
رِدْ حِيَاضَ ٱلإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ ٱلرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضَا
هُوَ أَندَى مِنَ ٱلْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ ٱلْحُسَامِ وَأَمْضَى
يَتَوَخَّى ٱلإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ ٱلإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا
فَضَّلَ ٱللّٰهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى ٱلنَّاسِ فَرْضَا
وَأَرَى ٱلْمَجْدَ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تُمْضَى

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ ٱللّٰهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ ٱلدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ ٱلدِّينِ رُشْدَا
أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م ٱلنَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَٱزْدَدْ مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا ثِمَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
اِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي شُكْرَ اِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَامَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ اِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا. فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ فَحَطَّ اِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ
بِكَفَّيْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْاَمْرُ ٱلْاَبِيُّ بِحَزْمِهِ اِذَا ٱلْاَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ :

لَا تَسْاَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهُوَ مَحْمُودُ
اَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدِي سَلَفَتْ وَفِي اَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَاِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى اَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ : اَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَاَسْرَفَ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ . وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ : وَاَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ . وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ . وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ اِلَّا مِنْ جِهَتِهِ . وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ اِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ . وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ اِلَّا بِٱلْاِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ . وَلَا يَسْتَمِيلُكَ اِلَّا بِٱلِاعْتِرَافِ. نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ . وَرَدَّتْنِي اِلَيْكَ ٱلْحُنْكَةُ . وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْاَيَّامِ فَادَّتْنِي اِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ . فَاِنْ رَاَيْتَ اَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وَتجَدّدَ ٱلنِعْمَةَ بِاطِّرَاحِ ٱلْحِقْدِ فَإِنَّ قَدِيمَ ٱلْحُرْمَةِ وَحَدِيثَ ٱلتَوْبَةِ يَمْحَقَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْإِسَاءَةِ . فَإِنَّ أَيَّامَ ٱلْقُدْرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةٌ وَٱلْمُتْعَةَ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةٌ فَعَلْتَ . وَفِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَمَا قَبْلَهُ قُوَّةٌ فِي سُهُولَةٍ . وَمِمَّا هُوَ أَجْزَلُ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلشَّعْبِيِّ لِلْحَجَّاجِ وَأَرَادَ قَتْلَهُ لِخُرُوجِهِ عَلَيْهِ مَعَ ٱبْنِ ٱلْأَشْعَثِ : أَجْدَبَ بِنَا ٱلْجَنَابُ وَأَحْزَنَ بِنَا ٱلْمَنْزِلُ وَٱسْتَحْلَسْنَا ٱلْحَذَرَ وَٱكْتَحَلْنَا ٱلسَّهَرَ . وَأَصَابَتْنَا فِتْنَةٌ وَلَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَرَةً أَتْقِيَاءَ وَلَا فَجَرَةً أَقْوِيَاءَ . فَعَفَا عَنْهُ . وَأَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ جَزْلًا سَهْلًا لَا يَنْغَلِقُ مَعْنَاهُ وَلَا يَسْتَبْهِمُ مَغْزَاهُ . وَلَا يَكُونُ مَكْدُودًا مُسْتَكْرَهًا وَمُتَوَعِّرًا مُتَقَعِّرًا . وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْغَثَاثَةِ عَارِيًا مِنَ ٱلرَّثَاثَةِ . وَٱلْكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ غَثًّا وَمَعْرِضُهُ رَثًّا كَانَ مَرْدُودًا وَلَوِ ٱحْتَوَى عَلَى أَجَلِّ مَعْنًى وَأَنْبَلِهِ وَأَرْفَعِهِ وَأَفْضَلِهِ كَقَوْلِهِ :

لَمَّا أَطَعْنَاكُمُ فِي سُخْطِ خَالِقِنَا ... لَا شَكَّ سُلَّ عَلَيْنَا سَيْفُ نِقْمَتِهِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

أَرَى رِجَالًا بِأَدْنَى ٱلدِّينِ قَدْ قَنِعُوا ... وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي ٱلْعَيْشِ بِٱلدُّونِ

فَٱسْتَغْنِ بِٱلدِّينِ عَنْ دُنْيَا ٱلْمُلُوكِ كَمَا ... ٱسْتَغْنَى ٱلْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ ٱلدِّينِ

وَلَا يَدْخُلُ هٰذَا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُخْتَارِ وَمَعْنَاهُ كَمَا تَرَى نَبِيلٌ فَاضِلٌ جَلِيلٌ . وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلرَّدِيءُ ٱلْفَجُّ ٱلَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُ ٱسْتِعْمَالِهِ فَمِثْلُ قَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا وَكَانَ خَرَجَ مَعَ صَاحِبَيْنِ لَهُ فَقُتِلَا فِي ٱلْغَزْوِ وَرَجَعَ هُوَ سَالِمًا :

إِذَا مَا تَرَكْتُ صَاحِبِي لِثَلَاثَةٍ ... أَوِ ٱثْنَيْنِ مِثْلَيْنَا فَلَا أُبْتُ آمِنَا

وَلَمَّا سَمِعْتُ ٱلْعُوصَ تَدْعُو تَنَفَّرَتْ ... عَصَافِيرُ رَأْسِي مِنْ غُوَاةٍ فَرَاتِنَا

وَخَثِخْثَتُ مَشْغُوفَ ٱلنَّجَاءِ كَأَنَّنِي هِجَفٌّ رَأَى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنَا
مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عِفَاءَهُ إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفِيفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا
أَرَجُّ زَلُوجٌ هِزْرِفِيٌّ زَفَازِفٌ هِزَفٌّ يَبِذُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجِلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَجَنَّبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ لَزِدْتُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَجِيزُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمَدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ أَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي أَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيَتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْأُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ . وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ. وَيَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ ٱلْإِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يَتَّكِلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ إِيَّاهُ . وَلَا يَغُرَّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيَتَسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيَطْمِسَ نُورُهُ وَيَكُونُ فِيهِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ إِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَأَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ . وَإِنَّمَا قَبُحَ لِأَنَّكَ أَفْسَدتَّ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ أَمْسِ وَأَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ . فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَأَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَأَشْبَاهُهُ وَأَمْثَالُهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ إِنْ جَازَ أَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَأَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ

مِنهما معنًى على حِيالِه . وذلكَ لِأنَّ بعضَها عُقِدَ ببعضٍ حتّى صارا كلامًا واحدًا. ومنها الغلطُ وهو ان تقولَ : ضربني زيدٌ . وانت تُريدُ : ضربتُ زيدًا . فغلطتَ . فإن تعمّدتَ ذلكَ كانَ كذبًا . وللخطإ صورٌ مختلفةٌ نبّهتُ على أشياءَ منها في هذا الفصلِ وبيّنتُ وجوهَها وشرحتُ أبوابَها لتقفَ عليها فتتجنّبَها كما عرّفتُكَ بمواضعِ الصوابِ لتعتمدَها. وليكونَ فيما اوردتُ دلالةٌ على أمثالِه ممّا تركتُ . ومن لا يعرفُ الخطأَ كانَ جديرًا بالوقوعِ فيه . فمن ذلكَ قولُ امرئِ القيسِ :

أَلَمْ تسألِ الرَّبعَ القديمَ بعسعسا ... كأنّي أُنادي أو أُكلِّمُ أخرسا

هذا منَ التشبيهِ الفاسدِ لِأنّه لا يُقالُ : كلّمتُ حجرًا فلم يُجِبْ فكأنّهُ كانَ حجرًا . والّذي جاءَ بهِ امرؤُ القيسِ مقلوبٌ . والجيّدُ قولُ كُثَيِّرٍ في امرأةٍ :

فقلتُ لها يا عزَّ كلُّ مُصيبةٍ ... إذا وُطِّنَتْ يومًا لها النفسُ ذلّتِ

كأنّي أُنادي صخرةً حينَ أعرضتْ ... منَ الصُّمِّ لو تمشي بها العُصْمُ زلّتِ

فشبّهَ المرأةَ عندَ السكوتِ والتغافلِ بالصخرةِ. ومثلُه قولُ ابنِ أحمرَ :

لم يدرِ ما نسجُ اليرندجِ قبلَها ... ودِراسَ أعوصَ دارسٍ متجدّدِ

ظنَّ أنَّ اليرندجَ يُنسَجُ . واليرندجُ جلدٌ أسودُ يُعمَلُ منها الخِفافُ فارسيٌّ مُعرّبٌ وأصلُه : رَنْدَه . ومثلُه قولُ أوسِ بنِ حجرٍ :

ومن أنابيبِ تُفّاحٍ ورُمّانِ

ظنَّ أنَّ الرُّمّانَ والتُّفّاحَ أنابيبُ . وقيلَ : إنَّ الأنابيبَ الطرائقُ التي في الرُّمّانِ . وإذا حُمِلَ على هذا الوجهِ صحَّ المعنى . وممّا أُخِذَ على

امرئ القيس قوله في الفرس :

فللسوط الهوب وللساق درة　　وللزجر منه وقع اخرج مهذب

فلو وصف اخس حمار واضعفه ما زاد على ذلك . والجيد قوله :

على سابح يعطيك قبل سؤاله　　افانين جري غير كز ولا واني

وما سمعنا اجود ولا ابلغ من قوله : افانين جري . وقول علقمة :

فادركهن ثانيا من عنانه　　يمر كمر الرائح المتحلب

فادرك طريدته وهو ثان من عنانه لم يضربه بسوط ولم يمره بساق ولم يزجره بصوت ومما يعاب قول الاخطل :

وقد جعل الله الخلافة منهم　　لابلج لا عاري الخوان ولا جدب

يقوله في عبد الملك . ومثل هذا لا يمدح به الملوك . وانما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها　　وهمته الصغرى اجل من الدهر

له راحة لو ان معشار جودها　　على البر كان البر اندى من البحر

ومن الخطا قول جنادة :

من حبه اتمنى ان يلاقيني　　من نحو بلدته ناع فينعاه

لكي يكون فراق لا لقاء له　　وتضمر النفس يأسا ثم تسلاه

فاذا تمنى المحب لحبيبه الموت فما عسى ان يتمنى المبغض لبغيضه . وشتان ما بين هذا وبين من يقول :

الا ليتنا عشنا جميعا وكان بي　　من الداء ما لا يعرف الناس ما بيا

فهذا اقرب الى الصواب ولو ان جنادة كان يتمنى وصله ولقاءه

لَكَانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ . كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّ وَأَحْزَنَا
فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى . وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ . وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ . وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : اذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ . فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ . كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيْسِ ٱلرَّقِيَّاتِ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ   عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ   تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعْطَيْتَهُ ٱلْمَدْحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعْطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَٱلذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ. وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُزَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا   وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَمَّسِ

مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ   حَتَّى ٱنْتَهَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ

مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ   غُرِسَتْ أَرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ

وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً   خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفُسَيْفِسِ

فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا   وَرِقٌ يُلَأْلَأُ فِي صَمِيمِ ٱلْحِنْدِسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُؤْدَدَ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ. وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعِصَامِيُّ كَٱلْعِظَامِيِّ. وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ. وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ. وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ. فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي. وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ ٱلصِّدْ   قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَـئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَـكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا عَلَى مَحَاسِنَ أَبْقَاهَا أَبُوكَ لَـكَا
لَئِنْ تَقَـدَّمَ أَبْنَاءُ ٱلْـكِرَامِ بِهِ لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ ٱللِّئَامِ بِـكَا

ثُمَّ ذَكَرَ أَيْمَنُ بِنَاءَ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ ٱلْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَ ٱللَّئِيمُ ٱلْبَخِيلُ ٱلْأَبْنِيَةَ ٱلنَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي ٱلنَّفَقَةِ عَلَى ٱلدُّورِ ٱلْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ ٱلْحَقِّ وَرَدِّ ٱلسَّائِلِ وَلَيْسَ ٱلْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ أَشْجَعُ ٱلسُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ ٱلْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي ٱلْغِنَى وَلَـكِنَّ مَعْرُوفَـهُ أَوْسَعُ

وَٱلْجَيِّدُ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ إِنْ يَسْتَخْوِلُوا ٱلْمَالَ يُخْوِلُوا وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا
وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْـلُ

فَلَمَّا ٱسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفِعْـلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَـذْلُ

فَلَمْ يُخْلِ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِٱلْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِـدٌ رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فوصفهم ايضاً بالتضافر والتعاون فلما اتى بهذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال :

وما يك من فضل اتوه فانما نوارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتغرس الا في منابتها النخل

وقول مروان بن ابي حفصة :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم اسود لهم في غيل خفان اشبل
هم المانعون الجار حتى كأنما لجارهم فوق السماكين منزل
بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن كاولهم في الجاهلية اول
هم القوم ان قالوا اصابوا وان دعوا اجابوا وان اعطوا اطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم وان احسنوا في النائبات واجملوا
ثلاث بامثال الجبال حباهم واحلامهم منها لدى الوزن اثقل

وكقول الآخر :

علم الغيث الندى حتى اذا ما حكاه علم البأس الاسد
فله الغيث مقر بالندى وله الليث مقر بالجلد

ومع ما ذكرناه فانه لا ينبغي ان يخلو المدح من مناقب آباء الممدوح وتقريظ من يعرف به وينسب اليه. وانشد مروان ابن ابي حفصة :

نقرت فلا شلت يد خالدية رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

فقال له الفضل قل : برمكية . فقد يشركنا في خالد بشر كثير ولا يشركنا في برمك احد

وَٱلْهِجَاءُ ايضًا اِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفْسُ وَاِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ايضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا . وَٱلِاخْتِيَارُ اَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ اِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَيْسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يَنْسُبَهُ اِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ :

فَقُلْتُ لَهَا لَيْسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

رَاَوْهُ فَٱزْدَرَوْهُ وَهُوَ حِذْقٌ وَيَنْفَعُ اَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ اَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيْسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ :

تُعَيِّرُنَا اَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا اِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

ٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ وَٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا
قَوْمٌ اِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ اَمِنُوا مِنْ لُؤْمِ اَحْسَابِهِمْ اَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ اَعْشَى بَاهِلَةَ :

بَنُو تَيْمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو اَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنْ يَغْدِرُوا اَوْ يَجْبُنُوا اَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ   وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ اَخِي فَعَاوَدَنِي   صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِأَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ أَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَٱحْتِرَاقِهِ لَا بِالصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

إِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَنْجَاةِ مُنْجِدَةً   مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عَمَّرْتَ قَابُوسُ

اَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْأَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ   فَلَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قَرٌّ وَقَدْ أَخْطَأَ . وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْحُ ٱلْبَعِيرِ بِهَا   كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْأَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ أَيْضًا مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فَقَوْلُهُ : (كَأَنَّهُ مَشْمُومُ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْأَنْفِ أَهْجَنُ). لِأَنَّ ٱلشَّمَّ لَا يَكُونُ بِٱلْعَيْنِ . وَمِنَ ٱلْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ :

نَزَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ ... وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ

مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ ... لَوْ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ : لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا . وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ :

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا ... غَلَبَ ٱلْمِسْكُ عَلَى رِيحِ ٱلْبَصَلْ

وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَشِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

بِأَحْمَدَ ٱلْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ ٱلسَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ . وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

غَنِيتَ عَلَى ٱلْوَصْلِ ٱلْقَدِيمِ غَنِيتَا ... وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا

وَمِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنْ مَاتَ مَأْلَفِي ... وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا

تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ ... وَمُتَّ عَنِ ٱلْإِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ . بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعْهُودُ مِنْ أَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ : (مِنْ ظُلْمِ ٱلْأَيَّامِ) كَانَ ٱلْمَعْنَى مُسْتَوِيًا . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأُدَبَاءِ يَقُولُ : وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلْبَازِي :

فِي هَامَةٍ غَلْبَاءَ تَهْدِي مِنْسَرَا ... كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ :

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا ... لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءٍ وَرَا

فَٱتَّصلَتْ بِٱلْجِيمِ صَارَ جعفرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ اَنَّ ٱلْجِيمَ اِذَا اُضِيفَ اِلَيْهَا ٱلعَيْنُ وَٱلفَاءُ وَٱلرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرَا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ ٱلبَازِي مِنْ هٰذَا ٱلقَوْلِ شَيْءٌ. وَتبِعَهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

هُنَّ ٱلْحَمَامُ فَاِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَاِنَّهُـنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي جَهِلَ اَنَّ ٱلْحَمَامَ اِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا. وَاِنَّمَا اَرَادَ اَبُو نُوَاسٍ اَنَّهُ يُشَبِّهُ ٱلْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدتَّ عَلَيْهَا هٰذِهِ ٱلاَحْرُفَ صَارَتْ جعفرًا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. اِلَّا اَنَّهُ لَوِ ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفٍّ اَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ ٱلزِّيَادَةَ ٱلَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اَجْوَدَ وَاَرْشَقَ وَاَدْخَـلَ فِي مَذَاهِبِ ٱلْفُصَحَاءِ وَاَشْبَهَ بِٱلشِّعْرِ ٱلْقَـدِيمِ. وَاَمَّا قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ : فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اَرَادَ اَنَّكَ اِذَا اَرَدتَّ ٱلزَّجْرَ وَٱلعِيَافَةَ اَدَّاكَ ٱلْحَمَامُ اِلَى ٱلْحِمَامِ كَمَا اَنَّ صَوْتَهَا ٱلَّـذِي تَظُنُّ اَنَّهُ بُكَاءٌ اِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ اِلَى ٱلْبُكَاءِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَهٰـذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. اِلَّا اَنَّ ٱلْمَعْنَى اِذَا صَارَ بِهٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ مِنَ ٱلدِّقَّةِ كَانَ كَٱلْمُعَمَّى وَٱلتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ ٱلْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلاَسَدِ:

كَاَنَّمَا عَيْنُهُ اِذَا نَظَرَتْ بَارِزَةَ ٱلْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ ٱلاَسَدِ بِٱلْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِٱلْغُؤُورِ كَقَوْلِ اَبِي زُبَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَٱلْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ تَرَى فِيهِمَا كَٱلْجَمْرَتَيْنِ تَسَعُّرَا

وَمِنَ ٱلْغَلَطِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلْحِلْمِ لَوْ اَنَّ حِلْمَهُ   بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي اَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ اَحَدٌ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا اَهْلِ ٱلْاِسْلَامِ ٱلْحِلْمَ بِٱلرِّقَّةِ وَاِنَّمَا يُوصَفُ بِٱلرَّجَحَانِ وَٱلرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ اَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ ٱلنَّائِبَاتِ   وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَاِذَا ذَمُّوا ٱلرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ .

وَمِنَ ٱلْخَطَاِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ   ثُمَّ ٱرْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

اَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ اِطْفَاؤُهَا   بِٱلدَّمْعِ اَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ لِاَنَّهُمْ قَدْ اَجْمَعُوا اَنَّ ٱلْبُكَاءَ يُطْفِئُ ٱلْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ ٱلْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ ٱلْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ اَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ ٱلْاَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ   وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ ٱلْمُغْرَمِ

وَمِنَ ٱلْخَطَاِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ اِنَّ حَمْدَهُمْ   مِنَ ٱلدُّرِّ مَا ٱصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

وَاِنَّمَا يُوصَفُ ٱلدُّرُّ بِشِدَّةِ ٱلْبَيَاضِ وَاِذَا اُرِيدَ ٱلْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِٱلنُّصُوعِ . وَمِنْ اَعْيَبِ عُيُوبِهِ ٱلصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَاِذَا ٱصْفَرَّ ٱحْتِيلَ فِي اِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَوَاشِي فِي ٱلدُّرِّ اَيْضًا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ اَجْوَدَ . وَٱلْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَٱلثَّوْبِ . فَاَمَّا حَاشِيَةُ ٱلدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَحَرَّتْ عَلَى ٱلْاَيْدِي مَجَسَّةُ جِسْمِهِ   كَذٰلِكَ مَوْجُ ٱلْبَحْرِ مُلْتَهِبُ ٱلْوَقْدِ

وَهٰذَا غلَطٌ لِاَنَّ ٱلبَحْرَ غيْرُ مُلتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَا اَمْكَنَ رُكُوبُهُ.وَاِنَّمَا اَرادَ اَنْ يُعَظِّمَ اَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا   سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِاَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا اَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ اَيضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هٰا هُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَنَّ اَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ اَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

اَلَا مَنْ رَاَى قَوْمِي كَاَنَّ رِجَالَهُمْ   نَخِيلٌ اَتَاهَا عَاضِدٌ فَاَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَّابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ   مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ

اِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ   اَوْ لَأْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُحْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ اَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْاِحْصَاءُ. كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ اَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ اَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا وَاَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي. وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

ذَكَرْتُ ٱلآنَ ٱلوَصْفَ وَتَرَكْتُ ٱلمَرَاثِيَ وَٱلفَخْرَ . لِأَنَّهُمَا دَاخِلَانِ فِي ٱلمَدِيحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلفَخْرَ مَدْحُكَ نَفْسَكَ بِٱلطَّهَارَةِ وَٱلعَفَافِ وَٱلحِلْمِ وَٱلعِلْمِ وَٱلحَسَبِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذٰلِكَ . وَٱلمَرْثِيَةُ مَدْحُ ٱلمَيْتِ وَٱلفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلمَدِيحِ أَنْ تَقُولَ : كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَتَقُولُ فِي ٱلمَدِيحِ : هُوَ كَذَا وَأَنْتَ كَذَا . فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَوَخَّى فِي ٱلمَرْثِيَةِ مَا يُتَوَخَّى فِي ٱلمَدِيحِ . إِلَّا أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَذْكُرَ ٱلمَيْتَ بِٱلجُودِ وَٱلشَّجَاعَةِ تَقُولُ : مَاتَ ٱلجُودُ وَهَلَكَتِ ٱلشَّجَاعَةُ . وَلَا تَقُولُ : كَانَ فُلَانٌ جَوَادًا وَشُجَاعًا فَإِنَّ ذٰلِكَ بَارِدٌ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ . وَكَذٰلِكَ مَا كَانَ ٱلمَيْتُ يَرْكَبُهُ فِي حَيَاتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنَّهُ لَا يُذْكَرَ أَنَّهُ يَبْكِي عَلَيْهِ مِثْلُ ٱلخَيْلِ وَٱلإِبِلِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا وَإِنَّمَا يُذْكَرُ ٱغْتِبَاطُهُمَا بِمَوْتِهِ . وَقَدْ أَحْسَنَتِ ٱلخَنْسَاءُ حَيْثُ تَقُولُ :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طَلْقَةُ وَٱسْتَرَاحَتْ فَلَيْتَ ٱلخَيْلَ فَارِسُهَا يَرَاهَا

بَلْ يُوصَفُ بِٱلبُكَاءِ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ . كَمَا قَالَ ٱلغَنَوِيُّ :

لِيَبْكِكَ شَيْخٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ وَطَاوِي ٱلحَشَى نَائِي ٱلمَزَارِ غَرِيبُ

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ إِذَا تَدَبَّرَهَا صَانِعُ ٱلكَلَامِ ٱسْتَغْنَى بِهَا عَنْ غَيْرِهَا . وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ



البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعماله في تأليفه

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

إذا اردتَّ ان تصنع كلاماً فأخطِرْ معانيهُ ببالك وتنوَّق له كرائمَ اللفظِ واجعلها على ذِكرٍ منك ليقرُب عليك تناوُلها ولا يُتعِبك تطلُّبها . واعمَلْه ما دُمتَ في شبابِ نشاطِك فإذا غشيَك الفتورُ وتخوَّنك الملالُ فأمسِكْ . فإنَّ الكثيرَ مع الملالِ قليلٌ والنفيسَ مع الضجرِ خسيسٌ والخواطِر كالينابيعِ يُسقى منها شيءٌ بعد شيءٍ فتجِدُ حاجتَك من الرِّيِّ وتنالُ اربكَ من المنفعةِ. فإذا اكثرتَ عليها نضبَ ماؤُها وقلَّ عنكَ غناؤُها. وينبغي ان تجريَ مع الكلامِ معارضةً فإذا مررتَ بلفظٍ حسنٍ اخذتَ برقبتِهِ او بمعنًى بديعٍ تعلَّقتَ بذيلِه . وتحذَّرْ ان يسبِقك فإنَّه إنْ سبقك تعِبتَ في تتبُّعِهِ ونصِبتَ في طلبِهِ ولعلَّك لا تلحقُهُ على طولِ الطلبِ ومُواصلةِ الدأْبِ وقد قال الشاعِرُ :

إذا ضيَّعتَ اوَّلَ كلِّ امرٍ   ابتْ اعجازُهُ إلَّا التواءَ

وقالوا : ينبغي لصانعِ الكلامِ ان لا يتقدَّمَ الكلامَ تقدُّماً ولا يتَّبعَ ذُنابَاهُ تتبُّعاً ولا يحمِلَهُ على لسانِهِ حملًا فإنَّه إنْ تقدَّمَ الكلامَ لم تتبعْهُ حقيقتُهُ وهزيلُهُ والعجِفُهُ والشاردُ منهُ. وإنْ تتبَّعهُ فاتتهُ سوابقُهُ ولواحِقُهُ وتباعدَتْ عنهُ جيادُهُ وغُررُهُ . وإنْ حمَلَهُ على لسانِهِ ثقُلتْ عليهِ اوساقُهُ واعباؤُهُ ودخلَتْ مساويهِ في محاسنِهِ ولكنَّهُ يجري معهُ

فَلَا تَنِدُّ عَنْهُ نَادَّةٌ مُعْجِبَةٌ سَهْمَاءُ إِلَّا كَبَحَهَا وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ مُثْقَلَةٌ هَزِيلَةٌ إِلَّا أَرْهَقَهَا فَطَوْرًا تُفَرِّقُهُ لِيَخْتَارَ أَحْسَنَهُ وَطَوْرًا تَجْمَعُهُ لِتُقَرِّبَ عَلَيْكَ خُطْوَةَ الْفِكْرِ وَيَتَنَاوَلَ اللَّفْظَ مِنْ تَحْتِ لِسَانِهِ وَلَا يُسَلِّطُ الْمَلَلَ عَلَى قَلْبِهِ. وَالْإِكْثَارَ عَلَى تَفَكُّرِهِ فَيَأْخُذُ عَفْوَهُ وَلَا يَسْتَغْزِرُ دَرَّهُ وَلَا يُكْرِهُ آبِيًا وَلَا يَدْفَعُ آتِيًا. وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا لَكَ. فَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ وَأَحْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ الْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الْأَطْوَلُ بِالْكَدِّ وَالْمُطَالَبَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالتَّكَلُّفِ وَالْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ. وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ. وَمَنْ أَرَادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُدَنِّسُهُمَا وَيُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا فَيَصِيرُ بِهِمَا إِلَى حَدٍّ يَكُونُ فِيهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ الْبَلَاغَةَ وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ فِي مَلَابِسِهَا. فَكُنْ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ. فَأَوَّلُ الثَّلَاثِ: أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ شَرِيفًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا. فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ لَا تُوَاتِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ خَاطِرٍ وَتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا

وَلَمْ تَصِلْ اِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ ٱلْاَمَاكِنِ وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ اَوْطَانِهَا . فَاِنَّكَ اِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذٰلِكَ اَحَدٌ . وَاِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ اَنْتَ اَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَاِنِ ٱبْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ ٱلْقَوْلِ وَتَعَاطِي ٱلصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطَّبِيعَةُ فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعْصَى عَلَيْكَ بَعْدَ اِجَالَةِ ٱلْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَاَمْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَاِنَّكَ لَا تَعْدَمُ ٱلْاِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ . وَاِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَاُجْرِيتَ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَهِيَ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّانِيَةُ. فَاِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ ٱلْخَاطِرِ وَطُولِ ٱلْاِمْهَالِ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ. اَيْ اَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِلَى اَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ اِلَيْكَ وَاَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَاِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا اِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَٱلشَّيْءُ لَا يَحِنُّ اِلَّا اِلَى مَا شَاكَلَهُ وَاِنْ كَانَتِ ٱلْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَاِنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَقْدَارَ ٱلْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَوْزَانِ ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ اَقْدَارِ ٱلْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ اَقْدَارَ ٱلْمَعَانِي عَلَى اَقْدَارِ ٱلْمَقَامَاتِ وَاَقْدَارَ ٱلْمُسْتَمِعِينَ عَلَى اَقْدَارِ ٱلْحَالَاتِ . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلمَقَالِ . فَإِنْ كُنْتَ مُتَكَلِّماً أَوِ ٱحْتَجْتَ إِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلخُطَبُ أَوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلقَصْدُ فَتَخَطَّ أَلفَاظَ ٱلمُتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلجِسْمِ وَٱلعَرَضِ وَٱلكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ ...

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ إِنَّ أَحسَنَ ٱلكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيقَلًا لِلعُقُولِ وَمُجْلِيًا لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلحُجَّةِ . وَٱلحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱليَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلأَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلكَذِبِ . إِنْ أَوجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ أَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَإِنْ أَومَأَ كَانَ مُقْنِعًا . وَإِنْ أَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَإِنْ أَمَرَ فَنَاصِحًا . وَإِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَإِنْ أَخبَرَ فَصَادِقًا . وَإِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلقُلُوبُ حُلْوٌ إِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : أَبلَغُ ٱلكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلفَائِدَةُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلقَافِيَةِ بِأَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفْظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَانْ يَكُونَ حُسْنُ ٱلِابْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِانْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَإِلَى جَنْبِ أُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ اوْلَى حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ لَفْظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ أُلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِكْمَةِ وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفْظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّدْرِ وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَاهِرَ ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ . فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ ايْضًا فِي كُتُبِ ٱلْأَدَبِ: إِنَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ اسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَابْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي أَعْمَاقِ أَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ إِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِأَلْفَاظٍ كَيِّسَةٍ بِأَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِإِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ اهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِأَنِّي لَمْ اقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ إِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ إِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَأَحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلِّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ ٱللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ ٱلطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ ٱلْاسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ ٱلْاخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ ٱلتَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي ٱلْقَلْبِ صَنِيعَ ٱلْغَيْثِ فِي ٱلتُّرْبَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ ٱلشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَسَاهَا ٱللهُ مِنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ ٱلتَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ ٱلْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ ٱلْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَٱلشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَٱطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ ٱلرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ ٱلتَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ ٱلْأَسْمَاعُ عَلَى ٱلطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِٱلْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِٱلْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكِرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلْكَلِمَةِ غَيْرُهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَأَخِّرُ وَتَأَخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . أَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ تَكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . أَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصَدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ أَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى أَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْإِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ أَبُو ٱلتَّمَّامِ إِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا ٱبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى   وَٱللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ ٱلْجِلْبَابِ

فَإِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْأَصْوَاتُ وَتَسْكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ أَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْأَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

ٱلظَّلْماء بِطَلَائِعِ ٱلاَضواء . وَبِدُونِ ذٰلِكَ يَنقَسِمُ ٱلفِكْرُ وَيشْتَغِلُ ٱلقَلْبُ وَوَسَطُ ٱللَّيلِ خَالٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ . وَلِهٰذَا خصّ ابو تمَّام تَهْذِيبَ ٱلفِكْرِ بِٱلدُّجى عادِلًا عَنِ ٱلطَّرفَيْنِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلشَّواغِلِ ٱلمَذكُورةِ. وَحَكَتِ ٱلثِقَاتُ عَنْ ابي عِبادَةَ ٱلبُحْتُرِيّ قَالَ : كُنتُ فِي حداثتي اروُمُ ٱلشِعْرَ وَكُنْتُ ارجِعُ فِيهِ اِلَى طَبعٍ سَلِيمٍ وَلَمْ اَكُنْ وَقَفْتُ لَهُ عَلى تَسْهِيلِ مَأخَذٍ وَوُجُوهِ ٱقتِضَابٍ حَتَّى قَصدتُّ ابا تَمَّامٍ وَٱنقَطَعْتُ اِلَيهِ وَٱتَّكَلْتُ فِي تَعرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ اوّلُ مَا قالَ لِي : يا ابا عِبادَةَ تَخَيَّرِ ٱلاَوْقَاتَ وَانتَ قَلِيلُ ٱلهُمُومِ صِفرٌ مِنَ ٱلغُمُومِ . وَٱعلَمْ اَنَّ ٱلعَادَةَ فِي ٱلاَوقَاتِ اِذَا قَصدَ ٱلاِنسانُ تأليفَ شَيْءٍ اَو حِفظَهُ اَنْ يَختارَ وَقتَ ٱلسَّحرِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّفسَ تَكُونُ قَدْ اَخذَتْ حظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحةِ وَقِسْطَهَا مِنَ ٱلنَّومِ وَخَفَّ عَنْهَا ثِقَلُ ٱلغِذَاءِ . وَصَفَا مِنْ اَكثَرِ ٱلاَبخِرةِ وَٱلاَدْخِنَةِ جِسْمُ ٱلهَواءِ . وَسَكَنَتِ ٱلغَمائِمُ . وَرَقَّتِ ٱلنَّسائِمُ . وَتَغَنَّتِ ٱلحَمائِمُ . وَاِذا شرَعتَ فِي ٱلتَّأليفِ تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ فَاِنَّ ٱلغِنَاءَ مِضْمَارُهُ ٱلَّذِي يَجْرِي فِيهِ . وَٱجتَهِدْ فِي اِيضَاحِ مَعانِيهِ . فَاِنْ اَرَدْتَّ ذِكْرَ ٱلاَحبابِ فَٱجعَلِ ٱللَّفظَ رَقِيقًا وَٱلمَعنَى رَشِيقًا وَاَكثِرْ فِيهِ مِنْ بَيانِ ٱلكَآبَةِ . وَقَلَقِ ٱلاَشوَاقِ . وَلَوعَةِ ٱلفِرَاقِ وَٱلتَّعَلُّلِ بِٱستِنْشَاقِ ٱلنَّسائِمِ . وَغِنَاءِ ٱلحَمائِمِ . وَٱلبُرُوقِ ٱللَّامِعَةِ . وَٱلنُّجُومِ ٱلطَّالِعَةِ . وَٱلتَّبَرُّمِ مِنَ ٱلعُذَّالِ . وَٱلوُقُوفِ عَلَى ٱلاَطلَالِ . وَاِذَا اَخذتَ فِي مَدْحِ سَيِّدٍ فَاَشْهِرْ مناقِبَهُ وَاَظْهِرْ مَنَاسِبَهُ وَاَرْهِبْ مِنْ عَزَائِمِهِ وَاَرْغِبْ فِي مَكَارِمِهِ . وَٱحذَرِ ٱلمَجْهُولَ مِنَ ٱلمَعَانِي وَاِيَّاكَ اَنْ تَشِينَ شِعْرَكَ بِٱلعِبَارَةِ وَٱلاَلفَاظِ

ٱلْوَحشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْأَلفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْأَجسَامِ . وَإِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعمَلْ إِلَّا وَأَنتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ إِلَّا بِشَهْوَةٍ فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَٱقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَٱجْتَنِبْهُ

وَأَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْأَصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ أَوْرَدَهَا أَيضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَٱخْتَرْتُ مِنهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَأَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ أَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ أَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِي قَبلَ ٱلْأَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ أَيضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنَ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ إِذَا رُفِقَ بِهَا حَمَتْ وَإِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا تَرَحَتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَإِنَّ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ إِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَإِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ   إِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

اِعلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ اِلَّا بِهَا وَلَا يَعْرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ : (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِدَاعٍ يَدْعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي ٱجْتِلَابِ نَفْعٍ اَوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ. (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ. فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ اَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا .وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ. فَاَمَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَا سَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا. كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ : اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ : تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي . فَقَالَ : يَا عَمُّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ . فَقَالَ : يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا . ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ :

كَأَيِّنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وَكَالَّذِي حُكِيَ عَنْ أَبِي الْفَقِيهِ : إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيُطِيلُ الصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ : أَلَا تَسْأَلُ . قَالَ : بَلَى مَتَى يُفْطِرُ الصَّائِمُ . قَالَ : إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ . قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَغْرُبْ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ . (قَالَ) فَتَبَسَّمَ أَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ الْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ :

عَجِبْتُ لِإِزْرَاءِ الْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتِ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالْعِلْمِ أَعْلَمَا
وَفِي الصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فَانْظُرْ إِلَى هٰؤُلَاءِ كَيْفَ أَبَانُوا بِالْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَأَعْرَبُوا بِالسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ إِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا إِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لِسَانُ الْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ الْكَلَامَ رَجَعَ إِلَى قَلْبِهِ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَمْسَكَ . وَقَلْبُ الْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : عَقْلُ الْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : احْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ أَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ أَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقَصِّرُ عَنِ الصَّوَابِ وَيُسْرِعُ إِلَى الْجَوَابِ . وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِيُّ :

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تبعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: إِذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِٱنْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قُدِّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ أُخِّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا نَزْرُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِنْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِٱنْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللّٰهُ وَجْهَ ٱمْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: إِنَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ أُذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنْذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنْطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَٱقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ . فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضْعِفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمُهْجَةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ ... إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرًا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ عَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذُمَّ ٱلْكَلَامُ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

أَمْلَاهُ . وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ فِي خُطَبَاءِ إِيَادٍ :

يَرْمُونَ بِالْخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيَ الْمَلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ صَالِحٍ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ إِذَا أَقْلَلْتَ مِنَ الْكَلَامِ أَكْثَرْتَ مِنَ الصَّوَابِ . فَقَالَ : يَا أَبَتِ فَإِنْ أَنَا أَكْثَرْتُ وَأَكْثَرْتُ (يَعْنِي كَلَامًا وَصَوَابًا) . فَقَالَ : يَا بُنَيَّ مَا رَأَيْتُ مَوْعُوظًا أَحَقَّ بِأَنْ يَكُونَ وَاعِظًا مِنْكَ . وَأَنْشَدتُ لِأَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ :

تَكَلَّمْ وَسَدِّدْ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا كَلَامُكَ حَيٌّ وَالسُّكُوتُ جَمَادُ

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُهُ فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدَادِ سَدَادُ

وَقِيلَ لِإِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيْبٌ إِلَّا كَثْرَةُ الْكَلَامِ . فَقَالَ : أَفَتَسْمَعُونَ صَوَابًا أَوْ خَطَأً . قَالُوا : لَا بَلْ صَوَابًا . قَالَ : فَالزِّيَادَةُ مِنَ الْخَيْرِ خَيْرٌ . وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْجَاحِظُ : لِلْكَلَامِ غَايَةٌ وَلِنَشَاطِ السَّامِعِينَ نِهَايَةٌ وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقْدَارِ الِاحْتِمَالِ وَدَعَا إِلَى الِاسْتِثْقَالِ وَالْمَلَالِ فَذَلِكَ الْفَاضِلُ هُوَ الْهَذَرُ . وَصَدَقَ أَبُو عُثْمَانَ لِأَنَّ الْإِكْثَارَ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ صَوَابًا يُمِلُّ السَّامِعَ وَيُكِلُّ الْخَاطِرَ وَهُوَ صَادِرٌ عَنْ إِعْجَابٍ بِهِ لَوْلَاهُ قَصُرَ عَنْهُ . وَمَنْ أُعْجِبَ بِكَلَامِهِ اسْتَرْسَلَ فِيهِ وَالْمُسْتَرْسِلُ فِي الْكَلَامِ كَثِيرُ الزَّلَلِ دَائِمُ الْعِثَارِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ أُعْجِبَ بِقَوْلِهِ أُعِيبَ بِعَقْلِهِ وَلَيْسَ لِكَثْرَةِ الْهَذَرِ رَجَاءٌ يُقَابِلُ خَوْفَهُ وَلَا نَفْعٌ يُوَازِي ضُرَّهُ لِأَنَّهُ يَخَافُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّلَلَ وَمِنْ سَامِعِيهِ الْمَلَلَ وَلَيْسَ فِي مُقَابَلَةِ هٰذَيْنِ حَاجَةٌ دَاعِيَةٌ وَلَا نَفْعٌ مَرْجُوٌّ . قَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : إِذَا كَانَ الْإِيجَازُ كَافِيًا كَانَ الْإِكْثَارُ عِيًّا وَإِنْ

كَانَ ٱلْاِكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: إِذَا تَمَّ ٱلعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلأُدَبَاءِ: مَنْ اَطَالَ صَمْتَهُ اَجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوُحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَاَقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبْلِغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ: فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ اَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ اُطْلِقَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمُ جَلْوَتَهُ حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَامَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِاَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْاِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ اَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ اَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا. وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ: مَا ٱلْاِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلْ اِلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ اَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْاِنْسَانِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى اَصْلِهِ بِفِعْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ اَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِي بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِاَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مُفْرَدَةٍ وَلَا لِأَلْفَاظِهَا غَايَةٌ . وَإِنَّمَا ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ تَكُونَ بِٱلْمَعَانِي ٱلصَّحِيحَةِ مُسْتَوْدَعَةً فِي أَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةُ ٱلْأَلْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلْمَعَانِي هِيَ ٱلْبَلَاغَةَ

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَائِلِ : لَا تَكْمُلُ آلَةُ ٱلْبَلِيغِ إِلَّا إِذَا خَلَا كَلَامُهُ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَسُوءِ ٱلصَّنْعَةِ وَكَانَ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ مُتَبَاعِدًا عَنِ ٱلْحَشْوِ. فَقَوْلُهُ : (يَكُونُ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ) فَٱلتَّكَلُّفُ طَلَبُ ٱلشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ لِلْجَهْلِ بِطَرَائِقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَةِ . فَٱلْكَلَامُ إِذَا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجُهْدٍ وَتُنُووِلَتْ أَلْفَاظُهُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ . وَقَالُوا : لَيْسَ ٱلْفِقْهُ بِٱلتَّفَقُّهِ وَلَا ٱلْفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيِّدٌ فِي كَلَامِهِ إِلَّا لِنَقْصٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ . وَمِمَّا ٱتَّفَقَتْ عَلَيْهِ ٱلْعَرَبُ وَٱلْعَجَمُ قَوْلُهُمْ : ٱلطَّبْعُ أَمْلَكُ . قَالَ ٱلْعَرْجِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... وَمَنْ شَمَائِلُهُ ٱلتَّبْدِيلُ وَٱلْمَلَقُ
اِرْجِعْ إِلَى خُلُقِكَ ٱلْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ ٱلْخُلُقُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ سُوسِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ خِيمُهَا

وَقَالَ آخَرُ :

كُلُّ آمْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ   وَإِنْ تَخَلَّقَ اَخلَاقًا اِلَى حِينِ

وَمِثَالُ ٱلتَّكَلُّفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي دُعَائِهِ : اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا وَاِلٰهَنَا مَنْ اَرَادَ بِنَا سُوءًا فَاحِطْ ذٰلِكَ ٱلسُّوءَ بِهِ وَارْسِخْهُ فِيهِ كَرُسُوخِ ٱلسِّجِّيلِ فِي اَصْحَابِ ٱلْفِيلِ. وَٱنْصُرْنَا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحَسُودٍ كَمَا ٱنْتَصَرْتَ لِنَاقَةِ ثَمُودٍ. ثُمَّ قَالَ : (بَرِيئًا مِنْ سُوءِ ٱلصَّنْعَةِ) فَسُوءُ ٱلصَّنْعَةِ يَتَصَرَّفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا : سُوءُ ٱلتَّقْسِيمِ وَفَسَادُ ٱلتَّفْسِيرِ وَقُبْحُ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَٱلتَّطْبِيقِ وَفَسَادُ ٱلنَّسْجِ وَٱلسَّبْكِ . فَاِذَا اَخَلَّ ٱلْكَاتِبُ بِذٰلِكَ فَاتَتْهُ فَضِيلَتُهُ وَعَلِقَتْ بِهِ رَذِيلَةُ فَوْتِهِ فَعَفَّى عَلَى جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ وَعَمَّى سَائِرَ فَضَائِلِهِ . لِاَنَّهُ اِذَا لَمْ يَفْرِقْ بَيْنَ كَلَامٍ جَيِّدٍ وَآخَرَ رَدِيءٍ وَلَفْظٍ حَسَنٍ وَآخَرَ قَبِيحٍ وَشِعْرٍ نَادِرٍ وَآخَرَ بَارِدٍ بَانَ جَهْلُهُ وَظَهَرَ نَقْصُهُ. وَهُوَ اَيْضًا اِذَا اَرَادَ اَنْ يَصْنَعَ قَصِيدَةً اَوْ يُنْشِئَ رِسَالَةً وَقَدْ فَاتَهُ هٰذَا ٱلْعِلْمُ مَزَجَ ٱلصَّفْوَ بِٱلْكَدَرِ وَخَلَطَ ٱلْغُرَرَ بِٱلْعُرَرِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْعَكِرَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ مَهْزَاةً لِلْجَاهِلِ وَعِبْرَةً لِلْعَاقِلِ . وَاِذَا اَرَادَ اَيْضًا تَصْنِيفَ كَلَامٍ مَنْثُورٍ اَوْ تَأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ وَتَخَطَّى حُسْنَ ٱلصَّنْعَةِ سَاءَ ٱخْتِيَارُهُ لَهُ وَقَبُحَتْ آثَارُهُ فِيهِ فَاَخَذَ ٱلرَّدِيءَ ٱلْمَرْذُولَ وَتَرَكَ ٱلْجَيِّدَ ٱلْمَقْبُولَ فَدَلَّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ . وَقَدْ قِيلَ : ٱخْتِيَارُ ٱلرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا اَكْثَرَ مَا وَقَعَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي هٰذِهِ ٱلرَّذِيلَةِ . وَقَوْلُهُ : (بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ) فَٱلتَّعْقِيدُ وَٱلْاِغْلَاقُ سَوَاءٌ وَهُوَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْوَحْشِيِّ وَشِدَّةُ تَعْلِيقِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى يَسْتَبْهِمَ ٱلْمَعْنَى .

قَالَ حَبِيبٌ ٱلطَّائِيُّ :

فَمَا لَكَ بِٱلْغَرِيبِ يَدٌ وَلٰكِنْ　　تَعَاطِيكَ ٱلْغَرِيبَ مِنَ ٱلْغَرِيبِ

أَمَا لَوْ أَنَّ جَهْلَكَ عَادَ عِلْمًا　　إِذًا لَرَسَخْتَ فِي عِلْمِ ٱلْغُيُوبِ

قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ رَجُلًا بِٱسْتِسْهَالِ ٱللَّفْظِ :

قَوْلٌ كَأَنَّ فِرِنْدَهُ　　شَحْذٌ عَلَى ذِهْنِ ٱللَّبِيبِ

لَمْ يَشْمَئِزَّ عَلَى ٱللِّسَا　　نِ وَلَا يَشُذُّ عَلَى ٱلْقُلُوبِ

لَمْ يَغْلُ فِي شَنْعِ ٱللُّغَا　　تِ وَلَا يُوَحِّشُ بِٱلْغَرِيبِ

وَقَوْلُهُ : (غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ) أَيْ هُوَ مُسْتَغْنٍ لِوُضُوحِهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ وَتَرْدِيدِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ مَنْ أَعَارَهُ ٱللهُ مِنْ مَعُونَتِهِ نَصِيبًا وَأَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ إِلَيْهِ ٱلْمَعَانِي وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ ٱللَّفْظِ وَكَانَ قَبْلُ قَدْ أَعْفَى ٱلْمُسْتَمِعَ مِنْ كَدِّ ٱلتَّلَطُّفِ وَأَرَاحَ قَارِئَ ٱلْكِتَابِ مِنْ كَدِّ ٱلتَّفَهُّمِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَقُرْبُ ٱلْمَأْخَذِ وَإِيجَازٌ فِي صَوَابٍ وَقَصْدٌ إِلَى ٱلْحُجَّةِ وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ بِأَيْسَرِ ٱلْخِطَابِ وَٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ . وَهُوَ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱللَّطِيفِ فَيَكْشِفَهُ وَيَنْفِيَ ٱلشَّوَاغِلَ عَنْهُ فَيُفْهِمَهُ ٱلسَّامِعَ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَتَدَبُّرٍ لَهُ . وَقَوْلُهُ : (مُتَبَاعِدًا مِنَ ٱلْحَشْوِ) فَٱلْحَشْوُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : ٱثْنَانِ مِنْهَا مَذْمُومَانِ وَوَاحِدٌ مَحْمُودٌ . فَأَحَدُ ٱلْمَذْمُومَيْنِ هُوَ : إِدْخَالُكَ فِي ٱلْكَلَامِ لَفْظًا لَوْ أَسْقَطْتَهُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ تَامًّا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

أَغنِي فَتًى لَمْ تَذرَّ الشَّمسُ طَالِعَةً   يَوْمًا مِنَ الدَّهرِ إِلَّا ضَرَّ أَوْ نَفَعَا

فَقَوْلُهُ: (يَوْمًا مِنَ الدَّهرِ) حَشْوٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَنَّ الشَّمْسَ لَا تَطْلَعُ لَيْلًا . وَالضَّرْبُ الآخَرُ العِبَارَةُ عَنِ المَعْنَى بِكَلَامٍ طَوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِي طُولِهِ وَيُمكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ بِأَقْصَرَ مِنْهُ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ :

تَبَيَّنْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا   لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا العَامُ سَابِعُ

فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ : لِسَبْعَةِ أَعْوَامٍ . وَيُتِمَّ البَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ فَعَجَزَ عَنْ ذَلِكَ فَحَشَا البَيْتَ بِمَا لَا وَجْهَ لَهُ . وَأَمَّا الضَّرْبُ المَحْمُودُ فَكَقَوْلِ كُثَيِّرٍ :

لَوَ أَنَّ البَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ المِطَالَا

قَوْلُهُ : (وَأَنْتَ مِنْهُمْ) حَشْوٌ إِلَّا أَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسَمِّي أَهْلُ الصَّنْعَةِ هٰذَا الجِنْسَ اعْتِرَاضَ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ الآخَرِ :

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتُهَا   قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوردي باختصار)

إِنْ لَمْ يَفهَمِ العَاقِلُ مَعَانِيَ مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ السَّبَبِ المَانِعِ مِنْهَا لِيَعلَمَ العِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَإِنَّ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ الأَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يَصِلُ إِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو السَّبَبُ المَانِعُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِعِلَّةٍ فِي الكَلَامِ

ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُسْتَخْرِجِ . فَإِنْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: (أَحَدُهَا) أَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا مِنْ حَصَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ. وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ . (ٱلْحَالُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتَصِيرَ ٱلزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ هَذَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ . وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ . (وَٱلْحَالُ ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا ٱلسَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا. وَأَمَّا تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْخَاصَّةِ دُونَ ٱلْعَامَّةِ لِأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ ٱلْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَصِّرِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَوْفِي وَعَنِ ٱلزَّائِدِ إِلَى ٱلْكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكُدُّ خَاطِرَكَ وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِعْوَازِ غَيْرِهِ أَوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَٱنْظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلتَّقْصِيرِ . فَإِنْ كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَٱلزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ ٱسْتِخْرَاجُ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَا لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُخْتَلُّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَفِي ٱلْأَكْثَرِ عَلَى ٱلْأَقَلِّ دَلِيلٌ . وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى

دَلِيلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ أَسْهَلَ .
وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَصْعَبُ
ٱلْأُمُورِ حَالًا وَأَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِأَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُكَلِّمُكَ فَأَنْتَ مِنْ
فَهْمِهِ أَبْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ
بِإِشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ
فَضِيلَةُ ٱلِٱسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ :
عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . (أَمَّا ٱلْعَامَّةُ) فَهِيَ مُوَاضَعَةُ ٱلْعُلَمَاءِ فِيمَا جَعَلُوهُ أَلْقَابًا لِمَعَانٍ
لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عَنْهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِمْ إِلَّا بِهَا كَمَا جَعَلَ
ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْجَوَاهِرَ وَٱلْأَعْرَاضَ وَٱلْأَجْسَامَ أَلْقَابًا تَوَاضَعُوهَا لِمَعَانٍ
ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلْعُلُومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذَا . وَهٰذِهِ
ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلْعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَأَمَّا ٱلْخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِدِ يَقْصِدُ
بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ . فَإِذَا كَانَتْ فِي ٱلْكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا .
وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانَتْ لُغْزًا . فَأَمَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ
مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ : إِمَّا
بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ إِلَيْهِ
وَٱحْتِمَالَ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَإِمَّا لِمَا يَدَّعِي أَرْبَابُهُ
أَنَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَأَنَّ إِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَالصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا
أَرْبَابُهَا ٱسْمًا لِعِلْمِ ٱلْكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِأَوْصَافِهِ وَأَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا
ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلْأَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلْآرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ .
وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

أحبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا ... مُنِعتُ شيئاً فأكثرتُ الولوعَ بهِ

ثُمَّ ليكونوا براءً مِنْ عُهدةِ ما قالوهُ إذا جُرِّبَ ولَوْ كانَ ما تَضمَّنَ هذينِ النوعينِ وأشباههما مِنَ الرُّموزِ معنىً صحيحاً وعلماً مُستفاداً لخرجَ مِنَ الرَّمزِ الخفيّ إلى العلمِ الجليّ. فإنَّ أغراضَ النَّاسِ معَ اختلافِ أهوائِهم لا تتَّفقُ على سترٍ سليمٍ وإخفاءٍ مفيدٍ. وقدْ قالَ زُهيرٌ:

السترُ دونَ الفاحشاتِ ولا ... يلقاكَ دونَ الخيرِ مِنْ سترِ

وربَّما استُعمِلَ الرَّمزُ مِنَ الكلامِ فيما يُرادُ تفخيمُهُ مِنَ المعاني وتعظيمُهُ مِنَ الألفاظِ ليكونَ أحلى في القلبِ موقعاً. وأجلَّ في النُّفوسِ موضعاً. فيصيرَ بالرَّمزِ سائراً وفي الصُّحفِ مُخلَّداً. كالَّذي حُكِيَ عَنْ فيثاغورسَ في وصاياهُ المرموزةِ انَّهُ قالَ: احفظْ ميزانَكَ مِنَ البذى وأوزانَكَ مِنَ الصدى. يُريدُ بحفظِ الميزانِ مِنَ البذى حفظَ اللِّسانِ مِنَ الخنا وبحفظِ الأوزانِ مِنَ الصَّدى حفظَ العقلِ مِنَ الهوى. فصارَ بهذا الرَّمزِ مُستحسناً ومُدوَّناً ولوْ قالَهُ باللَّفظِ الصَّريحِ والمعنى الصَّحيحِ لما سارَ عنهُ ولا استُحسِنَ منهُ. وعِلَّةُ ذلكَ أنَّ المحجوبَ عَنِ الأفهامِ كالمحجوبِ عَنِ الأبصارِ فيما يحصُلُ لهُ في النُّفوسِ مِنَ التَّعظيمِ. وفي القلوبِ مِنَ التَّفخيمِ. وما ظهرَ منها ولمْ يحتجبْ هانَ واستُرذِلَ. وهذا إنَّما يصحُّ استحلاؤهُ فيما قلَّ وهوَ باللَّفظِ الصَّريحِ مُستقِلٌّ. فأمَّا العلومُ المنتشرةُ الَّتي تتطلَّعُ النُّفوسُ إليها فقدِ استغنتْ بقوَّةِ الباعثِ عليها. وشدَّةِ الدَّاعي إليها. عَنِ الاستدعاءِ إليها برمزٍ مُستحلًى ولفظٍ مُستغربٍ. بلْ ذلكَ مُنفِّرٌ لما في التَّشاغلِ باستخراجِ

رُمُوزِهَا مِنَ ٱلْابْطَاءِ عَنْ دَرْكِهَا فَهـذَا حَالُ ٱلرَّمْزِ . وَامَّا ٱللُّغْزُ فَهُوَ تَحَرّي اَهْلِ ٱلْفَرَاغِ وَشُغْلُ ذَوِي ٱلْبطَالَةِ لِيَتَنَافَسُوا فِي تَبَايُنِ قَرَائِحِهِمْ وَيَتَفَاخَرُوا فِي سُرْعَةِ خَوَاطِرِهِمْ فَيَسْتَكِدُّوا خَوَاطِرَ قَدْ مُنِحُوا صِحَّتَهَا فِيمَا لَايُجْدِي نَفعًا وَلَا يُفِيدُ عِلْمًا كَاهْلِ ٱلصِّرَاعِ ٱلَّذِينَ قَدْ صَرَفُوا مَا مُنِحُوهُ مِنْ صِحَّةِ اَجْسَامِهِمْ اِلَى صِرَاعٍ كَدُودٍ يَصْرَعُ عُقُولَهُمْ وَيَهُدُّ اَجْسَامَهُمْ وَلَا يُكْسِبُهُمْ حَمْدًا وَلَايُجْدِي عَلَيْهِمْ نَفعًا . اُنْظُرْ اِلَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رَجُلٌ مَاتَ وَخَلَّفَ رَجُـلًا ... ٱبْنَ اُمِّ ٱبْنِ اَبِي اُخْتِ اَبِيهِ

مَعَـهُ اُمُّ بَنِي اَوْلَادِهِ ... وَابَا اُخْتِ بَنِي عَمِّ اَخِيهِ

اَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَـيْنِ وَقَدْ رَوَّعَكَ صُعُوبَةُ مَا تَضَمَّنَهُمَا مِنَ ٱلسُّؤَالِ اِذَا ٱسْتَكْدَيْتَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ فَعَلِمْتَ اَنَّهُ اَرَادَ مَيتًا خَلَّفَ اَبًا وَزَوْجَةً وَعَمًّا . مَا ٱلَّذِي اَفَادَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَنَفَى عَنْكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . اَلَسْتَ بَعْدَ عِلْمِهِ تَجْهَلُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا مِنْ قَبْلِـهِ وَلَوْ اَنَّ ٱلسَّائِلَ قَلَبَ لَكَ ٱلسُّؤَالَ فَاَخَّرَ مَا قَـدَّمَ وَقَدَّمَ مَا اَخَّرَ لَكُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ بِهِ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِهِ كَمَا كُنْتَ فِي ٱلْجَهْـلِ ٱلْاَوَّلِ وَقَدْ كَدَدْتَ نَفْسَكَ وَاَتْعَبْتَ خَاطِرَكَ . ثُمَّ لَا تَعْدَمُ اَنْ يَرِدَ عَلَيْكَ مِثْـلُ هٰذَا مِمَّا تَجْهَلُهُ فَتَكُونُ فِيهِ كَمَا كُنْتَ قَبْلَهُ . فَاَصْرِفْ نَفْسَكَ تَوَلَّى ٱللّٰهُ رُشْدَكَ عَنْ عُلُومِ ٱلنُّوكَى وَتَكَلُّفِ ٱلْبَطَّالِينَ . ثُمَّ ٱجْعَلْ مَا مَنَّ ٱللّٰهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْخَاطِرِ مَصْرُوفًا اِلَى عِلْمِ مَا يَكُونُ اِنْفَـاقُ خَاطِرِكَ فِيهِ مَذْخُورًا وَكَدُّ فِكْرِكَ فِيهِ مَشْكُورًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : مَنْ اَمْضَى يَوْمَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ . اَوْ فَرْضٍ اَدَّاهُ . اَوْ مَجْدٍ اَثَّلَهُ .

اَوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ . اَوْ خَيْرٍ اَسَّسَهُ اَوْ عِلْمٍ ٱقْتَبَسَهُ . فَقَدْ عَقَّ يَوْمَهُ وَظَلَمَ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

لَقَدْ هَاجَ ٱلْفَرَاغُ عَلَيْكَ شُغْلًا وَاَسْبَابُ ٱلْبَلَاءِ مِنَ ٱلْفَرَاغِ

فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْاَسْبَابِ ٱلْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ حَتَّى خَرَجَ بِنَا ٱلِاسْتِيفَاءُ وَٱلْكَشْفُ اِلَى ٱلْاِغْمَاضِ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِ ٱلسَّامِعِ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَوْدَعِ فَلَا يَخْلُو حَالُ ٱلْمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ اَوْ يَكُونَ مُقَدَّمَةً لِغَيْرِهِ اَوْ يَكُونَ نَتِيجَةً مِنْ غَيْرِهِ . فَاَمَّا ٱلْمُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَضَرْبَانِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ . فَاَمَّا ٱلْجَلِيُّ فَهُوَ يَسْبِقُ اِلَى فَهْمِ مُتَصَوِّرِهِ مِنْ اَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَلَيْسَ هُوَ مِنْ اَقْسَامِ مَا يُشْكِلُ عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ . وَاَمَّا ٱلْخَفِيُّ فَيَحْتَاجُ فِي اِدْرَاكِهِ اِلَى زِيَادَةِ تَأَمُّلٍ وَفَضْلِ مُعَانَاةٍ لِيَنْجَلِيَ عَمَّا اَخْفَى وَيَنْكَشِفَ عَمَّا اَغْمَضَ . وَبِٱسْتِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ فِيهِ يَكُونُ ٱلِارْتِيَاضُ بِهِ وَبِٱلِارْتِيَاضِ بِهِ يَسْهُلُ مِنْهُ مَا ٱسْتَصْعَبَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا بَعُدَ . فَاِنَّ لِلرِّيَاضَةِ جَرَاءَةً وَلِلدِّرَايَةِ تَأْثِيرًا . وَاَمَّا مَا كَانَ مُقَدَّمَةً لِغَيْرِهِ فَضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا اَنْ تَقُومَ ٱلْمُقَدَّمَةُ بِنَفْسِهَا وَاِنْ تَعَدَّتْ اِلَى غَيْرِهَا فَتَكُونَ كَٱلْمُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ فِي تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ مُسْتَدْعِيًا لِنَتِيجَتِهِ . وَٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا اِلَى نَتِيجَةٍ فَيَتَعَذَّرَ فَهْمُ ٱلْمُقَدَّمَةِ اِلَّا بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلنَّتِيجَةِ لِاَنَّهَا تَكُونُ بَعْضًا . وَتَبْعِيضُ ٱلْمَعْنَى اَشْكَلُ لَهُ وَبَعْضُهُ لَا يُغْنِي عَنْ كُلِّهِ . وَاَمَّا مَا كَانَ نَتِيجَةً لِغَيْرِهِ فَهُوَ لَا يُدْرَكُ اِلَّا بِاَوَّلِهِ وَلَا يُتَصَوَّرُ عَلَى حَقِيقَتِهِ

اِلَّا بمُقَدِّمَتِهِ وَٱلاشْتِغَالُ بِهِ قَبْلَ ٱلْمُقَدِّمَةِ عَنَاءٌ . وَاِتْعَابُ ٱلْفِكْرِ فِي ٱسْتِنْبَاطِهِ قَبْلَ قَاعِدَتِهِ اَذًى . فَهٰذَا يُوضِحُ تَعْلِيلَ مَا فِي ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلاَسْبَابِ ٱلْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِهَا . (وَامَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَمِعِ فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا مِنْ ذَاتِهِ . وَٱلثَّانِي مِنْ طَارٍ عَلَيْهِ . (فَامَّا مَا كَانَ مِنْ ذَاتِهِ) فَيَتَنَوَّعُ نَوْعَيْنِ: اَحَدُهُمَا مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ . فَامَّا مَا كَانَ مَانِعًا مِنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَفَهْمِهِ فَهُوَ ٱلْبَلَادَةُ وَقِلَّةُ ٱلْفِطْنَةِ وَهُوَ ٱلدَّاءُ ٱلْعَيَاءُ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: اِذَا فَقَدَ ٱلْعَالِمُ ٱلذِّهْنَ قَلَّ عَلَى ٱلاَضْدَادِ ٱحْتِجَاجُهُ . وَكَثُرَ اِلَى ٱلْكُتُبِ ٱحْتِيَاجُهُ . وَلَيْسَ لِمَنْ بُلِيَ بِهِ اِلَّا ٱلصَّبْرُ وَٱلاِقْلَالُ . لِاَنَّهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ اَقْدَرُ . وَبِٱلصَّبْرِ اَحْرَى اَنْ يَنَالَ وَيُظْفَرَ . وَامَّا ٱلْمَانِعُ مِنْ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ فَهُوَ ٱلنِّسْيَانُ ٱلْحَادِثُ عَنْ غَفْلَةِ ٱلتَّقْصِيرِ وَاِهْمَالِ ٱلتَّوَانِي فَيَنْبَغِي لِمَنْ بُلِيَ بِهِ اَنْ يَسْتَدْرِكَ تَقْصِيرَهُ بِكَثْرَةِ ٱلدَّرْسِ وَيُوقِظَ غَفْلَتَهُ بِاِدَامَةِ ٱلنَّظَرِ . فَقَدْ قِيلَ: لَا يُدْرِكُ ٱلْعِلْمَ مَنْ لَا يُطِيلُ دَرْسَهُ وَيَكُدُّ نَفْسَهُ . وَكَثْرَةُ ٱلدَّرْسِ كَدُودٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ اِلَّا مَنْ يَرَى ٱلْعِلْمَ مَغْنَمًا وَٱلْجَهَالَةَ مَغْرَمًا . فَيَحْتَمِلُ تَعَبَ ٱلدَّرْسِ لِيُدْرِكَ رَاحَةَ ٱلْعِلْمِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَعَرَّةَ ٱلْجَهْلِ . فَاِنَّ نَيْلَ ٱلْعَظِيمِ بِاَمْرٍ عَظِيمٍ . وَعَلَى قَدْرِ ٱلرَّغْبَةِ تَكُونُ ٱلْمَطَالِبُ وَبِحَسَبِ ٱلرَّاحَةِ يَكُونُ ٱلتَّعَبُ . وَقَدْ قِيلَ: طَلَبُ ٱلرَّاحَةِ قِلَّةُ ٱلاِسْتِرَاحَةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: اَكْمَلُ ٱلرَّاحَةِ مَا كَانَتْ عَنْ كَدِّ ٱلتَّعَبِ وَاَعَزُّ ٱلْعِلْمِ مَا كَانَ عَنْ ذُلِّ ٱلطَّلَبِ . . .

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ أَهْلِ ٱلْأَذْهَانِ فَٱجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْأَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَأَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ أَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ إِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَإِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ

فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَإِنَّمَا دُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) أَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ أَحَدٌ لَاسِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ أَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ أَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَإِنْ طَرَأَتْ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْإِكْرَاهِ أَشَدُّ نُفُورًا وَأَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْأَثَرِ : بِأَنَّ ٱلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمِلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ أَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فَتَاَلَّفُوهَا بِالِاقْتِصَادِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّوَسُّطِ فِي التَّقْدِيمِ لِتَحْسُنَ طَاعَتُهَا وَيَدُومَ نَشَاطُهَا. فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْمُسْتَمِعِ مِنَ الْاَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ الْمَعَانِي

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

اِنَّ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ اِذَا رَكِبَتْ اِحْدَاهُمَا الْاُخْرَى. فَسُمِّيَ الْكَلَامُ الْمُتَرَاكِبُ فِي اَلْفَاظِهِ وَفِي مَعَانِيهِ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذًا مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ اسْمٌ لَائِقٌ بِمُسَمَّاهُ. وَوَصَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ زُهَيْرَ بْنَ اَبِي سُلْمَى فَقَالَ: كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ. وَقَدِ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي حَقِيقَةِ الْمُعَاظَلَةِ فَقَالَ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ: اَلتَّعَاظُلُ فِي الْكَلَامِ هُوَ اَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا اَعْرِفُ ذٰلِكَ اِلَّا فَاحِشَ الِاسْتِعَارَةِ. كَقَوْلِ اَوْسِ بْنِ حَجَرٍ:

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا   تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا

فَسَمَّى الظَّبْيَ تَوْلَبًا وَالتَّوْلَبُ وَلَدُ الْحِمَارِ. وَهٰذَا مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ وَهُوَ خَطَأٌ اِذْ لَوْ كَانَ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ صَوَابًا لَكَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُعَاظَلَةِ دُخُولَ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ. وَلَيْسَتْ حَقِيقَتُهَا هٰذِهِ بَلْ حَقِيقَتُهَا مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ التَّرَاكُبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ

إذا رَكِبَتْ إحداهما الأخرى . وهذا المثالُ الذي مثَّل به قُدامةُ لا تَراكُبَ في ألفاظِهِ ولا في معانيهِ . وأما غيرُ قُدامةَ فإنهُ خالفَهُ فيما ذهبَ إليهِ إلا أنهُ لم يقسمِ المعاظلةَ إلى لفظيةٍ ومعنويةٍ ولكنّهُ ضربَ لها مثلًا . كقولِ الفرزدقِ :

وما مثلُهُ في الناسِ إلا مملَّكًا أبو أمِّهِ حيٌّ أبوهُ يقاربُهْ

وهذا من القسمِ المعنويِّ لا من القسمِ اللفظيِّ . ألا ترى إلى تراكُبِ معانيهِ بتقديمِ ما كانَ يجبُ تأخيرُهُ وتأخيرِ ما كانَ يجبُ تقديمُهُ لأنَّ الأصلَ في معناهُ : وما مثلُهُ في الناسِ حيٌّ يقاربُهُ إلا مملَّكًا أبو أمّهُ أبوهُ . وإذ حققتُ القولَ في بيانِ المعاظلةِ والكشفِ عن حقيقتِها فأقولُ : إنَّ المعاظلةَ معاظلتانِ لفظيةٌ ومعنويةٌ (فالمعنويةُ) أنْ يقدَّمَ ما الأولى بهِ التأخيرُ وهوَ من عيوبِ الكلامِ لأنَّ المعنى مختلٌّ بذلكَ ومضطربٌ وذلكَ كتقديمِ الصفةِ أو ما يتعلقُ بها على الموصوفِ وتقديمِ الصلةِ على الموصولِ وغيرِ ذلكَ . كقولِ بعضِهِمْ :

فقدْ والشكُّ بيّنَ لي عناءٌ بوشكِ فراقِهِمْ صُرَدٌ يصيحُ

فإنهُ قدَّمَ قولَهُ (بوشكِ فراقِهِمْ) . وهوَ معمولُ يصيحُ ويصيحُ صفةٌ لصُرَدٍ على صُرَدٍ وذلكَ قبيحٌ . ألا ترى أنهُ لا يجوزُ أنْ يقالَ : هذا من موضعِ كذا رجلٌ وردَ اليومَ . وإنما يجوزُ وقوعُ المعمولِ بحيثُ يجوزُ وقوعُ العاملِ فكما لا يجوزُ تقديمُ الصفةِ على موصوفِها فكذلكَ لا يجوزُ تقديمُ ما اتصلَ بها على موصوفِها . ومن هذا النحوِ

قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا   كَانَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فَإِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ كَانَّ عَلَيْهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : خَطَّ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ قِيَاسٌ عَلَيْهِ وَٱلْأَصْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ (فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ بَهْجَتِهَا قَفْرًا كَانَّ قَلَمًا خَطَّ رُسُومَهَا) إِلَّا أَنَّهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُخْتَلٌّ مُضْطَرِبٌ . وَٱلْمُعَاظَلَةُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهَا فِي ٱلْقُبْحِ وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْبَحِهَا لِأَنَّ مَعَانِيَهُ قَدْ تَدَاخَلَتْ وَرَكِبَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ   أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

(وَهُوَ يُرِيدُ إِلَى مَلِكٍ أَبُوهُ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ) . وَهٰذَا أَقْبَحُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَكْثَرُ ٱخْتِلَالًا ... وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنَ ٱلتَّعَاظُلِ كَثِيرًا كَأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ ذٰلِكَ وَيَتَعَمَّدُهُ . لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا مُتَكَلَّفًا مَقْصُودًا وَإِلَّا فَإِذَا تَرَكَ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ نَفْسَهُ تَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَطَبْعِهَا فِي ٱلِٱسْتِرْسَالِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتَّعْقِيدِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَعْدُومٌ فِي هٰذَا ٱلضَّرْبِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِيضَاحُ وَٱلْإِبَانَةُ وَإِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى . فَإِذَا ذَهَبَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ذَهَبَ ٱلْمُرَادُ بِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱللُّغَاتِ كَٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ هُوَ ضِدُّ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ وَهٰذَا عَارٍ عَنْ هٰذَا ٱلْوَصْفِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ

اللفظي من المعاظلة) فاني تاملته بالاستقراء من الاشعار قديمها ومحدثها ومن النظر في حقيقتها نفسها فوجدتها تنقسم الى خمسة اقسام : (الاول) منها يختص بادوات الكلام . من والى وعن وعلى واشباهها . فان منها ما يسهل النطق به اذا ورد مع اخواته . ومنها ما لا يسهل بل يرد ثقيلا على اللسان ولكل موضع يخصه من السبك . فمما جاء منه قول ابي تمام :

الى خالد راحت بنا ارحبية مرافقها من عن كراكرها نكب

فقوله : (من عن كراكرها) من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به على انه قد وردت هاتان اللفظتان وهما : من وعن في موضع آخر فلم يثقل النطق بهما كقول القائل : من عن يمين الطريق. والسبب في ذلك انهما وردتا في بيت ابي تمام مضافتين الى لفظة الكراكر فثقلت منهما وجعلتهما مكروهتين كما ترى والا فقد وردتا في شعر قطري بن الفجاءة فكانتا خفيفتين كقوله :

ولقد اراني للرماح دريئة من عن يميني مرة وامامي

والاصل في ذلك راجع الى السبك فاذا سبكت هاتان اللفظتان او ما يجري مجراهما مع الفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل كما جاءتا في بيت قطري . واذا سبكتا مع الفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت ابي تمام . ومن هذا القسم قول ابي تمام ايضا :

كأنه لاجتماع الروح فيه له في كل جارحة من جسمه روح

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَّا لَا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ   سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فَقَوْلُهُ : (لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا) مِنَ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ . . . .

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱللَّفْظِيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ ٱلْمَعَانِي مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّانِيَةِ. وَإِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ أَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ أَوِ ٱلْمَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ ٱلنُّطْقُ بِهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهٰذِهِ ٱلْقَافَاتُ وَٱلرَّاآتُ كَأَنَّهَا فِي تَتَابُعِهَا سِلْسِلَةٌ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَكَذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ :

وَٱزْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا   وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ : (وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عُرْفَانَهُ) مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ أَيْضًا فِي رِسَالَتَيْهِ ٱللَّتَيْنِ صَاغَهُمَا عَلَى حَرْفَيِ ٱلسِّينِ وَٱلشِّينِ : فَإِنَّهُ أَتَى فِي إِحْدَاهُمَا بِٱلسِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا . وَأَتَى بِٱلْأُخْرَى بِٱلشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا فَجَاءَتَا كَأَنَّهُمَا رُقَى ٱلْعَقَارِبِ أَوْ خُذْرُوفَةُ ٱلْعَزَائِمِ . وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْقُبْحِ عَلَى مِثْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِٱلْجَيِّدِ وَٱلرَّدِيِّ مِنَ ٱلْكَلَامِ . . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَرَبَ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلْأَصْلُ فِي هٰذِهِ ٱللُّغَةِ قَدْ عَدَلُوا عَنْ

تَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِمْ. وَذَاكَ انَّهُ إِذَا تَكَرَّرَ ٱلْحَرْفُ عِنْدَهُمْ ادْغَمُوهُ ٱسْتِحْسَانًا فَقَالُوا فِي : (جَعَلَ لَكَ) جَعَلَّكَ. وَفِي : (تَضْرِبُونَنِي) تَضْرِبُونِّي. وَكَذٰلِكَ قَالُوا : ٱسْتَعَدَّ فُلَانٌ لِلْأَمْرِ إِذَا تَأَهَّبَ لَهُ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَعْدَدَ. وَٱسْتَتَبَّ ٱلْأَمْرُ إِذَا تَهَيَّأَ. وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَتْبَبَ. وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى انَّهُمْ لِشِدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ لِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ ابْدَلُوا احَدَ ٱلْحَرْفَيْنِ ٱلْمُكَرَّرَيْنِ حَرْفًا آخَرَ غَيْرَهُ فَقَالُوا : امْلَيْتُ ٱلْكِتَابَ. وَٱلْأَصْلُ فِيهِ امْلَلْتُ. فَابْدَلُوا ٱللَّامَ يَاءً طَلَبًا لِلْخِفَّةِ وَفِرَارًا مِنَ ٱلثِّقَلِ. وَإِذَا كَانَ قَدْ فَعَلُوا ذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) انْ تَرِدَ أَلْفَاظٌ عَلَى صِيغَةِ ٱلْفِعْلِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَمِنْهَا مَا يَخْتَلِفُ بَيْنَ مَاضٍ وَمُسْتَقْبِلٍ. وَمِنْهَا مَا لَا يَخْتَلِفُ. فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ ٱلْقَاضِي ٱلْأَرَّجَانِيِّ فِي ابْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا ٱلشَّمْعَةَ فَقَالَ :

بِٱلنَّارِ فَرَّقَتِ ٱلْحَوَادِثُ بَيْنَنَا ... وَبِهَا نَذَرْتُ اعُودُ اقْتُلُ رُوحِي

فَقَوْلُهُ : (نَذَرْتُ اعُودُ) مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا. وَامَّا مَا يَرِدُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلصِّيغَةِ ٱلْفِعْلِيَّةِ. فَكَقَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

اَقِلْ انِلْ اقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ اعِدْ ... زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ ادْنِ سُرَّ صِلِ

فَهٰذِهِ الْفَاظٌ جَاءَتْ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِيغَةُ ٱلْأَمْرِ كَانَّهُ قَالَ : (افْعَلْ افْعَلْ) هٰكَذَا إِلَى آخِرِ ٱلْبَيْتِ. وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلصِّيغَةِ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا لِلْحُرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ أَخُوهُ وَلَا أَقُولُ : ٱبْنُ عَمِّهِ. وَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ وَلَوْ عَطَفَهَا بِٱلْوَاوِ لَكَانَتْ أَقْرَبَ حَالًا . كَمَا قَالَ عَبْدُ ٱلسَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ :

فَسَدَ ٱلنَّاسُ فَٱطْلُبِ ٱلرِّزْقَ بِٱلسَّيْفِ م وَإِلَّا فَمُتْ شَدِيدَ ٱلْهُزَالِ
حِلَّ وَأْمُرْ وَضُرَّ وَٱنْفَعْ وَلِنْ وَٱخْشُنْ م وَأَبْرِزْ ثُمَّ ٱنْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هٰهُنَا بِٱلْوَاوِ لَمْ تَتَرَاكَبِ ٱلْأَلْفَاظُ كَتَرَاكُبِهَا فِي بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ

(ٱلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُ مُضَافَاتٍ كَثِيرَةً كَقَوْلِهِمْ : سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ. وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ قِيلَ : لَبَدُ سَرْجِ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ. وَهٰذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱبْنِ بَابَكَ ٱلشَّاعِرِ فِي مُفْتَتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَأَنْتِ بِمَرْأَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

(ٱلْقِسْمُ ٱلْخَامِسُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ رُمْحًا :

وَمَرَّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرَ مَتْنٍ يَوْمَ ٱلْوَغَى جَسَدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثَقَّفُهُ عِرَاضُهُ فِي ٱلْأَكُفِّ مُطَّرِدَهْ

وَهٰذَا كَٱلْأَوَّلِ فِي قُبْحِهِ وَثِقَلِهِ فَقَاتَلَهُ ٱللهُ مَا أَمْتَنَ شِعْرَهُ وَمَا أَنْحَفَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ . . . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدٍ اَبِيٍّ غَرٍ وَافٍ لَخِي ثِقَةٍ   جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسٍ

وَهٰذَا كَاَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ اَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ : اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خُلِطَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهُمَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ . اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ . وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا. وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ . لِاَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ اَصْلَا سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا . وَاِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ اَوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ . وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ أَنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ هِيَ ٱلتَّرَاكُبُ وَٱلتَّدَاخُلُ إِمَّا فِي ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي ٱلْمَعَانِي عَلَى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا تَرَاكُبَ فِيهِ وَإِنَّمَا هُوَ إِيرَادُ أَلْفَاظٍ غَيْرِ لَائِقَةٍ بِمَوْضِعِهَا ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ. وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْآخَرُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ. (فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ فِي ٱلْكَلَامِ أَمْكَنَ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ نَثْرًا أَوْ نَظْمًا. وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلشِّعْرِ بَلْ يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّثْرِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ يَعْسُرُ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ أَجْلِ ٱلْوَزْنِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي:

فَلَا يُبْرَمُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ ... وَلَا يُحْلَلُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فَلَفْظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَنْ مَوْضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهُ لَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْهَا لَفْظَةَ (نَاقِضٌ) لَجَاءَتِ ٱللَّفْظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيْرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ. وَبَلَغَنِي عَنْ أَبِي ٱلْعَلَاءِ: أَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيْرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسْمِهِ وَكَانَ يَقُولُ: لَيْسَ فِي شِعْرِهِ لَفْظَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ عَنْهَا مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا فَيَجِيءَ حَسَنًا مِثْلَهَا. فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ لٰكِنَّ ٱلْهَوَى كَمَا يُقَالُ أَعْمَى. وَكَانَ أَبُو ٱلْعَلَاءِ أَعْمَى ٱلْعَيْنِ خِلْقَةً وَأَعْمَاهَا عَصَبِيَّةً فَٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلْعَمَى مِنْ جِهَتَيْنِ. وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ وَهِيَ فَكٌّ

ٱلادِغَامِ فِي ٱلفِعلِ ٱلثُّلَاثِيِّ وَنَقْلُهُ اِلَى ٱسمِ ٱلفَاعِلِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يَحسُنُ اَنْ يُقَالَ : بَلَّ ٱلثَّوْبَ فَهُوَ بَالِلٌ . وَلَا : سَلَّ ٱلسَّيفَ فَهُوَ سَالِلٌ . وَهٰذَا لَوْ عُرِضَ عَلَى مَنْ لَاذَوْقَ لَهُ لَادرَكَهُ وَفَهِمَهُ فَكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ كَابِي ٱلطَّيِّبِ . لٰكِنْ لَابُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ . وَانْشَدَ بَعضُ ٱلأُدَبَاءِ بَيْتًا لِدِعْبِلٍ وَهُوَ :

شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ فِي ٱلحَوائِجِ اِنَّهُ   يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فَقُلْتُ لَهُ : عَجُزُ هٰذَا ٱلبَيتِ حَسَنٌ وَامَّا صَدْرُهُ فَقَبِيحٌ . لِاَنَّ سَبْكَهُ قَلِقٌ نَافِرٌ . وَتِلْكَ ٱلفَاءُ ٱلَّتِي فِي قَولِهِ : شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ كَانَّهَا رُكْبَةُ ٱلبَعِيرِ وَهِيَ فِي زِيَادَتِهَا كَزِيَادَةِ ٱلكَرِشِ . . وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلدَّقَائِقِ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلكَلَامِ نَظْمًا كَانَ اَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا اِلَّا ٱلرَّاسِخُ فِي عِلْمِ ٱلفَصَاحَةِ وَٱلبَلَاغَةِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلقِسمِ وَصْلَةُ هَمزَةِ ٱلقَطْعِ وَهِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنْ جَائِزَاتِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي لَاتَجُوزُ فِي ٱلكَلَامِ ٱلمَنْثُورِ . وَكَذٰلِكَ قَطْعُ هَمزَةِ ٱلوَصْلِ لٰكِنَّ وَصْلَ هَمزَةِ ٱلقَطْعِ اَقبَحُ لِاَنَّهُ اَثقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ . فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ قَولُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتَنَبِّي :

يُوَسِّطُهُ ٱلمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ   طِلَابُ ٱلطَّالِبِينَ لَا ٱلِانتِظَارُ

فَقَوْلُهُ : (لَا ٱلِانتِظَارُ) كَلَامٌ نَافِرٌ مِنْ مَوضِعِهِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلقِسمِ اَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ ٱلمَوْصُوفِ وَٱلصِّفَةِ بِضَمِيرِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . كَقَوْلِ ٱلبُحتُرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهُ بِٱللهِ يَوْمَ ٱلتَّفَرُّقِ   وَبِٱلوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهِ ٱلمُتَعَلِّقِ

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي) وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ (بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ اَيْضاً اَنْ تُزَادَ ٱلْاَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ :(ٱلزَّائِرِينَ اَرْضَهُمْ اَوْ دَارَهُمْ اَوِ ٱلزَّائِرِينَ اِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْاَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَاِذَا حَذَفْتَهَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ اَيْضاً :

لَاخَلْقَ اَكْرَمُ مِنْكَ اِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَاِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَاَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْاَشْعَارِ كَثِيرٌ



الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاوَّل

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربهِ)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاللَّفْظِ وَالْخَطِّ وَالْاِشَارَةِ وَالدَّلَالَةِ . وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لَا يَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ اَبْلَغُ مِنْ لَفْظٍ . فَاَمَّا الْخَطُّ وَالْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ الْعَامَّةِ . وَاَمَّا الدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ الْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ الْتُمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ الشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِالشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ الشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ الشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِحْ . وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكِمْ . وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاَجْمِعِ الْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي الْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ الْكَلَامَ الَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : اَلرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ الْحَدِيثَ عُطْلًا فَاَشْنِفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدْتُ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لَهُ معنًى . وَقَالُوا : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يُحْتَجْ بَعْدَهُ إِلَى كَلَامٍ وَلِلْعَرَبِ مِنْ مُوجَزِ ٱللَّفْظِ وَلَطِيفِ ٱلْمَعْنَى فُصُولٌ عَجِيبَةٌ وَبَدَائِعُ غَرِيبَةٌ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلشَّيْبَانِيُّ : إِذَا ٱحْتَجْتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَأَوْسَاطِ ٱلنَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبْ كُلًّا عَلَى قَدْرِ أُبَّهَتِهِ وَجَلَالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَفِطْنَتِهِ وَٱنْتِبَاهِهِ وَٱجْعَلْ طَبَقَاتِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعَلِيَّةُ أَرْبَعٌ وَٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأُخَرُ وَهِيَ دُونَهَا أَرْبَعٌ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا دَرَجَةٌ وَلِكُلٍّ قِسْمَةٌ . لَا يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ ٱلْبَلِيغِ أَنْ يُقَصِّرَ بِأَهْلِهَا عَنْهَا وَيَقْلِبَ مَعْنَاهَا إِلَى غَيْرِهَا . (فَٱلْحَدُّ ٱلْأَوَّلُ) ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعُلْيَا وَغَايَتُهَا ٱلْقُصْوَى ٱلْخِلَافَةُ ٱلَّتِي أَجَلَّ ٱللهُ قَدْرَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا عَنْ مُسَاوَاتِهَا بِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّوْقِيرِ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّانِيَةُ) لِوُزَرَائِهَا وَكُتَّابِهَا ٱلَّذِينَ يُخَاطِبُونَ ٱلْخُلَفَاءَ بِعُقُولِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَيَرْتُقُونَ ٱلْفُتُوقَ بِآرَائِهِمْ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أُمَرَاءُ ثُغُورِهِمْ وَقُوَّادُ جُنُودِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ مُخَاطَبَةُ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ وَمَوْضِعِهِ وَحَظِّهِ وَغَنَائِهِ وَجَزَائِهِ وَٱضْطِلَاعِهِ بِمَا حُمِّلَ مِنْ أَعْبَاءِ أُمُورِهِمْ وَجَلَائِلِ أَعْمَالِهِمْ . (وَٱلرَّابِعَةُ) ٱلْقُضَاةُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ تَوَاضُعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَحِلْيَةُ ٱلْفُضَلَاءِ فَمَعَهُمْ أُبَّهَةُ ٱلسَّلْطَنَةِ وَهَيْبَةُ ٱلْأُمَرَاءِ . وَأَمَّا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأَرْبَعُ ٱلْأُخَرُ فَهُمُ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ أَوْجَبَتْ نِعَمُهُمْ تَعْظِيمَهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ إِلَيْهِمْ وَأَفْضَالُهُمْ تُفَضِّلُهُمْ فِيهَا . (وَٱلثَّانِيَةُ) وُزَرَاؤُهُمْ وَكُتَّابُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمُ ٱلَّذِينَ تُقْرَعُ أَبْوَابُهُمْ وَبِعِنَايَتِهِمْ تُسْتَبَاحُ أَمْوَالُهُمْ . (وَٱلثَّالِثَةُ) هُمُ ٱلْعُلَمَاءُ

يَجِبُ تَوْقِيرُهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ بِشَرَفِ ٱلعِلْمِ وَعُلُوِّ دَرَجَةِ اَهْلِهِ ·
(وَٱلطَّبَقَةُ ٱلرَّابِعَةُ) لِاَهْلِ ٱلْقَدْرِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ وَٱلظَّرْفِ
وَٱلْاَدَبِ فَاِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَكَ بِحِدَّةِ اَذْهَانِهِمْ وَشِدَّةِ تَمْيِيزِهِمْ وَٱنْتِقَادِهِمْ
وَادَبِهِمْ وَتَصَفُّحِهِمْ اِلَى ٱلِاسْتِقْصَاءِ عَلَى نَفْسِكَ فِي مُكَاتَبَتِهِمْ وَٱسْتَغْنَيْنَا
عَنِ ٱلتَّرْتِيبِ لِلسُّوقَةِ وَٱلعَوَامِّ وَٱلتُّجَّارِ بِٱسْتِغْنَائِهِمْ بِمِهَانَتِهِمْ مِنْ هٰذِهِ
ٱلْآلَاتِ وَٱشْتِغَالِهِمْ بِمِهَانَتِهِمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْاَدَوَاتِ · وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ
مِنْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ مَعَانٍ وَمَذَاهِبُ يَجِبُ عَلَيْكَ اَنْ تَرْعَاهَا فِي
مُرَاسَلَتِكَ اِيَّاهُمْ فِي كُتُبِكَ فَتَزِنَ كَلَامَكَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ بِمِيزَانِهِ
وَتُعْطِيَهُ قِسْمَهُ وَتُوَفِّيَهُ نَصِيبَهُ. فَاِنَّكَ مَتَى اَهْمَلْتَ ذٰلِكَ وَاَضَعْتَهُ لَمْ
آمَنْ عَلَيْكَ اَنْ تَعْدِلَ بِهِمْ عَنْ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ مَسْلَكِهِ فَلَا تَعْتَدَّ
بِٱلْمَعْنَى ٱلْجَزْلِ مَا لَمْ تُلْبِسْهُ لَفْظًا لَائِقًا بِمَنْ كَاتَبْتَهُ وَمَلْمَسًا بِمَنْ رَاسَلْتَهُ ·
فَاِنَّ اِلْبَاسَكَ ٱلْمَعْنَى وَاِنْ صَحَّ وَصَرُفَ لَفْظًا مُخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ
ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَتُهُمْ تَهْجِينٌ لِلْمَعْنَى وَاِخْلَالٌ بِقَدْرِهِ
وَظُلْمٌ بِحَقِّ ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ وَنَقْصٌ مِمَّا يَجِبُ لَهُ كَمَا اَنَّ فِي ٱتِّبَاعِ
تَعَارُفِهِمْ وَمَا ٱنْتَشَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُمْ وَجَرَتْ بِهِ اَلْسِنَتُهُمْ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ
وَخُرُوجًا مِنْ حُقُوقِهِمْ وَبُلُوغًا اِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ وَاِسْقَاطًا لِحُجَّةِ اَدَبِهِمْ.
فَمِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمَرْغُوبِ عَنْهَا وَٱلصُّدُورِ ٱلْمُسْتَوْحَشِ مِنْهَا فِي كُتُبِ
ٱلسَّادَاتِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱلْاُمَرَاءِ عَلَى ٱتِّفَاقِ ٱلْمَعَانِي مِثْلُ : اَبْقَاكَ ٱللهُ
طَوِيلًا وَعَمَّرَكَ مَلِيًّا · وَاِنْ كُنَّا نَعْلَمُ اَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ : اَطَالَ
ٱللهُ بَقَاءَكَ · وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ: اَبْقَاكَ ٱللهُ طَوِيلًا · وَلٰكِنَّهُمْ جَعَلُوا هٰذَا

ارجح وزنًا وانبه قدرًا في المخاطبة كما انهم جعلوا : اكرمك الله وابقاك . احسن منزلًا في كتب الفضلاء والأدباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال ان يكون فداه من الخير كما يحتمل ان يكون فداه من الشرّ. على انّ كتّاب العسكر وعوامّهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتّى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجّيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . ولذلك قال محمودٌ الورّاق :

كلُّ من حلّ سرَّ من را من النّا ... س ومن قد يُداخل الأملاكا
لو راى الكلب مائلًا بطريقٍ ... قال للكلب ياجُعلتُ فداكا

وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل ابقاك الله وامتع بك الّا في الابن والخادم المنقطع اليك . واما في كتب الإخوان فغير جائزٍ بل مذمومٌ مرغوبٌ عنهُ . . . ولكلّ مكتوبٍ اليه قدرٌ ووزنٌ ينبغي للكاتب ان لا يجاوزه عنهُ ولا يقصّر به دونهُ . وقد رايتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك خطاب العوامّ في قوله :

واراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذقُ الحديث يقول ما لا يفعلُ

وهذا معنًى صحيحٌ في المدح ولكنّهم اجلّوا قدر الملوك ان يُمدح بما تُمدح به العوامّ لأنّ صدق الحديث وانجاز الوعد وان كان من المدح فهو واجبٌ على العامّة . والملوك لا يُمدحون بالفرائض الواجبة . انّما يحسن مدحهم بالنوافل لانّ المادح لو قال لبعض الملوك : انّك لاتخون ما استودعت وانّك لتصدق في وعدك وتفي

بِعَهْدِكَ . فَكَأَنَّهُ قَدْ أَثْنَى بِمَا يَجِبُ وَلَوْ قَصَدَ بِثَنَائِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ كَانَ أَشْبَهَ بِٱلْمُلُوكِ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَمِيرٍ يَتَوَلَّى مِنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا فَهُوَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُطْلِقُوا هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ إِلَّا فِي ٱلْخُلَفَاءِ خَاصَّةً . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ ٱلْكَيِّسَ هُوَ ٱلْعَقْلُ . وَلٰكِنْ إِنْ وَصَفْتَ رَجُلًا فَقُلْتَ : إِنَّهُ لَعَاقِلٌ . كُنْتَ مَدَحْتَهُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ لَكَيِّسٌ كُنْتَ قَدْ قَصَّرْتَ بِهِ عَنْ وَصْفِهِ وَصَغَّرْتَ مِنْ قَدْرِهِ . إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ بِٱللُّغَةِ لِأَنَّ ٱلْعَامَّةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَى ٱلْكَلِمَةِ وَلٰكِنْ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ ٱلْعَادَةُ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلظَّاهِرِ إِذْ كَانَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَامَّةِ لِهٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ مَعَ ٱلْحَدَاثَةِ وَٱلْغِرَّةِ وَخَسَاسَةِ ٱلْقَدْرِ وَصِغَرِ ٱلسِّنِّ . . . فَٱمْتَثِلْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ وَأَجْرِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْقَوَامِ وَتَحَفَّظْ فِي صُدُورِ كُتُبِكَ وَفُصُولِهَا وَخَوَاتِمِهَا وَضَعْ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَتَخَيَّرْ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَعْنًى يُشَاكِلُهَا وَلْيَكُنْ مَا تَخْتِمُ بِهِ فُصُولَكَ فِي مَوْضِعِ ذِكْرِ ٱلْبَلْوَى بِمِثْلِ : (نَسْأَلُ ٱللّٰهَ دَفْعَ ٱلْمَحْذُورِ وَصَرْفَ ٱلْمَكْرُوهِ) وَأَشْبَاهِ هٰذَا . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ ٱلْمُصِيبَةِ : إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ ٱلنِّعْمَةِ : (ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ خَالِصًا وَٱلشُّكْرُ لِلّٰهِ وَاجِبًا) . فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعَ يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ أَنْ يَتَفَقَّدَهَا وَيَحْتَفِظَ بِهَا . فَإِنَّ ٱلْكَاتِبَ إِنَّمَا يَصِيرُ كَاتِبًا بِأَنْ يَضَعَ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعِهِ فَيُعَلِّقَ كُلَّ لَفْظَةٍ عَلَى طَبَقِهَا مِنَ ٱلْمَعْنَى . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي ٱلرَّسَائِلِ ٱسْتِعْمَالُ ٱلِٱقْتِصَارِ وَٱلْحَذْفِ وَمُخَاطَبَةُ ٱلْخَاصِّ بِٱلْعَامِّ وَٱلْعَامِّ بِٱلْخَاصِّ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ

اَنْ يَجْتَنِبَ ٱللَّفظَ ٱلْمُشْتَرَكَ وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُلْتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ اَيضاً فِي ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْبَلَاغَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي ٱلْاَشْعَارِ ٱلْمَوْزُونَةِ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ وَٱلشِّعْرَ مَقْصُودٌ مُقَيَّدٌ بِٱلْوَزْنِ وَٱلْقَوَافِي . فَلِذٰلِكَ اَجَازُوا لَهُمْ صَرْفَ مَا لَا يَنْصَرِفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا وَٱغْتُفِرَ فِيهِ سُوءُ ٱلتَّظَلُّمِ وَاَجَازُوا فِيهِ ٱلتَّقْدِيمَ وَٱلتَّأْخِيرَ وَٱلْاِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِظْهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ سَائِغٍ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي ٱلْبَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي فِي ٱلرَّسَائِلِ اَنْ يُصَغَّرَ ٱلْاِسْمُ فِي مَوْضِعِ ٱلتَّعْظِيمِ وَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : دُوَيْهِيَةٌ تَصْغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيْلٌ تَصْغِيرُ جِذْلٍ . وَعُذَيْقٌ تَصْغِيرُ عِذْقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ اُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ ... دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا ٱلْاَنَامِلُ

وَقَالَ ٱلْحُبَابُ بْنُ ٱلْمُنْذِرِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : اَنَا عُذَيْقُهَا ٱلْمُرَجَّبُ وَجُذَيْلُهَا ٱلْمُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرْحَةُ اَبُو عُبَيْدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي ٱلْكَلَامِ اَيضاً مِثْلُ قَوْلِهِمْ : كَلَّمْتُ اِيَّاكَ وَاَعْنِي اِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي ٱلشِّعْرِ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَاَحْمِلْ وَاَحْسِنْ فِي اَسِيرِكَ اِنَّهُ ... ضَعِيفٌ وَلَمْ يَأْسِرْ كَإِيَّاكَ آسِرُ

فَتَخَيَّرْ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ اَرْجَحَهَا لَفْظاً وَاَجْزَلَهَا وَاَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَاَكْرَمَهَا حَسَباً وَاَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَاَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَاِنْ حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ ٱللَّفْظَةَ قَبْلَ اَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ ٱلتَّصْرِيفِ اِذَا عَرَضْتَ . وَعَايِرِ ٱلْكَلِمَةَ بِمِعْيَارٍ اِذَا سَنَحَتْ . فَاِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مَخْرَجُ ٱلْكَلَامِ اِذَا كَتَبْتَ : اَنَا فَاعِلٌ . اَحْسَنُ مِنْ اَنْ

تكتب : انا افعل . وموضع آخر يكون فيه (استفعلت) احلى من (فعلت) فادر الكلام على اعكانه وقلبه على جميع وجوهه فاي لفظة رأيتها في المكان الذي ندبتها اليه فانزعها الى المكان الذي اوردتها عليه واوقعها فيه . ولا تجعل اللفظة قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فانك متى فعلت هجنت الموضع الذي حاولت تحسينه وافسدت المكان الذي اردت اصلاحه فان وضع الالفاظ في غير اماكنها وقصدك بها الى غير مصابها انما هو كترقيع الثوب الذي لم يشابهه رقاعه ولم تتقارب اجزاؤه وخرج من حد الجدة وتغير حسنه . كما قال الشاعر :

إن الجديد إذا ما زيد في خلق   يبين للناس ان الثوب مرقوع

كذلك كلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان اسهل وارجى في الاسماع واشد اتصالا بالقلوب واخف على الافواه لا سيما ان كان المعنى البديع مترجما بلفظ مونق شريف ومعايرا بكلام عذب لم يسمه التكليف بميسمه ولم يفسده التعقيد باستهلاكه . . . وقد رأيتهم شبهوا المعنى الخفي بالروح الخفي . واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر . واذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متسقا . وتضاؤل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء في الاطمار الرثة . وانما يدل على المعنى اربعة اصناف : لفظ واشارة وعقد وخط . وقد ذكر له ارسطاليس صنفا خامسا في كتاب

ٱلمنطِقِ وهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنِّصْبَةَ . وَٱلنِّصْبَةُ ٱلحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلأَصْنَافِ ٱلأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفْظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلأَصْنَافِ ٱلخَمْسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلإِسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلإِنْسَانِيَّةِ بِٱلكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلمَنْطِقِ : حَدُّ ٱلإِنْسَانِ ٱلحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلعِبَارَةُ وَٱلخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلإِفَادَةِ هُوَ ٱلبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمِي

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

اَلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا ٱلْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْمُطَابَقَةُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ. فَٱلْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ أَصْلُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ . ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا ٱلْكَلَامَ ٱلْمَطْبُوعَ فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي كَمَلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَدْلُولِهِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ ٱلنُّطْقُ فَقَطْ . بَلِ ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّجِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ بِٱلْأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ وَكَأَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ ٱلْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِٱلْأَقْسَامِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلتَّوْرِيَةِ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ عَنِ ٱلْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ ٱلتَّجَانُسُ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلْإِفَادَةِ . وَهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمِثْلُ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى إِلَى آخِرِ ٱلتَّقْسِيمِ . وَكَذَا : فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا إِلَى آخِرِهِ . وَكَذَا : وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هٰذِهِ ٱلتَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا ٱلْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ

إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَامَّا ٱلْإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَاتَوْا مِنْهُ بِالْعَجَائِبِ . وَاوَّلُ مَنْ احْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ اوْسٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِٱلصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِٱلْعَجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ اوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَٱبْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَٱلْعِتَابِيُّ وَمَنْصُورُ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَابُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى ٱلْبَدِيعِ وَٱلصِّنَاعَةِ اجْمَعَ

فَتَامَّلْ قَوْلَهُمُ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلْفَقِيدَ ٱلصَّنْعَةِ فِي إِحْكَامِ تَالِيفِهِ وَثِقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ ٱلصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْاصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَامَّا ٱلْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنْ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ خَاتِمِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلَّذِينَ جَرَى ٱلْمُتَاخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ اصْنَافُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ عِنْدَ اهْلِهَا وَٱخْتَلَفَتِ ٱصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي ٱلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى انَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي ٱلْإِفَادَةِ وَإِنَّمَا هِيَ تُعْطِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلرَّوْنَقَ . وَامَّا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ اهْلِ ٱلْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي ٱلْفُنُونِ ٱلْادَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَأْيُ ٱبْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ وَادَبَاءِ ٱلْانْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا انْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَامَّا ٱلْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِاسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتُخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْسًا وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَسِمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ. مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ. حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوءِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلْاخْوَانِيَّاتُ وَٱلْعَرِبيَّاتُ بِٱلسُّوقِيَّاتِ وَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ ٱلْاكْتِرَاثِ فِيهِ بِأَصْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢ من علم الادب)

كَلِمَاتُ ٱلْأَسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى أَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ ٱلْأَعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِأَنَّ ٱلْغَرَضَ أَنْ يُجَانِسَ بَيْنَ ٱلْقَرَائِنِ وَيُزَاوِجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ إِلَّا بِٱلْوَقْفِ . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا أَبْعَدَ مَا فَاتْ . وَمَا أَقْرَبَ مَا هُوَ آتْ. لَوْ أُعْطِيَ أَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ ٱلْاعْرَابِ لَٱخْتَلَفَ أَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ وَفَاتَ ٱلسَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَإِذَا رَأَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ ٱلْكَلِمَةَ عَنْ أَوْضَاعِهَا لِلْازْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِٱلْغَدَوَاءِ أَوْ بِٱلْعَشَاءِ . وَهَنَأَنِي ٱلطَّعَامُ وَمَرَأَنِي . وَٱنْصَرِفْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : ٱلْغَدَوَاتِ وَأَمْرَأَنِي وَمَوْزُورَاتٍ . مَعَ أَنَّ فِيهِ ٱرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ ٱللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : أَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا . وَفِيهِ تَرْكُ ٱلْاعْرَابِ مِنْ أَثْنَاءِ ٱلْكَلِمَةِ فَمَا ٱلظَّنُّ بِأَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ ٱلْمُشَبَّهَةِ بِٱلْقَوَافِي . وَٱلْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ فِي أَوَاخِرِ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلْفَوَاصِلِ إِذَا عُرِفَ هٰذَا

فَالاَسجاعُ اَربَعةُ انواعٍ : اَلتَّرصِيعُ وَاْلمتوازِي وَاْلمطرَّفُ وَاْلمتاوزِنُ . اَمَّا (اَلتَّرصِيعُ) فَهُوَ اَنْ تَكُونَ اْلاَلفاظُ مُستَوِيَةَ الاَوزانِ مُتَفِقَةَ اْلاَعجازِ كَقَوْلِهِ: اِنَّ اِلَينَا اِيَابَهُمْ . ثمَّ اِنَّ علَينا حِسابَهُمْ . وَقَوْلِهِ : اِنَّ اْلاَبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَاِنَّ اْلفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . وقَولِهِ: اَللَّهُمَّ اَقبَلْ تَوبَتِي وَاَغسِلْ حَوبَتِي . وَقَولِهِمْ : فُلَانٌ يَفتَخِرُ بِاْلهِمَمِ اْلعالِيَةِ . لَا بِالرِّمَمِ اْلبالِيَةِ. وقَولِهِمْ: حَتَّى عادَ تَعرِيضُكَ وَتَمرِيضُكَ تَصحِيحًا . وَمِنَ النَّظمِ قَولُ اْلخَنساءِ :

حَامِي اْلحَقِيقَةِ مَحمُودِ اْلخَلِيقَةِ مَهدِيِّ الطَّرِيقَةِ نَفَّاعٍ وَضَرَّارِ
جَوَّابِ قَاصِيَةٍ حَزَّازِ نَاصِيَةٍ عَقَّادِ اْلوِيَةٍ لِلخَيلِ جَرَّارِ

وَكَقَولِ اَبِي فِرَاسٍ :

وَاَفعَالُنَا لِلرَّاغِبِينَ كَرِيمَةٌ وَاَموَالُنَا لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ

وَقَولِ اْلاَبِيوَردِيِّ :

يَرُوحُ اِلَيهِمْ عَازِبُ اْلحَمدِ وَافِيًا وَيَغدُو عَلَيهِمْ طَالِبَ الرِّفدِ عَافِيًا

وَقَدْ يَجِيءُ مَعَ التَّجنِيسِ كَقَولِهِمْ : اِذَا قَلَّتِ اْلاَنصَارُ كَلَّتِ اْلاَبصَارُ . وَمَا وَرَاءَ اْلخَلقِ الدَّمِيمِ اِلَّا اْلخُلقُ الذَّمِيمُ . وَمِنَ النَّظمِ قَولُ اْلمُطَرِّزِيِّ :

وَدَرُّ جَلَالِهِ اَبَدًا ثَمِينٌ وَدَرُّ نَوَالِهِ اَبَدًا غَزِيرُ

(وَاْلمُتَوازِي) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى فِي اْلكَلِمَتَينِ اْلاَخِيرَتَينِ مِنَ اْلقَرِينَتَينِ وَاْلوَزنِ مَعَ اتِّفَاقِ اْلحَرفِ اْلآخِرِ مِنهُمَا كَقَولِهِ: فِيهَا سُرُرٌ مَرفُوعَةٌ . وَاَكوَابٌ مَوضُوعَةٌ . وَقَولِهِ : اَللَّهُمَّ اَعطِ مُنفِقًا خَلَفًا .

وَأَعطِ مُمسكًا تلفًا. وقولِ ٱلحريريِّ: ٱلجَانِي حُكمُ دَهرٍ قاسطٍ. إِلى أن أَنتجِعَ أَرضَ واسطٍ. وقولِه: وأَودَى ٱلنَّاطِقُ وٱلصَّامِتُ. وَرَثَى لنَا ٱلحَاسِدُ وٱلشَّامِتُ. (وَٱلمُطَرَّفُ) وهُوَ أن يُرَاعَى ٱلحرفُ ٱلأخيرُ في كِلتَا قرينتَيهِ مِن غيرِ مُراعاةِ ٱلوزنِ. كَقَولِهِ: مَا لَكُم لَا تَرجُونَ لِلّهِ وَقَارًا. وقد خلقَكُم أَطوارًا. وقولِهم: خِيَامُهُ مَحطُّ ٱلرِّحالِ. ومُخَيَّمُ ٱلآمالِ. (وٱلمُتَوازِنُ) وهُوَ أن يُرَاعَى في ٱلكَلِمَتَينِ ٱلأخيرَتَينِ مِنَ ٱلقرينتَينِ ٱلوزنُ مع ٱختِلافِ ٱلحَرفِ ٱلآخِرِ مِنهُما. كَقَولِهِ: وَنَمارِقُ مَصفُوفَةٌ. وزَرَابِيُّ مَبثُوثَةٌ. وقولِهم: ٱصبِرْ عَلَى حَرِّ ٱلقِتَالِ. وَمَضَضِ ٱلنِّزَالِ. وَشِدَّةِ ٱلمَصاعِ ومُداوَمَةِ ٱلمِرَاسِ. فَإِن رَاعَى ٱلوَزنَ في جَمِيعِ كَلِمَاتِ ٱلقَرَائِنِ أَو أَكثَرِهَا وقابلَ ٱلكَلِمَةَ مِنها بِمَا تُعَادِلُهَا وَزنًا كانَ أَحسَنَ. كَقَولِهِ: وآتَينَاهُمَا ٱلكِتَابَ ٱلمُستَبِينَ. وَهَدَينَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلمُستَقِيمَ. وقولِ ٱلحريريِّ: أَسوَدُ يَومِي ٱلأَبيَضُ وأَبيَضُ يَومِي ٱلأَسوَدُ. وَيُسَمَّى هٰذَا فِي ٱلشِّعرِ ٱلمُوازَنَةَ. كَقَولِ ٱلبُحتُرِيِّ:

فَقِفْ مُسعِدًا فِيهِنَّ إِن كُنتَ عَاذِرًا
وَسِرْ مُبعِدًا عَنهُنَّ إِن كُنتَ عَاذِلَا

وَمِمَّا هُوَ شَرطُ ٱلحُسنِ فِي هٰذَا ٱلمُحَافَظَةُ عَلَى تَنَاسُبِهِ وَهُوَ ٱسمٌ جَامِعٌ لِلمُلَاءَمَةِ وَٱلتَّنَاسُبِ. فَٱلمُلَاءَمَةُ تَأليفُ ٱلأَلفَاظِ ٱلمُوافِيَةِ بَعضُهَا لِبَعضٍ فِي ضَربِ ٱلٱعتِدَالِ. كَقَولِ لَبِيدٍ:

وَمَا ٱلمَرءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوئِهِ ... يَعُودُ رَمَادًا بَعدَ إِذ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّلْفِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَةِ وَهُوَ أَنْ يَضُمَّ إِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَأَنْ يَجْمَعَ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ أَيْضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةِ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْأَنَاةُ سَعَادَةٌ ... فَتَأَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً ... وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ أَيْضًا. وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونُ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِأَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ أَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةً تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ:

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ ... يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ٱلْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ:

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلْأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلِاعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

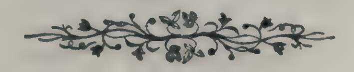
ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِاعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلْفَصْلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقَرٍ فَإِنَّ ٱلْفِقْرَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشْرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

اَلثَّالِثَةُ مِنْهَا خَمسَ لَفظَاتٍ اَوْ ستا لَمَا كَانَ ذٰلِكَ مَعِيبًا

اَلْقِسْمُ اَلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ اَلْفَصلُ اَلْآخَرُ اَقْصَرَ مِنَ اَلْاَوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيْبٌ فَاحِشٌ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ: اَنَّ اَلسَّجعَ يَكُونُ قَدِ اَسْتَوفَى اَمَدَهُ مِنَ اَلْفَصْلِ اَلْاَوَّلِ بِحُكمِ طُولِهِ. ثُمَّ يَجِيءُ اَلْفَصْلُ اَلثَّانِي قَصِيرًا عَنِ اَلْاَوَّلِ فَيَكُونُ كَالشَّيْءِ اَلْمَبْتُورِ فَيَبْقَى اَلْاِنْسَانُ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ اَلِاَنْتِهَاءَ اِلَى غَايَةٍ فَيَعْثُرُ دُونَهَا

وَاِذَا اَنْتَهَيْنَا اِلَى هٰهُنَا وَبَيَّنَّا اَقْسَامَ اَلسَّجعِ وَلُبَّهُ وَقُشُورَهُ فَسَنَقُولُ فِيهِ قَوْلًا كُلِّيًّا وَهُوَ اَنَّ اَلسَّجعَ عَلَى اَخْتِلَافِ اَقْسَامِهِ ضَرْبَانِ: اَحَدُهُمَا يُسَمَّى اَلسَّجعَ اَلْقَصِيرَ وَهُوَ اَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ اَلسَّجعَتَينِ مُؤَلَّفَةً مِنْ اَلْفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ اَلْاَلْفَاظُ كَانَ اَحسَنَ لِقُرْبِ اَلْفَوَاصِلِ اَلْمَسْجُوعَةِ مِنْ مَسْمَعِ اَلسَّامِعِ. وَهٰذَا اَلضَّرْبُ اَوْعَرُ اَلسَّجعِ مَذْهَبًا وَاَبْعَدُهُ مُتَنَاوَلًا وَلَا يَكَادُ اَسْتِعْمَالُهُ يَقَعُ اِلَّا نَادِرًا. وَاَلضَّرْبُ اَلْآخَرُ يُسَمَّى اَلسَّجعَ اَلطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ اَلْاَوَّلِ لِاَنَّهُ اَسْهَلُ مُتَنَاوَلًا. وَاِنَّمَا كَانَ اَلْقَصِيرُ مِنَ اَلسَّجعِ اَوْعَرَ مَسْلَكًا مِنَ اَلطَّوِيلِ لِاَنَّ اَلْمَعْنَى اِذَا صِيغَ بِاَلْفَاظٍ قَصِيرَةٍ عَزَّ مُؤَاتَاةُ اَلسَّجعِ فِيهِ لِقِصَرِ تِلْكَ اَلْاَلْفَاظِ وَضِيقِ اَلْمَجَالِ فِي اَسْتِجْلَابِهِ. وَاَمَّا اَلطَّوِيلُ فَاِنَّ اَلْاَلْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجْلَبُ لَهُ اَلسَّجعُ مِنْ حَيْثُ لَيسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهلًا. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ اَلضَّرْبَيْنِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ اَلْاَلْفَاظِ. اَمَّا اَلسَّجعُ اَلْقَصِيرُ فَاَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفظَتَيْنِ لَفظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ: وَاَلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا. فَاَلْعَاصِفَاتِ عَصْفًا. وَقَوْلِهِ: يَا اَيُّهَا اَلْمُدَّثِّرُ. قُمْ

فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفاً مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ الْعَشَرَةُ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَأَمَّا السَّجْعُ الطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي الطُّولِ أَيْضاً فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ السَّجْعِ الْقَصِيرِ . وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فَالْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَالثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ الْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ : إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّٰهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ أَيْضاً مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ الْعِدَّةِ الْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ



البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْايجازُ حذفُ زِيادَاتِ ٱلْاَلفَاظِ وهٰذَا نوعٌ مِنَ ٱلكَلَامِ شَرِيفٌ لَا يَتعلَّقُ بِهِ اِلَّا فُرسَانُ ٱلبَلَاغةِ مَنْ سَبقَ اِلى غَايَتِهَا وَمَا صلَّى. وَضَرَب فِي اَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِٱلقِدْحِ ٱلمُعلَّى . وَذٰلِكَ لِعُلوِّ مَكَانِهِ. وَتَعذُّرِ اِمكَانِهِ وَٱلنَّظَرُ فِيهِ اِنَّمَا هُوَ اِلى ٱلمعَانِي لَا اِلَى ٱلاَلفَاظِ . وَلَسْتُ اَعنِي بِذٰلِكَ اَنْ تُهمِلَ ٱلاَلفَاظَ بِحَيْثُ تَعْرَى عَنْ اَوصَافِهَا ٱلحَسنَةِ بَلْ اَعْنِي اَنَّ مَدَارَ ٱلنَّظَرِ فِي هٰذَا ٱلنَّوعِ اِنَّمَا يَختَصُّ بِٱلمَعانِي. فَرُبَّ لَفظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى كَثِيرٍ . وَرُبَّ لَفظٍ كَثِيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعنًى قَلِيلٍ . وَمِثَالُ هٰذَا كَٱلجَوهَرَةِ ٱلوَاحِدَةِ بِٱلنِّسبَةِ اِلَى ٱلدَّرَاهِمِ . فَمَنْ يَنظُرُ اِلَى طُولِ ٱلاَلفَاظِ يُؤْثِرُ ٱلدَّرَاهِمَ لِكَثرَتِهَا .وَمَنْ يَنظُرُ اِلَى شَرَفِ ٱلمَعانِي يُؤْثِرُ ٱلجَوهَرَةَ ٱلوَاحِدَةَ لِنَفَاسَتِهَا . قَالَ اَصحَابُ ٱلايجَازِ : ٱلايجَازُ قُصُورُ ٱلبَلَاغَةِ عَلَى ٱلحَقِيقَةِ ومَا تجَاوَزَ مِقدَارَ ٱلحَاجَةِ فَهُوَ فَضْلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ ٱلهَذَرِ وَٱلخَطَلِ وَهُمَا مِنْ اَعظَمِ اَدوَاءِ ٱلكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَفِي تَفضِيلِ ٱلايجَازِ يَقُولُ جَعفَرُ بنُ يَحيَى لِكُتَّابِهِ : اِنْ قَدَرْتُمْ اَنْ تَجعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوقِيعَاتٍ فَٱفعَلُوا . وَقَالَ

بَعْضُهُمْ : ٱلزِّيَادَةُ فِي ٱلْحَدِّ نُقْصَانٌ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ ٱلْامِينُ : عَلَيْكُمْ بِٱلْايجَازِ فَإِنَّ لَهُ إِفْهَاماً وَلِلْإِطَالَةِ ٱسْتِبْهَاماً . وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ : ٱلْقَلِيلُ ٱلْكَافِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ غَيْرِ شَافٍ . وَقَالَ آخَرُ : إِذَا طَالَ ٱلْكَلَامُ عَرَضَتْ لَهُ اَسْبَابُ ٱلتَّكَلُّفِ وَلَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ ٱلتَّكَلُّفُ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلْايجَازُ . قِيلَ : وَمَا ٱلْايجَازُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلشِّعْرَ . فَقَالَ : حَسْبُكَ مِنَ ٱلْقِلَادَةِ مَا اَحَاطَ بِٱلْعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقَالَ : لَسْتُ اَبِيعُهُ مُذَارَعَةً . وَقِيلَ لِلْفَرَزْدَقِ : مَا صَيَّرَكَ إِلَى ٱلْقِصَارِ بَعْدَ ٱلطِّوَالِ . قَالَ : لِأَنِّي رَأَيْتُهَا فِي ٱلصُّدُورِ اَوْقَعَ وَفِي ٱلْمَحَافِلِ اَجْوَلَ . وَقَالَتْ بِنْتُ ٱلْحُطَيْئَةِ لِأَبِيهَا : مَا بَالُ قِصَارِكَ اَكْثَرُ مِنْ طِوَالِكَ . قَالَ : لِأَنَّهَا بِٱلْآذَانِ اَوْلَجُ وَبِٱلْأَفْوَاهِ اَعْلَقُ . وَقَالَ اَبُو سُفْيَانَ لِٱبْنِ ٱلزِّبَعْرِيِّ : قَصَّرْتَ فِي شِعْرِكَ . قَالَ : حَسْبُكَ مِنَ ٱلشِّعْرِ غُرَّةٌ لَائِحَةٌ وَسِمَةٌ وَاضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ : اَلَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ كَمَا اَطَالَ صَاحِبُكَ ٱبْنُ حُجْرٍ . قَالَ : مَنِ ٱنْتَحَلَ ٱنْتَقَرَ . وَقِيلَ لِبَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ : مَالَكَ لَا تَزِيدُ عَلَى اَرْبَعَةٍ وَٱثْنَيْنِ . قَالَ : هِيَ بِٱلْقُلُوبِ اَوْقَعُ وَإِلَى ٱلْحِفْظِ اَسْرَعُ وَبِٱلْأَلْسُنِ اَعْلَقُ وَلِلْمَعَانِي اَجْمَعُ وَصَاحِبُهَا اَبْلَغُ وَاَوْجَزُ . وَقِيلَ لِٱبْنِ حَازِمٍ : اَلَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . فَقَالَ :

اَبَى لِي اَنْ اُطِيلَ ٱلشِّعْرَ قَصْدِي ... إِلَى ٱلْمَعْنَى وَعِلْمِي بِٱلصَّوَابِ
وَإِيجَازِي بِمُخْتَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفْتُ بِهِ ٱلْفُضُولَ مِنَ ٱلْجَوَابِ

فَأَبعثهن أربعة وستا مُثقفة بألفاظ عِذاب
وهنّ إذا وسمتُ بهن قوما كأطواق الحمائم في الرقاب

وقال عليٌّ: ما رأيتُ بليغا قطُّ إلّا وله في القول إيجازٌ وفي المعاني إطالة. وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عيبٌ غيرَ أنك كثيرُ الكلام. قال: أفتسمعون صوابا أم خطأً. قالوا بل صوابا. قال: فالزيادةُ من الخير خيرٌ. وليس كما قال لأنَّ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية. وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال وصار سببا للملال فذلك الهذرُ والاسهابُ والخطلُ وهو معيبٌ عند كلّ لبيب. وقال بعضهم: البلاغةُ بالإيجاز أنجع من البيان بالإطناب. وقالوا: المكثار كحاطب الليل. ومثل الإيجاز الحسن كقوله: وخذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين. فجمع جميع مكارم الأخلاق بأسرها. لأنَّ في العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين. وفي الأمر بالعرف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان عن الكذب وغضَّ الطرف عن المحرمات والتبرؤ من كلّ قبيح لأنّه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلابس شيئا من المنكر. وفي الإعراض عن الجاهلين الصبرُ والحلمُ وتنزيهُ النفس عن مقابلة السفيه بما يوتغ الدين ويُسقطُ القدرة. وقوله: حبُّك الشيءَ يُعمي ويُصمّ. وقوله إنّ من البيان لسحرا. وقوله: نيّةُ المؤمن خيرٌ من عمله. وقوله: تركُ الشرّ صدقةٌ. فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه. وإذا أردتَ أن تعرف صحة ذلك

فَحُلَّهَا وَٱبْنِهَا بِنَاءً آخَرَ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي اَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : إِذَا اَعْطَاكَ ٱللهُ خَيْرًا فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ
مِنَ ٱلْفَضْلِ وَلَا تَلُمْ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ :
(فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ) اَيْ فَلْيَظْهَرْ اَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ
عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) اَيْ
اَكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَاَعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ
نَفْسِكَ) اَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلُ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ اَعْرَابِيٍّ : اُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا اَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِأَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ
بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . اَيْ يَقُونَ اَعْرَاضَهُمْ بِاَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلّٰهِ فِي
يَدِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ اَنَّ
ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : اَمَّا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ
بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ.وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ.
وَقَالَ آخَرُ : إِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَاسْأَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ اَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا إِلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ
يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْإِيجَازُ كَالْأَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ .
وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ
ٱلَّتِي تُقْرَأُ فِي مَلَإٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا طَالَ فِي
مِثْلِ ذٰلِكَ اَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَاَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِشَارَةِ
لَمْ يَقَعْ لِأَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ: اِلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

ٱلْفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلْقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّصَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَٱلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا اذْكُرُهُ : وَهُوَ انَّ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْكَلَامِ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ انْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْعَامِّيَّةَ ٱلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ اقْرَبَ الَى فَهْمِهِمْ. لِأَنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلْكَلَامِ اِذَا كَانَتْ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ اِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تَجْعَلُ تِلْكَ ٱلْعِلَّةَ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَاِنَّهُ لَاخِلَافَ فِي انَّ ٱلْعَامَّةَ اِلَى فَهْمِهِ اقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ اِيَّاهُ . وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَامَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ انْ يَسْلُكَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلْإِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ انْ يَفْهَمَ ٱلْعَامَّةُ كَلَامَهُ فَاِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ اِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلْأَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكُ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَاِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلْأَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ اِلَيْهِ :

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا   وَمَا عَلَيَّ بِاَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْقَوْلُ اِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ اِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَحَدِّهِ وَاقْسَامِهِ وَنُوضِحْ ذٰلِكَ اِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ: حَدُّ ٱلْإِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ انْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ انْ يُدَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ. كَقَوْلِ ٱلْعُجَيْرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ ابْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ   إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجُزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْمُجِيرُ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ   وَكَانَتْ اَحَقَّ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ

فَاِنْ قَوْلَهُ : (لَعَمْرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ لَا فَائِدَةَ فِيهِ اِلَّا اِصْلَاحُ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرُ . اَلَا تُرَى اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلْقَسَمِ وَاِنَّمَا يَرِدُ ٱلْقَسَمُ فِي مَوْضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادُ اِمَّا لِاَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ اَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ اَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لَا يَفْتَقِرُ مَعْنَاهُ اِلَى تَوْكِيدٍ قَسَمِيٍّ اِذْ لَا شَكَّ اَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَاَنَّ كُلَّ اَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكْمِهَا وَيُذْعِنُ لِطَاعَتِهَا . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ اَيْضًا :

اِذَا اَنَا لَمْ اَلُمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ   بُلِيتُ بِهِ ٱلْغَدَاةَ فَمَنْ اَلُومُ

فَقَوْلُهُ : (ٱلْغَدَاةَ) زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ لِلْمَعْنَى اِلَيْهَا لِاَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِاَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلْغَدَاةَ وَلَا ٱلْعَشِيَّ وَاِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُهَا اِيَّاهُ لَا بُدَّ اَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْاَزْمِنَةِ كَائِنًا مَا كَانَ وَلَا حَاجَةَ اِلَى تَعْيِينِهِ بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

مَا اَحْسَنَ ٱلْاَيَّامَ اِلَّا اَنَّهَا   يَا صَاحِبَيَّ اِذَا مَضَتْ لَمْ تُرْجَعِ

فَقَوْلُهُ : (يَا صَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلْمَعْنَى اِلَيْهَا اِلَّا اَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرَ . وَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا عَيْبَ فِيهَا . لِاَنَّا لَوْ عِبْنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرْنَا عَلَيْهِمْ وَضَيَّقْنَا ٱلْوَزْنَ وَيُضْطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ اِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ اِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ فَاِنَّهَا اِنْ وَرَدَتْ حَشْوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيْبًا . وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . . " فَاعْلَمْ أَيُّهَا النَّاظِرُ فِي كِتَابِي هَذَا أَنَّ التَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ الْأَلْفَاظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعَانِي وَمَهْمَا أَمْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ اللَّفْظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي فَإِنَّ ذَلِكَ اللَّفْظَ هُوَ التَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَأَمَّا الْإِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ أَنَّهُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ الْمُفْرَدُ وَالْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى الْكَلَامِ عَلَى الْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَالْقِسْمُ الْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (أَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى التَّقْدِيرَ . (وَالْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى الْقَصْرَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ الَّذِي هُوَ الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي اسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ الْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَإِنَّ التَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَكَةً . وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا عَلَّمَ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . فَنَقُولُ أَمَّا الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فَإِنَّهُ عَجِيبُ الْأَمْرِ شَبِيهٌ بِالسِّحْرِ وَذَاكَ أَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ الذِّكْرِ أَفْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ وَالصَّمْتَ عَنِ الْإِفَادَةِ أَزْيَدَ لِلْإِفَادَةِ وَتَجِدُكَ أَنْطَقَ مَا تَكُونُ إِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَأَتَمَّ مَا تَكُونُ مُبَيِّنًا إِذَا لَمْ تُبِنْ وَهَذِهِ جُمْلَةٌ تُنْكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَالْأَصْلُ فِي الْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى اخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

انْ يَكُونَ فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ ٱلْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ. وَمِنْ شَرْطِ ٱلْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ انَّهُ مَتَى اُظْهِرَ صَارَ ٱلْكَلَامُ إِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ اوَّلًا مِنَ ٱلطُّلَاوَةِ وَٱلْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلْإِعْرَابِ كَقَوْلِنَا: اَهْلًا وَسَهْلًا. فَإِنَّ نَصْبَ ٱلْأَهْلِ وَٱلسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِهِ بِٱلْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى اَيْ إِنَّهُ يَحُلُّ ٱلْأُمُورَ وَيَعْقِدُهَا. وَٱلَّذِي يَظْهَرُ فِي ٱلْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَٱلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْجُمَلِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْمُسَاوَاةُ هِيَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمَعَانِي بِقَدْرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْأَلْفَاظُ بِقَدْرِ ٱلْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِطْنَابِ وَإِلَيْهِ اَشَارَ ٱلْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَانَّ اَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لايزيد بعضها على بعض . فمما جاء من ذلك قوله : لا تزال امتي بخير ما لم ترَ الامانة مغنماً والزكاة مغرماً . وقوله : اياك والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العزة . ومن الفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه اكثر من الفاظه وانما يكره تميزها كراهة الاطالة . ومن نثر الكتاب قول بعضهم : سألت عن خبري وانا في عافية لاعيب فيها الا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الا بك . وقوله : علمتني نبوتك سلوتك واسلمني يأسي منك الى الصبر عنك . وقوله : فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى اصلاحك والاصلاح اليك واجزل من الخير حظك والحظ منك ومن عليك وعلينا بك . وقال آخر يئست من صلاحك بي واخاف فسادي بك وقد اطنب في ذم الحمار من شبهك به . ومن المنظوم قول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وقول الآخر :

تهدا الامور باهل الرأي ما صلحت فان تابت فبالاشرار تنقاد

وقول الآخر :

اما الذي يحصيهم فمكثرٌ اما الذي يطريهم فمقلل

وقول الآخر :

اهابك اجلالا وما بك قدرةٌ علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس انك عندها قليلٌ ولكن قل منك نصيبها

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصْحَابُ ٱلاِطْنَابِ: ٱلْمَنْطِقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلْبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِإِشْبَاعٍ وَٱلشِّفَاءُ لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلاِقْنَاعِ . وَاَفْضَلُ ٱلْكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اَشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلْمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلْمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلاَسْتِقْصَاءِ. وَٱلْإِيجَازُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْاِطْنَابُ مُشْتَرِكٌ فِيهِ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ وَٱلْعَيِيُّ وَٱلْفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلْمُرْتَاضُ وَلِمَعْنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلْكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلْقَوْلُ ٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلْكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِطْنَابِ اَخْطَاَ . كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجْبِهِ بِٱلْاِيجَازِ : مَتَى كَانَ ٱلْاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلْاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِكْثَارِ كَانَ ٱلْاِيجَازُ تَقْصِيرًا . وَاَمَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى ٱثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱخْتَصَرَ ٱلْآخَرُ. فَقَالَ لِلْمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ : مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ . وَقَالَ لِلْمُطِيلِ : مَا

اَرَى مَوْضِعَ نُقْصَانٍ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْبَلَاغَةُ الْاِيجَازُ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَالْاِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَلَا شَكَّ فِي اَنَّ الْكُتُبَ الصَّادِرَةَ عَنِ السَّلَاطِينِ فِي الْاُمُورِ الْجَسِيمَةِ وَالْفُتُوحِ الْجَلِيلَةِ وَتَفْخِيمِ النِّعَمِ الْحَادِثَةِ اَوِ التَّرْغِيبِ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ . سَبِيلُهَا اَنْ تَكُونَ مُشْبَعَةً مُسْتَقْصَاةً تَمْلَأُ الصُّدُورَ وَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ . فَالْاِطْنَابُ بَلَاغَةٌ وَالتَّطْوِيلُ عِيٌّ . لِاَنَّ التَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ مَا يَبْعُدُ جَهْلًا بِمَا يَقْرُبُ . وَالْاِطْنَابُ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ طَرِيقٍ بَعِيدٍ نَزِهٍ يَحْتَوِي عَلَى زِيَادَةِ فَائِدَةٍ . وَقَالَ الْخَلِيلُ : يُخْتَصَرُ الْكِتَابُ لِيُحْفَظَ وَيُبْسَطُ لِيُفْهَمَ . وَقِيلَ لِاَبِي عَمْرِو ابْنِ الْعَلَاءِ هَلْ كَانَتِ الْعَرَبُ تُطِيلُ . قَالَ : نَعَمْ كَانَتْ تُطِيلُ لِيُسْمَعَ مِنْهَا وَتُوجِزُ لِيُحْفَظَ عَنْهَا. وَالْاِطْنَابُ اِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ اِيجَازٌ وَهُوَ فِي الْمَوَاعِظِ خَاصَّةً مَحْمُودٌ كَمَا اَنَّ الْاِيجَازَ فِي الْاِفْهَامِ مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ . وَالْمَوْعِظَةُ كَقَوْلِهِ: اَفَاَمِنَ اَهْلُ الْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . اَوْ اَمِنَ اَهْلُ الْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ اَفَاَمِنُوا مَكْرَ اللّٰهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ. فَتَكْرِيرُ مَا كُرِّرَ مِنَ الْاَلْفَاظِ هَا هُنَا فِي غَايَةِ حُسْنِ الْمَوْقِعِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَتَى يُحْتَاجُ اِلَى الْاِكْثَارِ . قَالَ : اِذَا عَظُمَ الْخَطْبُ وَاَنْشَدَ :

صَمُوتٌ اِذَا مَا الدَّهْرُ زَيَّنَ اَهْلَهُ   وَفَتَّاقُ اَبْكَارِ الْكَلَامِ الْمُحَبَّرِ

وَقَالَ آخَرُ :

يَرْمُونَ بِالْخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً   وَحْيِ الْمَلَاحِظِ خَشْيَةَ الرُّقَبَاءِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يُقَلْ لَهُ أَطِلِ ٱلْقَوْلَ أَوْ قَصِّرِ
طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَهْذِرِ
فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ قُضِي لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ
وَإِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ قُضِي لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ أَطَالُوا . وَإِذَا أَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ أَطْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِأَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيِّ : هَلَّا ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَأَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ . وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ إِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَاطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَتَوَكَّدَ ٱلْقَوْلَ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ اهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى اَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ

فَكَرَّرَهَا فِي اَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ اِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ اِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا اَنَّ ٱلْاِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي اَكْثَرِ اَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا اِذَا اَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبُ ذٰلِكَ مِنْهُ . وَذٰلِكَ مِثْلُ اَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ اِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْاَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْاَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ اَحَدٌ . وَلَمَّا اُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ اَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ اَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَاِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْاَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْاَوَّلِ .

وَهٰكَذَا قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ ٱلسُّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

وَٱلْغَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلْخَفْضِ وَٱلْعَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلسُّرَى . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ ٱلْمَدَارِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلدُّخُولِ وَكَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُخْتَارَةً حَسُنَ ٱلْكَلَامُ . وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي مُرَتَّبَةً حَسَنَةً وَٱلْمَعَارِضُ سَيِّئَةً كَانَ ٱلْكَلَامُ مَرْدُودًا فَٱعْتَمِدْ عَلَى مَا مَثَّلْتُهُ لَكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهِ وَفِي ٱلتَّكْرِيرِ وَفِي ٱلتَّطْوِيلِ فَمَلَكَتْنِي حَيْرَةُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا . ثُمَّ وَجَدْتُهُ إِنَّهُ ضَرْبٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لِأَنَّ مِنَ ٱلتَّأْكِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ كَمَا مَرَّ وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِطْنَابُ لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَرَأَيْتُ عُلَمَاءَ ٱلْبَيَانِ قَدِ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَلْحَقَهُ بِٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي هُوَ ضِدُّ ٱلْإِيجَازِ وَهُوَ عِنْدَهُ قِسْمٌ غَيْرُهُ فَأَخْطَأَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَأَبِي هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ وَٱلْغَانِمِيِّ حَتَّى أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ كُتُبَ ٱلْفُتُوحِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُطَوَّلَةً مُطْنَبًا فِيهَا . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ إِنْ عَنَى

بِذٰلِكَ انها تكُونُ ذَاتَ معَانٍ مُتعَدِّدَةٍ قَدِ ٱسْتُقْصِيَ فِيهَا شَرْحُ تِلْكَ ٱلْحَادِثَةِ مِنْ قُبْحٍ اَوْ غَيْرِهِ فَذٰلِكَ مُسلَّمٌ . وَاِنْ عَنَى بِذٰلِكَ انها تكُونُ مُكَرَّرَةَ ٱلْمَعَانِي مُطَوَّلَةَ ٱلاَلفَاظِ قَصْدًا لِافهام ٱلعَامَّةِ فَهذَا غَيْرُ مُسلَّمٍ . وَهُوَ مِمَّا لَا يَذْهَبُ اِلَيهِ مَنْ عِنْدَهُ اَدنَى مَعْرِفَةٍ بِعلمِ ٱلفَصَاحَةِ وَٱلبَلَاغَةِ . وعَلَى هٰذَا فَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ ٱلْكُتُبُ جَمِيعُهَا مِمَّا يُقرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ وَخَوَاصِّهِمْ ذَاتَ اَلفَاظٍ سَهْلَةٍ مَفْهُومَةٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلاَشْعَارُ وَٱلْخُطَبُ وَمَنْ ذَهَبَ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ فَاِنَّهُ بِنَجْوَةٍ عَنْ هٰذَا ٱلفَنِّ . وعَلَى هٰذَا فَاِنَّ ٱلْاِطْنَابَ لَا يَخْتَصُّ بِهِ عَوَامُّ ٱلنَّاسِ وَاِنَّمَا هُوَ لِلْخَوَاصِّ كَمَا هُوَ لِلعَوَامِّ . وَسَاُبيِّنُ حَقِيقَتَهُ وَاُحقِّقُ ٱلقَوْلَ فِيهِ بِحَيْثُ تَزُولُ ٱلشُّبْهَةُ ٱلَّتِي خَبطَ اَرْبَابُ عِلمِ ٱلبيَانِ مِنْ اَجلِهَا وَقَالُوا اَقوَالًا لَا تُعْرِبُ عَنْ فَائِدَةٍ . وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ : اَنَّهُ اِذَا رَجعْنَا اِلَى ٱلاَسْمَاءِ وَٱشْتِقَاقِهَا وَجَدْنَا هٰذَا ٱلِاسْمَ مُنَاسِبًا لِمُسَمَّاهُ وَهُوَ فِي اَصْلِ ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ (مِنْ اَطْنَبَ فِي ٱلشَّيْءِ) اِذَا بَالغَ فِيهِ . وَيُقَالُ : اَطْنَبَتِ ٱلرِّيحُ اِذَا ٱشْتَدَّتْ فِي هُبُوبِهَا . وَاَطْنَبَ فِي ٱلسَّيْرِ اِذَا ٱشْتَدَّ فِيهِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مُقْتَضَى مُسَمَّاهُ كَانَ مَعْنَاهُ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي اِيرَادِ ٱلْمَعَانِي . وَهٰذَا لَا يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ اَنْوَاعِ عِلمِ ٱلبيَانِ وَاِنَّمَا يُوجَدُ فِيهَا جَمِيعًا اِذْ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْهَا اِلَّا وَيُمْكِنُ ٱلْمُبَالَغَةُ فِيهِ . وَاِذَا كَانَ ٱلاَمْرُ كَذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ يُفْرَدَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنْ بَيْنِهَا وَلَا يَتَحَقَّقُ اِفْرَادُهُ اِلَّا بِذِكْرِ حَدِّهِ ٱلدَّالِّ عَلَى حَقِيقَتِهِ . وَٱلَّذِي يُحَدُّ بِهِ اَنْ يُقَالَ : هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى لِفَائِدَةٍ فَهٰذَا حَدُّهُ ٱلَّذِي يُمَيِّزُهُ

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ اِذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَامَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَانَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ اَسْرِعْ. فَانَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظَ وَاحِدٌ. وَٱلتَّكْرِيرُ جُزْءٌ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ اِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ اِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ . وَامَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَاِذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ اِلَيْهَا فَاِنَّ مِثَالَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصَدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْاِيجَازُ هُوَ اَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ اِلَيْهِ وَٱلْاِطْنَابُ وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ اِلَيْهِ . اِلَّا اَنَّ طَرِيقَ ٱلْاِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزَهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ وَٱلْاِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ اَبْلَغُ لِاتِّسَاعِ ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا. اَمَّا (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَاَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ اَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

اِلَيهَا وَيَقُولُ : اِنَّ ٱلرُّؤْيَةَ لَا تَكُونُ اِلَّا بِٱلعَيْنِ وَٱلقَبْضَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِٱلْيَدِ وَٱلوَطْءَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِٱلقَدَمِ وَٱلذَّوقَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِٱلفَمِ . وَلَيسَ ٱلاَمْرُ كَذٰلِكَ بَلْ هٰذَا يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَعظُمُ مِثَالُهُ وَيَعِزُّ ٱلوُصُولُ اِلَيهِ فَيُؤَكَّدُ ٱلاَمْرُ فِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلوَجْهِ دَلَالَةً عَلَى نَيْلِهِ وَٱلحُصُولِ عَلَيهِ . وَامَّا مَا جَاءَ مِنْهُ (عَلَى سَبِيلِ ٱلمَجَازِ) فَقَوْلُهُ : فَاِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلاَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . فَفَائِدَةُ ذِكْرِ ٱلصُّدُورِ هٰهُنَا اَنَّهُ قَدْ تُعُورِفَ وَعُلِمَ اَنَّ ٱلعَمَى عَلَى ٱلحَقِيقَةِ مَكَانُهُ ٱلبَصَرُ وَهُوَ اَنْ تُصَابَ ٱلحَدَقَةُ بِمَا يَطْمِسُ نُورَهَا . وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلقَلْبِ تَشْبِيهٌ وَمَثَلٌ فَلَمَّا اُرِيدَ اِثْبَاتُ مَا هُوَ خِلَافُ ٱلمُتَعَارَفِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلعَمَى اِلَى ٱلقُلُوبِ حَقِيقَةً وَنَفْيُهُ عَنِ ٱلاَبْصَارِ ٱحْتَاجَ هٰذَا ٱلاَمْرُ اِلَى زِيَادَةِ تَصْوِيرٍ وَتَعْرِيفٍ لِيَتَقَرَّرَ اَنَّ مَكَانَ ٱلعَمَى اِنَّمَا هُوَ ٱلقُلُوبُ لَا ٱلاَبْصَارُ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ عِلْمِ ٱلبَيَانِ كَثِيرَةٌ مَحَاسِنُهُ وَافِرَةٌ لَطَائِفُهُ وَٱلمَجَازُ فِيهِ اَحْسَنُ مِنَ ٱلحَقِيقَةِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي اِثْبَاتِ وَصْفِ ٱلحَقِيقِيِّ لِلْمَجَازِيِّ وَنَفْيِهِ عَنِ ٱلحَقِيقِيِّ . (وَامَّا ٱلقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلمُخْتَصُّ بِٱلجُمَلِ فَاِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَى ضُرُوبٍ اَرْبَعَةٍ : (ٱلاَوَّلُ) مِنْهَا اَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ فَيُؤْتَى فِيهِ بِمَعَانٍ مُتَدَاخِلَةٍ . اِلَّا اَنَّ كُلَّ مَعْنًى يَخْتَصُّ بِخَصِيصَةٍ لَيْسَتْ لِلْآخَرِ . وَذٰلِكَ كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

قَطَعَتْ اِلَيَّ ٱلزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَٱلتَاثَ مَأْمُورُ ٱلسَّحَابِ ٱلمُسْبَلِ
مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَاِحْسَانٍ اَغَرَّ مُحَجَّلِ

فَقَوْلُهُ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ وَاِحْسَانٍ اَغَرَّ مُحَجَّلِ)

تَدَاخَلَتْ مَعَانِيهِ إِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْإِحْسَانُ مُتَقَارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِأَنَّهُ لَوِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَإِحْسَانٍ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ بِصِفَةٍ أَخْرَجَتْهَا عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقَالَ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْاشْتِهَارِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْبَكَارَةِ أَيْ أَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ . (وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ أَيْ هُوَ ذُو مَحَاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْمُتَدَاخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِأَوْصَافٍ مُتَبَايِنَةٍ صَارَ ذٰلِكَ إِطْنَابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ أَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْإِطْنَابِ أَحْسَنَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا أَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفُهُ ‏ ‏ ‏ وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهْ

فَإِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطَاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَرَاجِيَهُ يُرَجَّى وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيْسَ هٰذَا تَكْرِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ أَنْ تَكُونَ رَاجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا أَنْ يَكُونَ سَائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيْفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ أَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطَاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَرَاجِيهِ يُرْجَى أَيْ أَنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِهِ رَجَاءُ رَاجٍ فَقَدْ أَيْقَنَ بِٱلْفَلَاحِ وَٱلنَّجَاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرْجَى لِمَكَانِ رَجَائِهِ إِيَّاهُ . وَهٰذَا أَبْلَغُ ٱلْأَوْصَافِ ٱلثَّلَاثَةِ . (ٱلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْإِثْبَاتَ وَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِثْبَاتِ أَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَإِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ أَوْكَدُ وُجُوهِهِ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا
فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْأَوَّلِ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ إِلَّا أَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخَيُّلًا وَتَصْوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوْفِيَ مَعَانِيَ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اَوْ قَصِيدَةٍ . وَهٰذَا اَصْعَبُ ٱلضُّرُوبِ ٱلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَاَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ ٱلْخَاطِرُ ٱلَّذِي يَقْذِفُ بِٱلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ ٱلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ ٱلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ وَٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ : وَقَدْ اَوْرَدْتُ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ ٱلْاَسَالِيبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ ٱلْمَقْصِدِ ٱلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ ٱلطُّرُقُ ٱلثَّلَاثَةُ ... فَاَقُولُ : قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ اِلَى ٱلْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ : كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَٱلسَّلَامُ . وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ ٱلِاخْتِصَارِ . وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ : اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِٱلْفِئَةِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْفِئَةِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱنْقَلَبَ بِٱلْيَدِ ٱلْمَلْأَى وَٱلْعَيْنِ ٱلْقَرِيرَةِ وَكَانَ ٱنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَٱلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ ٱلْجَيْشِ . وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدٍ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ . وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطُشُ بِيَدِهِ . وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُوذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ ٱلضِّبَاعُ ٱلطَّيْرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَأُحضِرَ خَاتَمُهُ وَهُوَ ٱلْخَاتَمُ ٱلَّذِي كَانَ ٱلْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ أَسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو أَنْ يُصَدِّرَ كِتَابَ ٱلْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ ٱلْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ. وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ ٱلضَّرْبِ كَلِيلٌ. وَٱلْعَسَاكِرُ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَأَعْطَتْهُ ٱلْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ ٱلْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ ٱلْأَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ ٱلسَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِٱللِّوَاءِ ٱلَّذِي خَصَّهُ ٱللهُ بِٱسْتِفْتَاحِ ٱلْمَقَالِدِ وَٱسْتِيطَاءِ ٱلْمَنَابِرِ وَعَلَى ٱللهِ إِتْمَامُ ٱلنِّعَمِ ٱلَّتِي ٱفْتَتَحَهَا وَإِجَابَةُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ ٱلَّتِي ٱقْتَرَحَهَا وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ فَصَّلَ ذٰلِكَ ٱلْإِجْمَالَ. وَلَوْ كَتَبْتَ عَلَى وَجْهِ ٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: أَصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَٱلْتَقَى عَسْكَرُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ ٱلْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ ٱلْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ ٱلْجَمْعَانِ. وَحَمِيَ ٱلْقِتَالُ وَٱشْتَدَّ ٱلنِّزَالُ. وَتَرَادَفَتِ ٱلْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ ٱلْمَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَٱحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ ٱلْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَٱلسِّبَاعِ وَٱلذِّئَابِ وَٱلضِّبَاعِ. وَٱنْجَلَتِ ٱلْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ ٱلْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَٱلسَّلَامُ. فَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ ٱلْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذِهِ ٱلْكُتُبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

البحث الاوَّل

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبَدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بَدَعَ ٱلشَّيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا إِذَا أَنْشَأَهُ وَبَدَأَهُ. ويُقَالُ ٱبْتَدَعَ ٱلشَّيْءَ إِذَا ٱخْتَرَعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ . وَٱلْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِإِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ ٱلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيضًا مِنْ صِيغَةِ ٱلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ ٱلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاءِ ٱللهِ تَعَالَى لِإِبْدَاعِهِ اَشْيَاءَ وَإِحْدَاثِهِ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَٱلْبَدِيعُ اَيضًا ٱلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ. وَيُقَالُ : اَبْدَعَ ٱلشَّاعِرُ إِذَا صَنَعَ ٱلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ . وَاَمَّا ٱلْبَدِيعُ اصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي ٱلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءً . فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ ٱلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ . وَقَوْلُهُ:

(اَلْمُطَابِقُ لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى اَلْحَالِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (اَلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ اِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى اَلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا اَلْحَدِّ اَنَّ اَلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا اِلَّا بِشَرْطَيْنِ : اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ اَلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ . وَاَنْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ اَلْوُضُوحِ وَاَلْخَفَاءِ . فَاَلشَّرْطُ اَلْاَوَّلُ هُوَ عِلْمُ اَلْمَعَانِي . وَاَلشَّرْطُ اَلثَّانِي هُوَ عِلْمُ اَلْبَيَانِ فَاِنْ عُدِمَ اَلشَّرْطَانِ اَوْ اَحَدُهُمَا مِنَ اَلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ اَلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ اَلْكَلَامِ بَدِيعًا . اَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا اَلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ اَلْمَعَانِي وَاَلْبَيَانِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَاَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَاَمَّا مَنْفَعَتُهُ فَاِظْهَارُ رَوْنَقِ اَلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ اَلْاُذُنَ بِغَيْرِ اَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِاَلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَاِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا اَلْعِلْمَ لِاَنَّ اَلْاَصْلَ وَاِنْ كَانَ اَلْحُسْنَ اَلذَّاتِيَّ وَكَانَ اَلْمَعَانِي وَاَلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمْ اَعْتَنَوْا بِشَأْنِ اَلْحُسْنِ اَلْعَرَضِيِّ اَيْضًا لِاَنَّ اَلْحُسْنَ اِذَا عَرِيَ مِنَ اَلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ اَلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ اَلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلعَرَبِيّ اِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفظُ وَهُوَ عِلمُ ٱللُّغَةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفظِ بِحَسَبِ مَا يَعتَرِيهِ مِنَ ٱلحَذفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ اَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ اِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلأُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيهَا اِلَّا بِكَلَامِ ٱلعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِاَنَّ ٱلمُعْتَبَرَ فِيهَا اَلفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْآخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِاَنَّهَا رَاجِعَةٌ اِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ اِذْ هُوَ اَمرٌ رَاجِعٌ اِلَى ٱلعَقلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ اَهلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلِاسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيّ وَاَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَاَبِي ٱلعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ اَنَّ اَنوَاعَ ٱلبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ ... وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضاً)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَٱخصّها عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِأَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْآخرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ أَنَّ ٱلْأَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْأَعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِأَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ مِنْ كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَإِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللهُ أَعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَنَّ ٱلْمَعَانِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ إِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا أَنَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذٰلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ أَيْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي: (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ). أَوْ

قَالَ : (اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) اَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ اَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى اَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَطْ كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجْزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا اَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَاَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْاِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْاَبْيَنُ

البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيَّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعلَمْ اَنَّ قُدمَاءَ ٱلْمُصَنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلْفَنَّ فِي آخِرِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمُتَاخِّرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَاَلَّفُوا كُتُبًا. وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِاَبِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِٱللّٰهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ ﻫ (٩٠٩ م) وَهُوَ اَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوْعًا اَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ ﻫ (٨٨٧ م). وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنْهَا عِشْرِينَ نَوْعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنْهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . اَمَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا. ثُمَّ اَقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا اَبُو هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ. ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ ﻫ (١٠٦٣ م) فِي ٱلْعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاَضَافَ اِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي اَحْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاَغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ. ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاَصْبَعِ فَاَوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاَضَافَ اِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنْهَا عِشْرُونَ . وَاَجْرَى تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعَ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ

وَسَماهُ ٱلتَّحرِيرَ وهُوَ اصَحُّ كِتَابٍ صُنِّفَ فِيهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَّكِلْ عَلَى ٱلنَّقْلِ
دُونَ ٱلنَّقْدِ . وَذَكَرَ انَّهُ وَقَفَ عَلَى ارْبَعِينَ كِتَابًا فِي هٰذَا ٱلْعِلْمِ .
وَٱلْبَدِيعِيَّاتُ ٱلْمُشْتَهِرَةُ هِيَ بَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ ٱلْأَدِيبِ صَفِيِّ ٱلدِّينِ ٱلْحِلِّيِّ
سَمَّاهَا كَافِيَةَ ٱلْبَدِيعِيَّةِ وَشَرَحَهَا شَرْحًا حَسَنًا . حَذَا حَذْوَهُ ٱلشَّيْخُ عَبْدُ
ٱلرَّحْمَانِ ٱلْحُمَيْدِيُّ . وَبَدِيعِيَّةُ ابِي جَعْفَرٍ احْمَدَ ٱلرَّعْنِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ
٧٧٩ھ (١٣٧٧ م) وَهٰذِهِ ٱلْبَدِيعِيَّةُ تُعْرَفُ بِبَدِيعِيَّةِ ٱلْعُمْيَانِ . وَبَدِيعِيَّةُ
ٱلشَّيْخِ شَمْسِ ٱلدِّينِ ابِي عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدِ بْنِ جَابِرٍ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى
سَنَةَ ٧٨٠ ھ (١٣٧٨ م) وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ عِزِّ ٱلدِّينِ ٱلْمَوْصِلِيِّ وَوَجِيهِ
ٱلدِّينِ ٱلْيَمَنِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى فِي حُدُودِ سَنَةَ ٨٠٠ ھ (١٣٩٨ م) وَبَدِيعِيَّةُ
ٱلشَّيْخِ تَقِيِّ ٱلدِّينِ بْنِ حِجَّةَ ٱلْحَمَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٨٣٧ ھ (١٤٣٣ م)
وَسَمَّاهَا ٱلتَّقْدِيمَ تَشْتَمِلُ عَلَى مِئَةٍ وَسِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ نَوْعًا ثُمَّ شَرَحَهَا شَرْحًا
مُفِيدًا وَهُوَ مَجْمُوعُ ادَبٍ قَلَّ انْ يُوجَدَ فِي غَيْرِهِ . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلشَّيْخِ جَلَالِ
ٱلدِّينِ ٱلسُّيُوطِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٩١١ ھ (١٥٠٠ م) وَتُسَمَّى نَظْمَ
ٱلْبَدِيعِ ثُمَّ شَرَحَهَا . وَبَدِيعِيَّةُ ٱلْفَاضِلَةِ عَائِشَةَ ٱلْبَاعُونِيَّةِ نَظَمَتْهَا عَلَى
مِثَالِ قَصِيدَةِ ٱلْحَمَوِيِّ مَعَ عَدَمِ تَسْمِيَةِ ٱلنَّوْعِ . وَاتَى بَعْدَهَا ٱلشَّيْخُ
عَبْدُ ٱلْغَنِيِّ ٱلنَّابُلُسِيُّ وَنَظَمَ قَصِيدَتَيْنِ ٱلْتَزَمَ بِإِحْدَاهُمَا تَسْمِيَةَ ٱلنَّوْعِ

بديعيَّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطلع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ رُحْ لِي إِلَيْهِ بِهِ رُحْبِي كَذَا هِمَمِي

الجناس المذيّل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجَبٌ وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

أَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا فَإِنْ هَوِيتُ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ أَلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

أَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنًا أَزَاحَ لَهُ تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ أُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْأَحِبَّةِ بَلْ إِنِّي أُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِخِدْرِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ أَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي أَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

اِنّي ٱسْتَعَرْتُ جِيادَ ٱلدَّمْعِ فِي سَفَرِي جَرْيًا وَرَاءَ مَتَابٍ فِي سَبِيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وَعُدتُ بِٱسْمِ ٱبْنِ رَعْدٍ ثُمَّ بِٱسْمِ ٱبِي اِمْحَقْ يَامَعْنَوِيٌّ فِي ٱلْهَوَى بِهِمِ

الاستطراد

مُسْتَطْرِدًا فِي هَوَاهُمْ خَيْلَ مُنْعَطَفِي كَادْمُعِي قَدْ جَرَتْ شَوْقًا لِقُرْبِهِمِ

الاستخدام

سَقَى ٱلْإِلٰهُ ٱلْحَيَا خَيْلًا رَعَتْهُ قَدِ ٱسْـ تَخْدَمْتُهَا قَصْدَ اِدْرَاكٍ لِوَصْلِهِمِ

التخيير

بِرَبْعِهِمْ قَدْ تَخَيَّرْتُ ٱلْعَنَاءَ وَلَا م ٱلْبَقَاءَ فِي سَعَةٍ فِي غَيْرِ رَبْعِهِمِ

التذييل

اَذُمُّ تَذْيِيلَ عَذْلٍ طَالَ مِنْكَ كَفَى يَاعَاذِلِي ٱلْعَذْلُ مَذْمُومٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ

الايداع

وَعِنْدَ اِيدَاعِهِ سَمْعِي مَلَامَتَهُ مَزَجْتُ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَدْ ضَلَّ رَأْيًا بِطَعْنٍ ظَلَّ يَلْفِظُهُ فَٱلْقَلْبُ مَاحَالَ مِنْ لَاحٍ عَنِ ٱلذِّمَمِ

الاكتفاء

لَمْ يَكْتَفِ ٱلْعَاذِلُ ٱلنَّمَّامُ مِنْ حِيَلٍ فَكَمْ لِذَاكَ خَبَا لِلْعَاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرْحَمْ وَدَعْ وَٱتَّئِدْ وَٱشْفِقْ وَلِنْ وَٱرِحْ فَوِّفْ وَوَشِّ وَجُدْ وَٱنْظِمْ وَمِقْ وَهِمِ

الملفق

اَبَى نَوَالِيَ بِٱلتَّلْفِيقِ مِنْهُ كَمَا اَبَانَ وَالِيَّ وَجْدٍ عَنْ وَلَائِهِمِ

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةً وَجَدَى   وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضمِ

الالتفات

فَمَا ٱلتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَـةٍ   عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَا كُرَبٍ بِرِكْ اَخَا فَرَحٍ   فَيَسْتَوِي ٱلْقَلْبُ بِالْافْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

الموازبة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَارَبَـةٍ   فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا ٱلْعَذْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْـتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ   حَتَّى ٱلْمَنَـايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْمُخَاصِمِ عَجْـ   ـزَهُ وَاُخْزِي ٱلْعِدَى يَوْمَ ٱلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْـئَلَةٍ   فَقَابِلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْاَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ اَسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي   فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد به الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلـدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ   فَقَالَ اَرْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ   سَالٍ فَقُلْتُ لِجِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غَيْبَتِهِ   مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ أَنْتَ بَلْ شُغُلٍ ... فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكًا لٰكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

إِنِّي أُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْمُحِبِّ إِذَا ... مَا شِبْتُ أَوْ عُدْتُ طِفْلًا بَعْدَ مَاهَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ أتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي اصْطَفَاهُ هَوًى ... فَالْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ الْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ أَطْرَافِ أَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ ... بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي أَبْلَغِ الْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ النَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ ... لَا فِي مَدِيحِ الظِّبَا وَالْغِيدِ لِلْحَشِمِ

الجناس الحالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ ... يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِالْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَأَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ ... تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِالنَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِمَعْرِضِ الْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ ... مَا مِثْلُكُمْ بِاحْتِمَالِ الضُّرِّ وَالرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ إِبْهَامَ نُصْحِي ذَا الْعَذُولُ وَكَمْ ... يَا لَيْتَ إِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ

النزاهة

نَزَّهْتُ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ ... إِذْ لَمْ أَرَ الْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

أُغَايِرُ النَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ ... مُسْتَنْطِقًا فَمَهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصّل

نَفسِي لَهُمْ عَشِقَتْ حُبًّا بِهِمْ شُغِفَتْ فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ اِلَّا مَلَامَ عَذُولِي لِي لِأَجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَا ٱلْاِلٰهُ ٱمْرَءًا رَامَ ٱلْوِدَادَ لَهُ وَاَهْمَلَ ٱلْوُدَّ لِلْاَسْوَاءِ وَٱلْحُرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُجُبٍ كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م يَمِينِ ٱللهِ مُمْتَحِنًا لِلُّغْزِ تَفْتَهِمِ

الجناس المقطع

وَاِنْ اَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ وَاِنْ اَرَدتَّ رِوًى دَعْ وِرْدَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا بِقَوْلِهِ فَٱلْاِسَا مِلْكِي وَمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْكَلَامِ اِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى الرَّبِّ نَعْتًا اَنتَ تَابِعُهُ يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي اِشَارَتِهِ فَاِنَّ عَكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمَّع

قد طَابَ لِلنَّفْسِ فِي ٱلْأَسْوَاءِ مَطْمَعُهَا ‏ بَلْ طَالَ فِيهَا وَلَمْ تَعْدِلْ إِلَى ٱلنَّدَمِ

الرجوع

مَا لِي رُجُوعٌ إِلَى حَالِي لِأُصْلِحَهَا ‏ بَلَى إِذَا مَعْ هُدَى رَبِّي سَعَى قَدَمِي

عتاب النفس

يَا نَفْسِ عِي ٱرْعَوِي وَأَصْغِي إِلَى عَتَبِي ‏ حَتَّامَ أَنْتِ بِجَهْلٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

التسليم

هَبِي لِزَعْمِكِ قَدْ سَلَّمْتُ مُرْتَضِيًا ‏ فَمَا يَكُونُ جَوَابِي يَوْمَ مُحْتَكَمِي

القَسَم

فَلَا أُنِلْتُ ٱلْمُنَى إِنْ مِلْتُ مُتَّبِعًا ‏ هَوَاكِ فِي غَيْرِ مَا أَهْوَى وَذَا قَسَمِي

حسن التخلص

فَرَغْبَتِي وَٱلْهَوَى حُسْنُ ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ ‏ إِثْمِي بِمَدْحِ وَسِيطِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ

الاطّراد

يَسُوعُ بِكْرُ ٱلْإِلٰهِ ٱبْنُ ٱلْبَتُولِ سُلَا ‏ لَةُ ٱلْمُلُوكِ وَرَبٌّ فِي ٱطِّرَادِهِمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلّي

فَرْدٌ بِهِ تُحْصَرُ ٱلْأَنْصَارُ أَجْمَعُهُمْ ‏ فَٱلْجُزْءُ يُلْحَقُ بِٱلْكُلِّيِّ لِلْعِظَمِ

العكس

نَفْسُ ٱلْجَمَالِ جَمَالُ ٱلنَّفْسِ فِيهِ بَدَا ‏ يَا عَكْسَ مَنْ عَنْ سَنَا هٰذَا ٱلْجَمَالِ عَمِي

المماثلة

فَٱلْآبُ مَاثَلَهُ وَٱلرُّوحُ وَافَقَهُ ‏ وَٱلْكُنْهُ شَارَكَهُ بِٱلْعِظَمِ وَٱلْقِدَمِ

التفسير

كُنْهٌ ثُلَاثِيٌّ أُقْنُومٍ يُفَسِّرُهُ ‏ آبٌ وَٱبْنٌ وَرُوحٌ فِي وَحِيدِهِمِ

المذهب الكلامي

فَمَذْهَبِي فِي كَلَامِي مِنْهُ مُنْقِذُنَا   لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَٱلطُّهْرُ نَاسَبَهُ   نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي ٱلْخَلْقِ وَٱلشِّيَمِ

ارسال المثل

فَٱلْحُسْنُ فِي ٱلْخَلْقِ اَرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ   وَٱلْفَضْلُ اَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهُوَ ٱلْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا ٱلْبَدِيعُ سَنًى   بِهِ ٱلْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ م   ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ

الترتيب

لَهُ ٱلْمَلَائِكُ وَٱلْاِنْسَانُ اَجْمَعُهُ   وَمَا سِوَاهُمُ فِي ٱلتَّرْتِيبِ كَٱلْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا ٱنْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ ٱلْفِدَاءِ بَدَا   نِلْنَا ٱلْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى ٱلْعَرِمِ

التكميل

اَوْفَى اَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ   حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا ٱلْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيًّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ   وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ ٱلظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى اِلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلْهَادِي بُغَاةَ هُدًى   وَمِنْ هُدَاهُ ٱلْخَلَاصُ ٱشْتُقَّ لِلْاُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ   بِهِ ٱلْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ ٱلضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَيْئانِ قَدْ اَشبها شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنا ... تَعطُّفٌ وَنَدًى كَٱلبَحْرِ وَٱلدِّيَمِ

التشطير

تَشطِيرُ نِعمتِهِ مَا بَيْنَ اُمَّتِهِ ... كَٱللُّجِ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي ٱلقِسمِ

الطيّ والنشر

فَٱلطَّيُّ وَٱلنَّشرُ وَٱلتَّبْدِيلُ مَعْ كَرَمٍ ... لِلعُسْرِ وَٱليُسْرِ وَٱلأَحْوالِ وَٱلشِّيَمِ

الايغال

فِي ٱلسَّعْيِ اَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا ... اِلَى ٱلخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ اِشَارَاتِهِ بِٱلوَعْظِ كَمْ نَجَحَتْ ... لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنعِ مُعْجِزَةٍ ... اِنْ قَالَ اَشْفَى وَاَحْيَا بَالِيَ ٱلرِّمَمِ

التوشيع

تَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِهِ ... مُثَبِّتُ ٱلأَمْجَدَيْنِ ٱلعَهْدِ وَٱلذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِدُهُ ... بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ ... حَتَّى جَرَى دَمُهَا لِلبَذْلِ كَٱلدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ ٱلجُودَ مَعْ بَسْطٍ لِرَاحَتِهِ ... لِلعُودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ ٱلصَّلْبِ فِي فِرَقٍ ... مِنْ قَاتِلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجلدُ وَٱلْهُزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عذَلٍ　　اِهَانَـةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جُمعِهِمِ

جناس البعض

بَعْضُ حَمَاقتِهِمْ زَادَتْ حَمَاسَتَهُمْ　　جَوْرًا وَبعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المشوَّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ　　وَٱلْقَدْعُ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ اِنْ جِئْتُ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ　　قُلْ كَٱلْخِلَالِ نُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ　　قَالُوا اَسُقْمٌ بِهِ اَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا امَّا قِيَامَتُهُ　　فَاوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَوْهِيمُ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ　　جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِلَى　　م ٱلْعُلَا ارْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْكَامِلُ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا　　عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱلْلُّسْنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْاَرْضَ بِٱلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ　　وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْاُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ　　وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبـًّا كَمَالِهِمِ ... وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَارْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْسًا اَسْكَنُوهُ مَحَلَّ ... م الْحُبِّ فِي السَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ ... وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى ... وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ اِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو ... م الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا اَدَبًا مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ ... كَمْ اَبْدَعُوا خُطَبًا فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَآلَفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ ... لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

اللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ ... فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْاَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا ... عِقْدَ النَّشِيدِ فَاَعْجِبْ بِانْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ ... صَحِيحَـةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَرًا اَضْحَى بِهِ غُرَرًا ... اَمْسَى لَنَا قَمَرًا فِي لَيْلَةِ الْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَٱللَّفظُ لِلحَمدِ فِي ٱلأَفواهِ مُؤتَلِفٌ   مَعْ لَفظِ مَدحٍ بَدَا مِنْ أَلسُنِ ٱلدِّيَمِ

الابداع

إِبدَاعُ نَظمِهِمِ دَمعِي جَلَا وَحَلَا   إِيدَاعُ نَثرِهِمِ سَمعِي كَمُنتَظِمِ

التفريع

مَا نَسمَةٌ حَمَلَتْ مِسكًا لَطَائِفُهَا   يَومًا بِأَطيَبَ مِنْ تَفرِيعِ فَضلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعرِضِ ٱلذَّمِّ مَدحًا قَدْ خَصَصتُ بِهِمْ   لَا عَيبَ فِيهِمْ سِوَى ٱلإِيفَاءِ بِٱلذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِٱلأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا   فَرَاحَ يَرفُلُ بِٱلإِثرَاءِ ذُو ٱلعَدَمِ

الكناية

تَزَاحُمٌ لِعُفَاةٍ يُسرِعُونَ إِلَى   فُرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى ٱلعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا   فَعَادَ أَعوَزُهُمْ بِٱلعِزِّ وَٱلعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدرٍ غَدَا بِٱلعِزِّ مُشتَرَكًا   صَدرِ ٱلجُلُوسِ عَلَى كُرسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُستَرْكِنٍ حَسَنٍ   مُستَعْلِنٍ فَاتِنٍ مُستَمكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمعُ مُؤتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُختَلِفٍ   حُكمًا وَفَضلًا فَسِمعَانٌ بِذَاكَ سُمِي

الايضاح

مَا بَينَهُمْ صَخرَةٌ لِلحَقِّ مُوضِحَةٌ   بَنَى ٱلمَسِيحُ عَلَيهَا بَيتَ جَمعِهِمِ

الطاعة والعصيان

فَمَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ　　وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ　　ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هِمَمِي جَزَّأْتُ فِي كَلِمِي　　رَوَّيْتُ فِي قَلَمِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

المتوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْداً لِمُنْتَسِجٍ　　مُلَازِماً مَدْحَهُ نَظْماً بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

تَسْجِيعِي وَمُنْتَظِمِي مَدْحاً حَلَا بِفَمِي　　حَاكَيْتُ فِي رَنَمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا　　فَهْوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ　　وَهْوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ　　عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهٍ حِينَ رَكَّبَهَا　　فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَغْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ　　يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمَ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا　　يَاسَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ ٱلْخَصِمِ فَٱلْمَرْءُ دَاخِلَهَا كَٱلْمَرْءِ فِي ٱلْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ ٱلْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمَّى

حَوَى أَرِيجَ بَهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا وَٱلْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي أَضَمِ

التنكيت

دَعِ ٱلْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي ٱلسَّكِينَةِ وَحْـ دَهَا نَجَاةٌ مِنَ ٱلطُّوفَانِ وَٱلضَّرَمِ

التوشيح

فَٱلرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ ٱلْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَٱسْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ ٱلصِّفَاتِ وَقُلْ رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ ٱلشِّيَمِ

التعطف

فَٱخْتَارَ ذَاكَ ٱلصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا ٱلْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَٱعْطِفْ عَلَى ٱلْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلُّ بِأَرْضٍ يَنْحَلِلْ بِسَمَا وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ ٱلرَّبْطِ مِنْكَ رُمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّدُهُ مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى ٱلسَّقَمِ

المجاز

هِيَ ٱلْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ ٱلشِّفَاءِ هِيَ ٱلْـ ـعَرْشُ ٱلرَّفِيعُ وَبُرْجُ ٱلْبَارِئِ ٱلنَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ أَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا نَالَ ٱلْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ إِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا لَأَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَٱلْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللّٰهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَئِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ أَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَامِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَصْلٌ لَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ غَدَا تَأَلُّفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُحْتَرَمِ

التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ أَمَا تَعِي أَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْماً يُحَاكِمُهُمْ ۞ كَٱللَّيْثِ كَٱلسَّيْفِ كَٱلْجَبَّارِ كَٱلضَّرِمِ

المشاكلة

يَجْزِي اِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ ۞ يُشَاكِلُ ٱلْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِٱلْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ لِصَفْحٍ جَنَاحَ ٱلْقَلْبِ عَاطِفُهُ ۞ اِذَا رَاى تَوْبَةً وَٱلدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ ٱلنُّورُ لِلْاَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ ۞ وَلِلْعِدَا ٱلنَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ ٱلسَّمَاءِ بِهِ كَٱلْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ ۞ رَاعَى ٱلنَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ ٱلْمَلْكُ وَٱلتَّفْرِيقُ يُظْهِرُ لِي ۞ فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ ٱلسَّلْبَ فِي اِعْزَازِ عُصْبَتِهِ ۞ وَيُوجِبُ ٱلذُّلَّ لِلْاَشْرَارِ فِي ٱلنِّقَمِ

المتقارب

اَرْجُو ٱلتَّقَارُبَ مِنْ اَعْدَادِ زُمْرَتِهِ ۞ لَا مِنْ عَدِيدِ ٱلْعِدَا فِي ٱلْحَشْرِ وَٱلزَّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ ٱلْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ اَرْشَدَنِي ۞ اِلَى ٱلتَّقَرُّبِ مِنْ اُولٰئِكَ ٱلْخَدَمِ

المزاوجة

اِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَٱلْتَجَاتُ لَهُ ۞ بِٱلْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَّانِي مِنَ ٱلْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي ٱلدَّهْرُ ضَيْماً وَٱسْتَعَنْتُ بِهِ ۞ اِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَالْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ اَنْعُمِهِ جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهْوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى السَّيْلِ فِي التَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَالْحَيَا الْعَرِمِ

نفي الشيء بايجابه

لَا يَنْتَفِي الْجُودُ مِنْ اِيجَابِهِ اَبَدًا وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ النِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ اَرْتَجِي تَخْتِيمَهُ طَرَفَيْ قَضِيَّتِي فِي الْقَضَا بِالْمَجْدِ وَالْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاءَهُ وَفَمِي

المواردة

تَوَارَدَ الْفِكْرُ فِي مَدْحٍ اُلَازِمُهُ لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ يَاحُسْنَ مُلْتَحِمٍ يَاحُسْنَ مُلْتَحِمِ

الاحتراس

اِلَيْكَ جِئْتُ اَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ الْخَدَمِ

المصغر

نُفَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ وَلَّى عُزَيْمِي مُهَيْزِيًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَازْرَقَّ اَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ سَوَادُ اِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِاضْطِرَابِ جَنَانٍ وَاضْطِرَامِ حَشًا ضَارَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكِمِ

التصريف

فالقلب حرّقه التصريف في عللٍ   والجفن قرّحه التدميع في ندمِ

براعة الطلب

براعتي في مديحي منتهى طلبي   فاسأل سخاك فلم احتج الى الكلمِ

الادماج

ادمجت في مدحه شكواي من زللي   وعسجد الخد من ذا الدمع كالعنمِ

الحذف

اروم منه انتصارا حاذفا هلعا   وعاضدا وقت هول الحشر والنقمِ

التاريخ

به الاثيم جنى برًّا فقلت به   مذ ارّخوه لنا بالبرّ مغتنمي *

حسن الختام

به غدا في علاء حسن مبتداي   هنّي به يا الهي حسن مختتمي

ختام الختام

واختم ختامي بان احظى بمطلعك م   البهي بجذر السّنى يا مرشد الاممِ



* قولهُ : (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها نظمت هذه البديعيّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ هُوَ اَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفْظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَانِ ضِدَّيْنِ . وَقَدْ اَجْمَعَ اَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى اَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ . وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ اِيرَادُ لَفْظَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ . غَيْرَ اَنَّ ٱلْاَسْمَاءَ لَامُشَاحَّةَ فِيهَا اِلَّا اِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً . وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ اَنْ نَكْشِفَ عَنْ اَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ اِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِاَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَاضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفْظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ . فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلْاِسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ اِلَّا اَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ اَسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ اِلَّا اِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَاِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْاَصْلَ ٱلَّذِي

اَصلَهُ بِالْمِثَالِ الَّذِي مَثَّلَهُ . وَاَمَّا غَيْرُهُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَاِنَّهُمْ سَمَّوا هٰذَا الضَّرْبَ مِنَ الْكَلَامِ مُطَابِقًا لِغَيْرِ اشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا الظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ اِلَّا اَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ اِلَى ذِكْرِ هٰذَا الْقِسْمِ مِنَ التَّأْلِيفِ وَاِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : اَلْاَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى اَنْ يُسَمَّى هٰذَا النَّوْعُ الْمُقَابَلَةَ لِاَنَّهُ لَا يَخْلُو الْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : اِمَّا اَنْ يُقَابَلَ الشَّيْءُ بِضِدِّهِ اَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَاَمَّا الْاَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ الشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَاِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى وَالْآخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ . اَمَّا الْمُقَابَلَةُ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ وَالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ اَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا الْبَابِ . وَقَالَ اَيْضًا : خَيْرُ الْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ الْحَسَنِ الْمَطْبُوعِ الَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : اِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَالْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَاَنْتَ رَجُلٌ اِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَاِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَالثَّقِيلَ الْمَرِيَّ بِالْخَفِيفِ الْوَبِيِّ وَالصِّدْقَ بِالْكَذِبِ وَالسُّخْطَ بِالرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ الْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ اِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ اُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ احضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ٱسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ انتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَإِنَّهُ نَقَلَ ٱلِٱسْمَيْنِ إِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ انَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَاذُ احَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ . وَاوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَامَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْاَضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . بِمَعْنَى قَوْلِهِ : كَثُرَ مَالِي فَهُوَ إِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِاَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْاَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ . وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَإِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ . وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ . وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَإِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ إِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَٱعْرِفْ ذٰلِكَ . (وَامَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . فَهِيَ ضَرْبَانِ : (احَدُهُمَا) انْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) انْ

يَكُونَ مِثْلًا . فَٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ بِهِ وَٱلْمُقَابَلِ نَوْعُ مُنَاسَبَةٍ وَتَقَارُبٍ . كَقَوْلِ قُرَيْطِ ٱبْنِ أُنَيْفٍ :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَغْفِرَةً   وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ ٱلسُّوءِ إِحْسَانَا

فَقَابَلَ ٱلظُّلْمَ بِٱلْمَغْفِرَةِ وَلَيْسَ هُوَ ضِدًّا لَهَا . إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَغْفِرَةُ قَرِيبَةً مِنَ ٱلْعَدْلِ حَسُنَتِ ٱلْمُقَابَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلظُّلْمِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ وَٱلْمُقَابَلِ بِهِ بُعْدٌ وَذَاكَ مِمَّا لَا يَحْسُنُ ٱسْتِعْمَالُهُ . كَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

لِمَنْ يَطْلُبُ ٱلدُّنْيَا إِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا   سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

فَإِنَّ ٱلْمُقَابَلَةَ ٱلصَّحِيحَةَ بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُبْغِضِ لَا بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُجْرِمِ وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهٰذَا ٱلضَّرْبِ ضَرْبٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْقِدَ لَهُ بَابًا مُفْرَدًا لٰكِنْ إِذْ رَأَيْنَاهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلتَّقَابُلِ مِنْ وَجْهٍ وَصَلْنَاهُ بِهِ . أَمَّا ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى مَعَ أَخِيهِ لَا مَعَ ٱلْأَجْنَبِيِّ . مِثَالُهُ أَنْ تَذْكُرَ وَصْفًا مِنَ ٱلْأَوْصَافِ وَتَقْرُنَهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ وَيَلْتَئِمُ بِهِ فَإِنْ ذَكَرْتَهُ مَعَ مَا يَبْعُدُ مِنْهُ كَانَ ذٰلِكَ قَدْحًا فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا . وَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا نُوَاسٍ يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ ٱلدِّيكِ :

لَهُ ٱعْتِدَالٌ وَٱنْتِصَابُ قَدِّ   وَجِلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْيَ ٱلْبُرْدِ

كَأَنَّهَا ٱلْهُدَّابُ فِي ٱلْفِرِنْدِ   مُحْدَوْدِبُ ٱلظَّهْرِ كَرِيمُ ٱلْجَدِّ

فَإِنَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهْرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجِدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهْرَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ. وَأَمَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ:

فَٱذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ ... يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحْسَنُ أَنْ: يُقَالَ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ أَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ. لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا أَيْ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ أَوِ ٱلْإِفْرَادِ. وَإِذَا أَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ إِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ. (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ. (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ. (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ: نَسُوا ٱللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ. وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَإِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ. (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) اِعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبَلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبَلَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبَلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبَلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي. فَإِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ: وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

• (عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

blaze extending widely on horse's forehead

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ غُرَّةٌ شَادِخَةٌ فِي وَجْهِ ٱلْكَلَامِ وَقَدْ تَصَرَّفَ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهِ فَغَرَّبُوا وَشَرَّقُوا لَاسِيَّمَا ٱلْمُحْدَثِينَ مِنْهُمْ. وَصَنَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهِ كُتُبًا كَثِيرَةً وَجَعَلُوهُ اَبْوَابًا مُتَعَدِّدَةً وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَادْخَلُوا بَعْضَ تِلْكَ ٱلْاَبْوَابِ فِي بَعْضٍ . وَاِنَّمَا سُمِّي هٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُجَانِسًا لِاَنَّ حُرُوفَ اَلْفَاظِهِ يَكُونُ تَرْكِيبُهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ . اَمَّا حَقِيقَتُهُ فَٱعْلَمْ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلْبَلَاغَةِ عَرَّفُوهُ بِحُدُودٍ ٱخْتَلَفَتْ اَقْوَالُهُمْ فِيهَا . فَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : هُوَ بَيَانُ ٱلْمَعَانِي بِاَنْوَاعٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَجْمَعُهَا اَصْلٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱللُّغَةِ . وَقَالَ قُدَامَةُ : هُوَ ٱشْتِرَاكُ ٱلْمَعَانِي فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْاَشْتِقَاقِ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : هُوَ اَنْ تَجِيَ بِكَلِمَةٍ تُجَانِسُ اُخْتَهَا . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْاَثِيرِ ٱلْجَزَرِيُّ : ٱلْجِنَاسُ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ وَاحِدًا وَٱلْمَعْنَى مُخْتَلِفًا. وَقَالَ بَدْرُ ٱلدِّينِ ٱبْنُ ٱلنَّحْوِيَّةِ فِي ضَوْءِ ٱلْمِصْبَاحِ : هُوَ اَنْ يُؤْتَى بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجْزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ . فَهٰذَا جُمْلَةُ مَا حَضَرَنِي مِنْ حُدُودِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ تَعْلِيقِ هٰذَا ٱلْفَصْلِ . (قُلْتُ) اَمَّا حَدُّ ٱلرُّمَّانِيِّ فَاِنَّهُ اَسْلَمُ مِمَّا بَعْدَهُ لٰكِنَّهُ غَيْرُ جَامِعٍ

لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ ٱلتَّصْحِيفِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْمُرَكَّبِ وجِنَاسُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْجِنَاسُ ٱلْمُطَمِّعُ . وَاَمَّا حَدُّ قُدَامَةَ فَاِنَّهُ عَرَّفَ ٱلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وَهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِاَنَّ قَوْلَهُ : (فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي اِلَى ٱلدَّوْرِ لِاَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ ٱلْمُتَجَانِسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ ٱلْجِنَاسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْمُتَجَانِسِ فَاَدَّى ذٰلِكَ اِلَى ٱلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهُ بِاَنْ يُقَالَ : اِنَّهُ مَا اَرَادَ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱلِاصْطِلَاحِ بَلِ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱللُّغَةِ اَيْ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ اِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَٱلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ ٱلِاشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْهُ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ اِلَّا ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُشْتَقَّ . وَاَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَهُوَ اَيْضًا تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ . وَاَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْاَثِيرِ فَهُوَ اَيْضًا غَيْرُ جَامِعٍ لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجِنَاسِ ٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْخَطِّيِّ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ اَنْوَاعِهِ . وَاَمَّا حَدُّ بَدْرِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فَاِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (اَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْمُخَالِفِ وَٱلِاشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِاَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ) اَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَاحَاجَةَ إِلَيهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلِاحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ: بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا اَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ اَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي اَخْتَارُهُ اَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ اَنْ اَقُولَ : هُوَ ٱلْاِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ اَوْ بَعْضِهَا اَوْ فِي ٱلصُّورَةِ اَوْ زِيَادَةٍ فِي اَحَدِهِمَا اَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا اَوِ ٱلْحَرَكَاتِ اَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ اَقْرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمُلُ ٱلْمُمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى. وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَاَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَى يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ : نِعْمَتُهُ ذَاهِبَهْ . اِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَهْ . وَقَوْلِي : (اَوْ بَعْضِهَا) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمَّعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْاَمْوَاهُ وَٱلْاَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ : ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي :(اَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (اَوْ زِيَادَةٍ) فِي اَحَدِهِمَا اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْاَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : اَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (اَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : اَغْتَنِمْ هُبَاتِ ٱلْهِبَاتِ . وَقَوْلِي : (اَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) اَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ : اَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْاَسَدِ . إِذَا اَرَدْتَ اَنْ تَقُولَ :

(بِاللَّيثِ) ثُمَّ عدلتَ اِلَى مَا يُرادِفُهُ وهُوَ الاسَدُ . وقَولِي : (نَظمًا) اِعلامٌ بِاَنَّ هٰذَا النَّوعَ مِنَ الجِنَاسِ اِنَّمَا يَجِيءُ فِي النَّظمِ دُونَ النَّثرِ . وَتظهرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا الرَّسمَ تَجِدْهُ مَا اَخلَّ بِنَوعٍ مِنْ اَنوَاعِ الجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ البَدِيعِ : اِنَّ الجِنَاسَ يَحْسُنُ اِذَا قلَّ وَاَتَى فِي الكَلَامِ عفوًا مِنْ غيرِ كدٍّ وَلَا اَستِكرَاهٍ وَلَا بُعدٍ وَلَا مَيلٍ اِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَحْتَجْ اِلَيهِ بِكَثْرَةِ اَستِعمَالِهِ اِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَن اَختِرَاعِ المَعَانِي الَّتِي هِيَ كَالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ فِي اُفقِ الاَلفَاظِ . وَاِذَا خَلَتْ بُيُوتُ الاَلفَاظِ مِنْ سُكَّانِ المَعَانِي تنزَّلَتْ مَنْزِلَةَ الاَطلَالِ البَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

اِعلَمْ اَنَّ اَنوَاعَ الجِنَاسِ كَثِيرَةٌ اَقتَصَرنَا عَلَى ذِكرِ اَخَصِّهَا وَاَوَّلُهَا الجِنَاسُ (المُرَكَّبُ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ الرُّكنَينِ كَلِمَةً مُفرَدَةً وَالاُخرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَينِ وهُوَ عَلَى ضَربَينِ : فَالاَوَّلُ مَا تَشَابَهَ لَفظًا وَخطًّا كَقَولِ الشَّاعِرِ :

عَضَّنَا الدَّهرُ بِنَابِهْ لَيتَ مَا حلَّ بِنَا بِهْ

وَالثَّانِي مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لَفظًا لَا خَطًّا وَيُسَمَّى المَفرُوقَ كَقَولِ الشَّاعِرِ :

لَا تَعرِضَنَّ عَلَى الرُّوَاةِ قَصِيدَةً مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغتَ فِي تَهذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا وَٱلْآخَرُ مُجَزًّأً مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْتَطَعْتَ لَا تَأْتِهِ لِتَقْتَنِيَ ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ :

وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ . وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَمْ لِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ) . فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

يَمُدُّونَ فِي أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ :

فَيالَكَ مِنْ حزمٍ وعَزمٍ طواهُما جَديدُ الرَّدى تحتَ الصَّفا والصَّفائحِ

وأرقُّ ما سمِعتُ في هذا الباب قولُ القائلِ :

إنَّ البكاءَ هو الشِّفاءُ م من الجوى بينَ الجوانحْ

وأمَّا (اللاحِقُ) فهو ما أُبدِلَ في أحدِ رُكنيهِ حرفٌ مِنْ غيرِ مخرجِهِ كقَولِ بعضِهِمْ في جوابِ رِسالةٍ : وصلَ كتابُكَ فتناولتُهُ باليمينِ ووضعتُهُ مكانَ العقدِ الثَّمينِ . وكقولِ الآخرِ : أمَّا اليتيمَ فلا تقهرْ . وأمَّا السَّائِلَ فلا تنهرْ . والفرقُ بينَ الجناسِ اللاحِقِ والجناسِ المضارِعِ أنَّ حروفَ اللاحِقِ ليستْ مِنْ مخرجٍ واحدٍ كالنُّونِ والقافِ في : (تقهرْ وتنهرْ). وأمَّا حروفُ المضارِعِ فإنَّها متشابِهةٌ في المخرجِ كما وردَ في الحديثِ : إنَّ الخيلَ معقودٌ بنواصيها الخيرُ. ومثلُهُ قولُ بعضِهِم : البرايا أهدافُ البلايا . فإنَّ الرَّاءَ واللامَ مِنْ مخرجٍ واحدٍ ومِنْ أنواعِ التَّجنيسِ (التَّامُّ) . وهو ما تماثلَ رُكناهُ واتَّفقا لفظاً واختلفا معنًى مِنْ غيرِ تفاوتٍ في تصحيحِ تركيبِهِما واختلافِ حركتِهِما سواءٌ كانا مِنِ اسمَينِ أو مِنْ فعلَينِ أو مِنِ اسمٍ وفعلٍ فإنَّهُمْ قالوا : إذا انتظمَ رُكناهُ مِنْ نوعٍ واحدٍ كاسمَينِ أو فعلَينِ سُمِّيَ مماثِلاً وإنِ انتظما مِنْ نوعَينِ كاسمٍ وفعلٍ سُمِّيَ مُستوفًى . وجُلُّ القصدِ تماثُلُ الرُّكنَينِ في اللفظِ والخطِّ والحركةِ واختلافُهُما في المعنى . فمنهُ قولُ أميرِ المؤمنينَ عليٍّ : صولةُ الباطلِ ساعةٌ وصولةُ الحقِّ إلى السَّاعةِ . ومِنَ الشِّعرِ قولُ بعضِهِمْ في رِثاءِ صغيرٍ اسمُهُ يحيى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ ... إِلَى رَدِّ أَمْرِ ٱللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا ٱحْتَدَمَ ٱلْوَغَى ... وَٱلْفَضْلُ فَضْلٌ وَٱلرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ ٱلْأَوَّلِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُذَيَّلِ. فَإِنَّ ٱلزِّيَادَةَ فِي ٱلْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ. وَأَمَّا ٱلْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي أَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَٱلطَّرَفِ وَيُسَمَّى أَيْضًا ٱلنَّاقِصَ وَٱلْمُرْدَفَ وَٱلْمُزْدَوِجَ وَٱلْمُكَرَّرَ وَٱلْمَرْدُودَ وَٱلْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ ٱخْتِلَافٌ. وَٱلزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي أَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلثَّانِي وَتَارَةً فِي أَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلْأَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ ٱلصَّاعَ ٱنْصَاعَ. وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَيَّ عَوَارِفُ ... ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ ٱلْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ ... لِشُكْرِي عَلَى تِلْكَ ٱللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱللَّفْظِيُّ) وَهُوَ أَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا يُخَالِفُ ٱلْآخَرَ بِإِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا ٱلَّذِي يُكْتَبُ بِٱلضَّادِ وَٱلظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْعَفِيفِ :

أَحْسَنُ خَلْقِ ٱللهِ وَجْهًا وَفَمًا ... إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِٱلْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ ٱلْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا عَكْسُ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلثَّانِي عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ. فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ ٱلسَّادَاتِ. سَادَاتُ ٱلْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

إنَّ ٱللَّيَالِي لِلأَنَامِ مَنَاهِلٌ تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا ٱلأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: (ٱلتَّبْدِيلَ) . وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءِ كَلَامِهِ ٱلأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي ٱلثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي ٱلأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي ٱلثَّانِي. وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلَا أُحْدُوثَةُ ٱلْفَالِ وَٱلتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ ٱلأَرَّجَانِيِّ:

أُحِبُّ ٱلْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمُقَارِبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ ٱلِاشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ ٱلِاقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ ٱسْمَيْنِ كَقَوْلِ ٱلصَّاحِبِ: إِنَّ ٱلْهُمُومَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمِ. وَكَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ: رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ ٱسْمًا وَٱلْآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ: وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى ٱللهِ. وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اِنْ تَرَ ٱلدُّنيا اَغارَتْ   وَنُجُومَ ٱلسَّعْدِ غارَتْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهرِ شَتَّى   كُلَّمَا جارَتْ اَجارَتْ

وَمِنْ اَنوَاعِ ٱلجِنَاسِ (ٱلمَعنَوِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحدُ رُكْنَي ٱلجِنَاسِ دَالاًّ عَلَى معنَى ٱلآخَرِ فِي غيرِ اَلفَاظِهِ وَهٰذَا ٱلنَّوعُ ٱستَدرَكَهُ فُضَلَاءُ ٱلمتَأخِّرِينَ وَٱستَخرَجُوهُ وَبَعضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاساً لِأَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسلَكِهِ . وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا ٱلنَّوعِ فِي ٱلكَلَامِ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَقصِدُ ٱلمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ ٱلوَزْنُ عَلَى اِثبَاتِ اَحدِ رُكْنَي ٱلجِنَاسِ فَيَعْدِلُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفظاً وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا ٱلنَّوعِ فِي ٱلكَلَامِ ٱلمَنثُورِ اِذْ لَا وَزْنَ يَضطَرُّهُ اِلَى ٱلاِتيَانِ بِذٰلِكَ . وَمِنْ اَمثِلَةِ اَربَابِ ٱلبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلنَّوعِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ يَمدَحُ ٱلمُهَلَّبَ بْنَ اَبِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ ٱلفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى اَبَا نَعَامَةَ :

حَدَا بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ فَاَجفَلَتْ   نَعامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : حَدَا بِاَبِي نَعَامَةَ فَاَجفَلَتْ نَعَامَتُهُ اَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ ٱلوَزْنُ فَقَالَ : بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ لِاَنَّ ٱلرِّئَالَ فِرَاخُ ٱلنَّعَامَةِ . وَٱعلَمْ اَنَّ ٱلشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظمِ هٰذِهِ ٱلاَبيَاتِ مَا نَحَوْا هٰذِهِ ٱلمَقَاصِدَ ٱلبَعِيدَةِ . وَلَا يَخفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوَّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبَرَّدُ : ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَـالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْأَوَّلِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ . فَقَوْلُهُمْ : مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْـهِ إِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ : أَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ . وَفُلَانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ أَيْ أَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ . وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ . كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا   وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيـلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ : ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَـاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ . شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ . وَقَالَ غَيْرُهُمَا : سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ أَمْثَالًا لِٱنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلْعُقُولِ مُشْتَقَّةٌ مِنَ ٱلْمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِٱنْتِصَابُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ أَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِيجَازُ ٱللَّفْظِ وَإِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَحُسْنُ ٱلتَّشْبِيهِ وَجُودَةُ ٱلْكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْبَلَاغَةِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : إِذَا جُعِلَ ٱلْكَلَامُ مَثَلًا كَانَ أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمْعِ وَأَوْسَعَ لِشُعُوبِ ٱلْحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : إِنَّ ٱلْأَمْثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلْكَلَامِ وَجَوْهَرُ ٱللَّفْظِ وَحُلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَدَّمَتْهَا ٱلْعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ أَبْقَى مِنَ ٱلشِّعْرِ وَأَشْرَفُ مِنَ ٱلْخَطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَا عَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : أَسْيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا أَنْتَ إِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ   يَعْرِفُهُ ٱلْجَاهِلُ وَٱلْغَابِرُ

هٰذَا وَإِنَّ ٱلْأَمْثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَحَاضِرِ . وَتَتَجَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلْبَادِي وَٱلْحَاضِرِ . وَتُقَيَّدُ أَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحْتَاجُ ٱلْخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ إِلَى إِدْمَاجِهَا وَإِدْرَاجِهَا لِٱشْتِمَالِهَا عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجَمَالِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْحَاجَةَ إِلَى ٱلْأَمْثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلْأَمْثَالَ إِلَّا لِأَسْبَابٍ أَوْجَبَتْهَا وَحَوَادِثَ ٱقْتَضَتْهَا . فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضْرُوبُ لِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ عِنْدَهُمْ كَٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعْرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَوْجَزُ مِنْهَا وَلَا أَشَدُّ ٱخْتِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَأَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ امْثَالِهِمْ (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ : انَّهُ بَلَغَنَا انَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ ارْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ انْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : اِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ انَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . اِذَا اُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ اجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ اعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدَّمَاتٌ وَاسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ جَازَ اِيرَادُ هٰذِهِ ٱللَّفَظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْأَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : (اِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِاَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ انْ يَظْلِمَ احَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : اِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْاِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تَداولها صارَتْ مِنْ اوجزِ ٱلكَلامِ وَاكْثَرِهِ ٱخْتِصارًا . وَمِنْ اَجلِ ذٰلِكَ قِيلَ فِي حَدّ ٱلمَثَلِ : اِنَّهُ ٱلقَوْلُ ٱلوَجِيزُ ٱلمُرْسَلُ لِيُعْمَلَ عَلَيْهِ وَحَيْثُ هِيَ بِهٰذِهِ ٱلمَثابَةِ فَلَا يَنْبَغِي ٱلاِخْلالُ بِمَعْرِفَتِها

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطهِ

(عن الماوَردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

وَمِنْ آدَابِ ٱلحَكِيمِ اَنْ يَجْتَنِبَ اَمْثَالَ ٱلعَامَّةِ ٱلغَوْغَاءِ وَيَتَخَصَّصَ بِاَمْثَالِ ٱلعُلَمَاءِ ٱلأُدَبَاءِ فَاِنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ اَمْثَالًا تُشَاكِلُهُمْ فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ اِلَّا مَثَلًا سَاقِطًا وَتَشْبِيهًا مُسْتَقْبَحًا . . . .

وَلِذٰلِكَ عِلَّتَانِ : اِحْدَاهُمَا اَنَّ ٱلأَمْثَالَ مِنْ هَوَاجِسِ ٱلهِمَمِ وَخَطَرَاتِ ٱلنُّفُوسِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِي ٱلهِمَّةِ ٱلسَّاقِطَةِ اِلَّا مَثَلٌ مَرْذُولٌ وَتَشْبِيهٌ مَعْلُولٌ. وَٱلثَّانِيَةُ اَنَّ ٱلأَمْثَالَ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ اَحْوَالِ ٱلمُتَمَثِّلِينَ بِهَا فَبِحَسَبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ تَكُونُ اَمْثَالُهُمْ . فَلِهَاتَيْنِ ٱلعِلَّتَيْنِ وَقَعَ ٱلفَرْقُ بَيْنَ اَمْثَالِ ٱلخَاصَّةِ وَاَمْثَالِ ٱلعَامَّةِ وَرُبَّمَا اَلِفَ ٱلمُتَخَصِّصُ مَثَلًا عَامِّيًّا اَوْ تَشْبِيهًا رَكِيكًا لِكَثْرَةِ مَا يَطْرُقُ سَمْعَهُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلأَرَاذِلِ فَيَسْتَرْسِلُ فِي ضَرْبِهِ مَثَلًا فَيَصِيرُ بِهِ مَثَلًا كَٱلَّذِي حُكِيَ عَنِ ٱلأَصْمَعِيِّ : اِنَّ ٱلرَّشِيدَ سَاَلَهُ يَوْمًا عَنْ اَنْسَابِ بَعْضِ ٱلعَرَبِ . فَقَالَ : عَلَى ٱلخَبِيرِ

سَقطتَ يا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فقَالَ لَهُ ٱلْفَضلُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ : اَسقَطَ ٱللهُ جَنبَيْكَ أَتُخَاطِبُ اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْخِطَابِ. فكَانَ ٱلفَضلُ ٱبنُ ٱلرَّبِيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلْمِهِ اَعلَمَ بِمَا يُستَعمَلُ مِنَ ٱلكَلَامِ فِي مُحَاوَرَةِ ٱلْخُلَفَاءِ مِنَ ٱلاَصْمَعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ وَاحِدُ عَصْرِهِ وَقَرِيعُ دَهْرِهِ. وَلِلْاَمْثَالِ مِنَ ٱلكَلَامِ مَوْقِعٌ فِي ٱلْاَسْمَاعِ وَتَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ لَا يَكَادُ ٱلكَلَامُ ٱلْمُرْسَلُ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ وَٱلشَّوَاهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ وَٱلنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ وَٱلْقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ وَٱلْعُقُولَ لَهَا مُوَافِقَةٌ . وَلَهَا اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ : اَحَدُهَا صِحَّةُ ٱلتَّشْبِيهِ. وَٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ ٱلعِلْمُ بِهَا سَابِقًا وَٱلكُلُّ عَلَيْهَا مُوَافِقًا . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يُسْرِعَ وُصُولُهَا لِلْفَهْمِ وَيَعْجَلَ تَصَوُّرُهَا فِي ٱلْوَهْمِ مِنْ غَيْرِ ٱرْتِيَاءٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا وَلَا كَدٍّ فِي ٱسْتِنْبَاطِهَا . وَٱلرَّابِعُ اَنْ تُنَاسِبَ حَالَ ٱلسَّامِعِ لِتَكُونَ اَبْلَغَ تَأْثِيرًا وَاَحْسَنَ مَوْقِعًا. فَاِذَا ٱجْتَمَعَتْ فِي ٱلْاَمْثَالِ ٱلْمَضْرُوبَةِ هٰذِهِ ٱلشُّرُوطُ ٱلْاَرْبَعَةُ كَانَتْ زِينَةً لِلْكَلَامِ وَجِلَاءً لِلْمَعَانِي وَتَدَبُّرًا لِلْاَفْهَامِ .

قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : يَجِبُ عَلَى قَارِئِ ٱلْاَمْثَالِ اَنْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهَا وَلَا يَظُنَّ اَنَّ نَتِيجَتَهَا اِنَّمَا هِيَ ٱلْاِخْبَارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَيْنِ اَوْ مُحَاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَوْرٍ فَيَنْصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ ٱلغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ ٱلصَّيَّادِ ٱلَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ ٱلْخُلْجَانِ يَصِيدُ فِيهِ ٱلسَّمَكَ فِي زَوْرَقٍ . فَرَاَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَقِيقِ ٱلْمَاءِ صَدَفَةً تَتَلَأْلَأُ حُسْنًا فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكَانَ قَدْ اَلْقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا اَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَاشَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَاَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَاَلْقَى شَبَكَتَهُ فَاَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَاَى اَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ اِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَاَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي اَمْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى اِغْفَالِ اَمْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْاَمْثَالِ وَٱلْاِغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى اَسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْاَخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْاَخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي اَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ اَصَابَ اَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى اِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَاَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ اَحْسَنَ فَائِدَةً وَاَجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْاَمْثَالِ اَنْ يَعْلَمَ اَنَّهَا تَنْقَسِمُ اِلَى اَرْبَعَةِ اَغْرَاضٍ : اَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ اِلَى وَضْعِهَا عَلَى اَلْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ اَهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ اِلَى قِرَاءَتِهَا فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِاَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي اِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْاَصْبَاغِ وَٱلْاَلْوَانِ لِيَكُونَ اُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا اَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَتَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلُقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْاَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذٰلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ اَبَدًا . وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْاَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْاَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ إِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَاَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ اَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَاُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ : لَاتَحْسُنُ ٱلْمُحَادَثَةُ اِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ . وَقَالُوا : تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلِاسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ . وَحُسْنُ ٱلِاسْتِمَاعِ هُوَ اَشْهَى اِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ . وَمِنْ اَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة :

اذا افتخر الرجال بفضل علم	ومدَّت فيه السنة طويله
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ	بطون كتاب دمنةَ مع كليله
كتاب يغرق البلغاء فيهِ	وألباب الورى منهُ كليله
وكم فيهِ عجائب كامنات	على دنيا وآخرةٍ دليله
وكم حكم على افواه طير	وآداب وامثالٍ مقوله
يراها الجاهل المأفون هزلًا	وحسبكها لعالمها فضيله

ٱلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ أَنْ لَا يُقْتَضَبَ ٱقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُتَوَصَّلَ إِلَى إِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ. وَأَنْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ ٱلْمُفَاوَضَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي ٱلْمَثَلِ: إِنَّ ٱلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ إِلَى وُجُوهٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ إِذْ كَانَ ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ. وَقَالَ رَجُلٌ: إِنِّي مَا أَمَلُّ ٱلْحَدِيثَ. فَقَالَ ٱلسَّامِعُ: إِنَّمَا يُمَلُّ ٱلْعَتِيقُ لَا ٱلْحَدِيثُ. وَقَدْ أَكْثَرَتِ ٱلشُّعَرَاءُ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيِّ:

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي ... فَكَأَنَّ أَطْيَبَهَا غَثِيثُ

إِلَّا ٱلْحَدِيثَ فَإِنَّهُ ... مِثْلُ ٱسْمِهِ أَبَدًا حَدِيثُ

وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ:

وَضَجِرْتُ إِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ ... حَسَنِ ٱلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُحَدِّثِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ أَنَّ مِنَ ٱلْأَدَبِ عَدَمَ إِطَالَةِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلنَّدِيمِ وَأَنَّ أَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ أَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ ٱلْأَحَادِيثَ ٱلطِّوَالَ ذَاتَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُغْلَقَةِ وَٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحُوشِيَّةِ ٱلَّتِي ٱفْتَنَّ بِٱقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ ٱلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى أَوَاخِرِهَا ٱلْكُؤُوسُ. فَإِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ ٱلْقُصَّاصِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِمَجَالِسِ ٱلْخَوَاصِّ. وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَأَجَادَ فِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ أَوْصَافِ ٱلشَّرَابِ عَلَى ٱلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ:

بَيْنَ اَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ   هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعهِ

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا. وَيُقَالُ: اَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ. وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ اِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ اَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا اَوْ مُسْتَقْبَلًا. وَقِيلَ: تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِاسْتِنَادِهِ اِلَى اَوَّلِ حُدُوثِ اَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ اَوْ دَوْلَةٍ اَوْ اَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ اَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ. وَقِيلَ: عَدَدُ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ اِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ اِلَى مَا بَقِيَ. وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ اَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ اَشْخَاصِهِمْ وَاَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ. وَمَوْضُوعُهُ اَحْوَالُ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ. وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ

ٱلْمَاضِيَةِ وَٱلتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ ٱلتَّجَارِبِ بِٱلْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ ٱلزَّمَنِ لِيُحْتَرَزَ عَنْ امْثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ ٱلْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ ٱلْمَنَافِعِ . وَهٰذَا ٱلعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمْرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَٱنْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ ٱلْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى ٱلدَّهْرِ لَبَطَلَ اوَّلُ ٱلعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ اِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْاَخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَٱلفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَشَارُ وَٱلْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَاصْحَابُ ٱلْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَاَهْلُ ٱلْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَاَمْثَالُ ٱلْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ ٱلاَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ اُعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ ٱلعَالِمُ وَٱلْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ ٱلْاَحْمَقُ وَٱلعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ اِلَيْهِ ٱلْخَاصِّيُّ وَٱلْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ اِلَى رِوَايَتِهِ ٱلعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَاِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ ٱلْاَخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَاِيرَادِهِ وَاِصْدَارِهِ اِلَّا اِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَٱسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

امَّا بَعْدُ فَإِنَّ فنَّ ٱلتَّأْرِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَـداوَلُهَا ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ إِلَيْهَا ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهَا ٱلسُّوقَةُ وَٱلْأَغْفَالُ . وَتَتَنَافَسُ فِيهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَقْيَالُ . وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهَا ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلْجُهَّالُ . إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى اَخْبَارٍ عَنِ ٱلْأَيَّامِ وَٱلدُّوَلِ . وَٱلسَّوَابِقِ مِنَ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُوَلِ . تَنْمُو فِيهَا ٱلْأَقْوَالُ وَتُضْرَبُ فِيهَا ٱلْأَمْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا ٱلْأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا ٱلِاحْتِفَالُ . وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا ٱلْأَحْوَالُ . وَٱتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا ٱلنِّطَاقُ وَٱلْمَجَالُ . وَعَمَرُوا ٱلْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ ٱلِارْتِحَالُ . وَحَانَ مِنْهُمُ ٱلزَّوَالُ . وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ . وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ . وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ ٱلْوَقَائِعِ وَاَسْبَابِهَا عَمِيقٌ . فَهُوَ لِذٰلِكَ اَصِيلٌ فِي ٱلْحِكْمَةِ عَرِيقٌ . وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ . وَإِنَّ فُحُولَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي ٱلْإِسْلَامِ قَدِ ٱسْتَوْعَبُوا اَخْبَارَ ٱلْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ ٱلدَّفَاتِرِ وَاَوْدَعُوهَا . وَخَلَطَهَا ٱلْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَهِمُوا فِيهَا وَٱبْتَدَعُوهَا . وَزَخَارِفَ مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ ٱلْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا . وَٱقْتَفَى تِلْكَ ٱلْآثَارَ ٱلْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَٱتَّبَعُوهَا . وَاَدَّوْهَا إِلَيْنَا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا اَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْاَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا .
وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْاَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا. فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ. وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ
فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ. وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْاَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ
عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ. وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ .
وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْاَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ. وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ. وَٱلْبَاطِلُ
يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ. وَٱلنَّاقِلُ اِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ
تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ اِذَا تَمَقَّلُ. وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ .
هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَخْبَارِ وَاَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْاُمَمِ
وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْاِمَامَةِ
ٱلْمُعْتَبَرَةِ. وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ ٱلْمُتَاَخِّرَةِ . هُمْ قَلِيلُونَ
لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْاَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ
اِسْحَقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ
ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْاَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ. ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ
ٱلْجَمَاهِيرِ. وَاِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ
وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْاَثْبَاتِ. وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ .
اِلَّا اَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ اَخْبَارِهِمْ . وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي
ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ. وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ
فِيمَا يَنْقُلُونَ اَوْ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي اَحْوَالِهِ تَرْجِعُ اِلَيْهَا
ٱلْاَخْبَارُ. وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ اِنَّ اَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ
لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْاِسْلَامِ فِي

ٱلآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلِهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفُقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُس وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسِجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا. وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا. ٱتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجَمَاتِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا. مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

متطلعاً بعد الى افتقاد احوال مبادىء الدول ومراتبها . مفتشاً عن اسباب تزاحمها او تعاقبها. باحثاً عن المقنع في تباينها او في تناسبها. ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار . وذهبوا الى الاكتفاء باسماء الملوك والاقتصار . مقطوعة عن الانساب والاخبار . موضوعة عليها اعداد ايامهم بحروف الغبار . كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل . وليس يعتبر لهؤلاء مقال . ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال . لما اذهبوا من الفوائد . واخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد

وقد زلت اقدام كثير من الاثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الاحاديث والآراء . وعلقت بافكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس وتلقوها هم ايضاً كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهياً مختلطاً . وناظره مرتبكاً وعد من مناحي العامة . فاذاً يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك . ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق او بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف . والقيام على اصول الدول والملل ومبادىء ظهورها واسباب حدوثها ودواعي كونها . واحوال القائمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعباً لاسباب كل

حادث واقفاً على أصول كل خبر وحينئذ يعرض الخبر المنقول على ما
عنده من القواعد والأصول. فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان
صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه. وما استكبر القدماء علم التأريخ
إلا لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن إسحاق من قبلهما
وأمثالهم من علماء الأمة. وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه
حتى صار انتحاله مجهلة واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف
مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه فاختلط المرعي بالهمل
واللباب بالقشر والصادق بالكاذب وإن لله عاقبة الأمور

واعلم أن فن التأريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة شريف
العائدة إذ هو يقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم
والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة
الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج
إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفيضان
بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط. لأن
الأخبار إذا اعتمد فيها مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد
السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا
قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها
من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيراً ما وقع
للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في حكايات الوقائع
لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً. لم يعرضوها على أصولها

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذْرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ .فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنْطِقَ فِيهِ إِلَّا بِٱلْعَدْلِ . وَأَنْ تَعْزِلَ سُلْطَانَ ٱلْهَوَى وَتَخْرُجَ مِنْ حُكْمِ ٱلْمَنْشَإِ وَٱلْمَرْبَى وَتَفْرِضَ نَفْسَكَ غَرِيبًا عَنْهُمْ وَأَجْنَبِيًّا بَيْنَهُمْ . وَثَانِيهِمَا أَنْ تُعَبِّرَ عَنِ ٱلْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقْرُبُ مِنَ ٱلْأَفْهَامِ لِتَنْتَفِعَ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ عَادِلًا عَنِ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَصْعَبَةِ ٱلَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا إِظْهَارُ ٱلْفَصَاحَةِ وَإِثْبَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَأَيْتُ مُصَنِّفِي ٱلْكُتُبِ قَدِ ٱعْتَرَضَتْهُمْ مَحَبَّةُ إِظْهَارِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ أَغْرَاضُهُمْ وَٱعْتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ ٱلْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَإِنَّ كُتُبَ ٱلتَّوَارِيخِ إِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ ٱلْإِنْصَافِ إِلَيْهَا رُئِيَتْ أَنْفَعَ مِنَ ٱلْحَمَاسَةِ ٱلَّتِي لَهِجَ ٱلنَّاسُ بِهَا وَأَخَذُوا أَوْلَادَهُمْ بِحِفْظِهَا فَإِنَّ ٱلْحَمَاسَةَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلضِّيَافَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ فِي ٱلْبَابِ ٱلْمُسَمَّى بَابَ ٱلْأَدَبِ وَٱلتَّأَنُّسِ بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِيَّةِ . وَٱلتَّأْرِيخُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْمَذْكُورَةُ . وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَأَدَوَاتُ ٱلرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا فِيهِ مَا فِي ٱلْحَمَاسَةِ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَإِنَّهُ يُفِيدُ ٱلْعَقْلَ قُوَّةً وَٱلذِّهْنَ حِدَّةً وَٱلْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ ٱلذَّكِيِّ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ ٱلْجَيِّدِ وَهُوَ أَيْضًا أَنْفَعُ مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلَّتِي ٱلنَّاسُ فِيهَا مُعْتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا رَاغِبُونَ إِذِ ٱلْمَقَامَاتُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا سِوَى ٱلتَّمَرُّنِ عَلَى ٱلْإِنْشَاءِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصَغِّرُ ٱلْهِمَّةَ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلسُّؤَالِ وَٱلْاِسْتِجْدَاءِ وَٱلتَّحَيُّلِ ٱلْقَبِيحِ عَلَى تَحْصِيلِ ٱلنَّزْرِ ٱلطَّفِيفِ فَإِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعْضُ ٱلنَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلْحَرِيرِيَّةِ وَٱلْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسٌ اِلَى نَهجِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ : فَاِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَاَدنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَاِنَّ ٱلاِنْسَانَ رُبَّمَا اَضْجَرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلاَشْغَالُ فَاِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا اَنسَتْهُ ٱلاَشْغَالُ . . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العبَّاس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(اَلْاَصْلُ ٱلْاَوَّلُ حُسْنُ ٱلِافْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ اَنوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِٱسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِافْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ اِلَى مَعْنَيَيْنِ: (ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا اِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ اِمَّا بِٱلِافْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِاَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ اِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . اَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ اَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَاِنَّ اَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلِابْتِدَاءَاتِ . (ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا اِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةِ ٱلسَّبكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِاسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجْزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ اَتَى فِي اَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . اَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ اَتَى فِي اَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ اَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي اَتَى فِي اَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِاسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ اَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَةٍ . مِثْلَ اَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ اَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ اَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ اَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ اِلَى ٱلِاسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ اَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِاسْتِخْبَارِ وَٱلِاسْتِبْطَاءِ وَٱلْإِحْمَادِ وَٱلْإِذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِساطاً لِمَا يُرِيدُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْاَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجَعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَـدَّمَاتِ اِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْـكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْـكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي اِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ اَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْاَغْرَاضِ وَاَنْ يُوضَعَ لِلْاَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدَّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْاَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوَّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلِاَقْتِصَارِ وَلَا يُقَصَّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ اَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِـكَ اَنَّ ٱلْـكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ اِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْـكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ اِلَى ٱلْاِمْلَالِ وَٱلْاِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْاَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . اَمَّا ٱلْـكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدَّمَةٌ فَاِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْاَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْـكُتُبِ فَيَلْزَمُ اَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَـهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْـكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْـكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ اَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقًا يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ اِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلاًّ فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّـهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْـكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْاَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

الكاتب قد اخل من الصناعة بمعظمها وترك من البلاغة غاية محكمها بل يجب ان بدا بخطاب رئيس او نظير او مرؤوس ان يكون ما يتخلل مكاتبته من الالفاظ على اتساق الى آخرها واطراد من غير مخالفة بينها ولا مضادة ولا مناقضة. نعم يحسن ذلك في معاتبات الاخوان والمداعبات الجارية بين الخلان . . . (الاصل الخامس) الادعية التي جرت عادة السلف وتبعهم الخلف باستعمالها في المكاتبات. والنظر فيها من ستة اوجه : (الاول) ان يعرف مراتب الدعاء ليوقعها في مواقعها ويوردها في مواردها. ويأتي ذلك في عدة ادعية منها : الدعاء باطالة البقاء والدعاء باطالة العمر . فالدعاء باطالة البقاء ارفع من الدعاء باطالة العمر . وذلك ان البقاء لا يدل على مدة تنقضي لانه ضد الفناء والعمر يدل على مدة تنقضي ولذلك يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف بالعمر . (الثاني) ان يعرف ما يناسب كل واحد من ارباب المناصب الجليلة من الدعاء فيخصه به فيأتي بالدعاء في مكاتبة الملوك بدوام السلطان وخلود الملك . والى الامراء بالدعاء بعز النصر ومداومة النعمة . والى الوزراء من ارباب الاقلام بسبوغ النعماء وتخليد السعادة ودوام المجد. والى القضاة والحكام بالدعاء بعز الاحكام . والى التجار بالدعاء بمزيد الاقبال وشبه ذلك . (والثالث) ان يعرف ما يناسب كل حالة من حالات المكاتبات فيأتي كل حالة بما يناسبها من الدعاء فتكون الادعية دالة على مقاصد الكتاب

فَإِنْ كَانَ فِي ٱلْهَنَاءِ وَٱلشُّكْرِ اَوِ ٱلتَّعْزِيَةِ اَتَى كُلاًّ بِمَا يُنَاسِبُهُ. (اَلرَّابِعُ) اَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ ٱلدُّعَاءِ عَلَى ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ ... (اَلْاَصْلُ ٱلسَّادِسُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ ٱلْمَكْتُوبَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْاَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا . كَٱلْمَقَامِ وَٱلْمَقَرِّ وَٱلْجَنَابِ وَٱلنَّادِي وَٱلْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلنُّعُوتَ . (اَلْاَصْلُ ٱلسَّابِعُ) اَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى اَمْرَيْنِ: (اَلْاَمْرُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ ٱلنِّعْمَةَ حَمِدَ ٱللّٰهَ وَإِنْ ذَكَرَ ٱلْبَلْوَى شَفَعَهَا بِٱلِٱسْتِعَانَةِ بِٱللّٰهِ وَٱلرُّجُوعِ اِلَيْهِ فِيهَا. وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ اَيْضًا اَنَّهُ اِذَا ذَكَرَ ٱلرَّئِيسَ فِي اَثْنَاءِ ٱلْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ اَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلسُّلْطَانِ : خَلَّدَ ٱللّٰهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . (اَلْاَمْرُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَتَخَطَّى ٱلتَّصْرِيحَ اِلَى ٱلتَّلْوِيحِ وَٱلْاِشَارَةِ اِذَا اَلْجَاَتْهُ ٱلْحَالُ اِلَى ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَاِظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ مِمَّا فِي ذِكْرِهِ اِطْرَاحُ مَهَابَةِ ٱلسُّلْطَانِ وَاِسَاءَةُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ اِخْلَالُ ٱلْاَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ اَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ ٱلْمُنْشِئُ اِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ وَٱلتَّلَطُّفِ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنًى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ . وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ اِلَّا ٱلْمُبْرِزُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ . . (اَلْاَصْلُ ٱلثَّامِنُ) اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِينَ فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ مِنَ ٱللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ اَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱللَّفْظِ وَمَا

يصل اليه فهمه من الخطاب (استشهاد من كتاب الصناعتين)..

(الاصل التاسع) ان يراعي رتبة المكتوب عنه والمكتوب اليه في الخطاب فيعبر عن كل واحد منهما بما يليق به . ويخاطب المكتوب اليه بما يليق بمقامه . فاما المكتوب عنه فيختلف الحال فيه باختلاف منصبه ورتبته فيعبر في الكتب الصادرة عن ابواب الخلافة بامير المؤمنين مثل ان يقال : فجرى امر امير المؤمنين في كذا على كذا . واوعز امير المؤمنين الى فلان بكذا واقتضى رأي امير المؤمنين كذا وهلم جرا.وكذلك ان يعرف قدر المكتوب اليه من الرؤساء والنظراء والعلماء والوكلاء ليفرق بين من يكتب اليه.. الا ترى انك لو خاطبت سلطانا او وزيرا بالتعزية عن المصيبة من مصائب الدنيا لما جاز ان تبني الكلام على وعظه وتبصيره وارشاده وحضه على الاخذ بحظ من الصبر .. وانما الصواب ان تبني الخطاب على انه اعلى شأنا وارفع مكانا من ان يعزى بخلاف المتاخر في الرتبة فانه انما يعزى تنبيها وتذكيرا وتصبيرا وتعريفا للواجب في تلقي السراء بالشكر والضراء بالصبر ..

(الاصل العاشر) ان يراعي مواقع الآيات والسجع في الكتب وذكر ابيات الشعر في المكاتبات ...



الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاوَّل

في حسن الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيس لِأَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ عَلَى قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ إِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوَهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْأُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَجَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَإِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ إِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ إِلَّا ٱلْكَلَامَ فَإِنَّكَ إِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِي مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزَّنْجِيِّ وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَأَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ إِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقعَ لِلْاوَّلِ وقعَ لِلآخِرِ . وَهٰذَا اَمرٌ عَرَفْتُـهُ مِنْ نَفسِي فَلَستُ اَمتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : اِنَّ مَنْ اَخذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ اَخذَهُ فَكَسَاهُ لَفظًا مِنْ عِنْـدِهِ اَجْوَدَ مِنْ لَفظِهِ كَانَ هُوَ اَولَى بِهِ مِمَّنْ تَقدَّمهُ . وَقَالُوا : اِنَّ اَبا عُذرَةِ الْكَلَامِ مَنْ سَبكَ لَفظَهُ عَلَى مَعنَاهُ . وَمَنْ اَخذَ مَعنًى بِلَفظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى اَنَّ اَبتِكَارَ الْمَعْنَى وَالسَّبقَ اِلَيْهِ لَيسَ هُوَ فضِيلَةً تَرْجِعُ اِلَى الْمَعْنَى وَاِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ اِلَى الَّذِي ابتَكَرَهُ وَسبَقَ اِلَيهِ . فَالْمَعنَى الْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَاِنْ كَانَ مَسْبُوقًا اِلَيهِ . وَالْوَسَطُ وَسَطٌ وَالرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا اِلَيْهِمَا . وَقَدْ اَطبَقَ الْمُتَقَدِّمُونَ وَالْمُتَاَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ الْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيسَ عَلَى اَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ اِلَّا اِذَا اَخذَهُ بِلَفظِهِ كُلِّهِ وَاَخذَهُ فَاَفسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا اَخذَ الشَّاعِرُ الْقَوْلَ الْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ النَّابِغَةُ فَاِنَّهُ اَخذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ النابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ　　لَا النُّورُ نُورٌ وَلَا الْاِظْلَامُ اِظْلَامُ

وَاَخذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ :

هُوَ الشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَاَفضَلَتْ
عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَاِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ　　اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَّبِعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ. أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلُهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ فَمِمَّنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَبَالِ ٱلرَّبَعِيِّ :

أُولَئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى   وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى   أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا   وَأَحْسُدُهَا إِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : أَنَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ إِلَيْهِ فَأَحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهِبُّ إِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

إِذَا هَبَّتِ ٱلْأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ   وَجَدْتُ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ إِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ   وَبَيْنَ سَوَادِ لِحْيَتِهِ عِذَارَا

لِأَنَّ ٱلْإِغْمَادَ فِيهِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ أَبُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ أَطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا   مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْأَنَابِيبُ

فَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ إِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ   غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمْرُ ٱلْجَمَاجِمِ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ . وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

أَشَمُّ طُوَالُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا ... يُلَاثُ نِجَادَا سَيْفِهِ بِلِوَاءِ

أَحْسَنُ لَفْظًا وَسَبْكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي ٱبْنَيْ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ ٱلْمَخَايِلِ فِيهِمَا ... لَوْ أُمْهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا ... لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

إِنَّ ٱلْهِلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ ... أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

أَحْسَنُ وَأَجْوَدُ مِمَّا أَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي وَهُوَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ ... لَوَ ٱنَّ ٱلْمَنَايَا أَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ ٱلْفَرَزْدَقِ مَعَ أَبْيَاتِ أَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَأَخَذَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَامَرَتْنِي ٱلنَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا ... إِلَى أَحَدٍ إِلَّا إِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طَوَّفْتُ فِي ٱلْآفَاقِ إِلَّا ... وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ ٱلظَّنِّ عِنْدَكَ وَٱلْأَمَانِي ... وَإِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي ٱلْبِلَادِ

وَإِلَى بَيْتِ ٱلْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ ٱلْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِٱلَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ قُلْتُهُ
وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ ٱلَّذِي بَعْدِي

وَكُنتُ إِذَا هَيَّأْتُ مَدْحاً لِمَاجِدٍ
أَتَانِي ٱلَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى ٱلَّذِي عِندِي

وَمِنْ هَا هُنَا أَخذَ أَبو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ   فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ ٱلَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ ٱلأَلْفَاظُ يَوْماً بِمِدْحَةٍ   لِغَيْرِكَ إِنْسَاناً فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْخَنْسَاءِ :

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً   وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ   لَبِسَتْهُمُ ٱلأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِن قَوْلِ ٱلأَوَّلِ :

لَبِسُوا ٱلْقُلُوبَ عَلَى ٱلدُّرُو   عِ مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنَّ ٱلنَّدَى حَيْثُ تَرَى ٱلضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ ٱلْحَبْـ   ـبُ وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاءِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلآخَرِ :

يَزْدَحِمُ ٱلنَّاسُ عَلَى بَابِهِ   وَٱلْمَشْرَبُ ٱلْعَذْبُ كَثِيرُ ٱلزِّحَامْ

وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ ٱللهِ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ ٱحْتِسَاباً سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو ٱلْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وقَالَ عَلِيٌّ فِي التَّعازِي لِأَشْعَثٍ وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ الْمَآثِمِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً فَتُؤْجَرَ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ الْبَهَائِمِ
خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْأَسَى وَتِلْكَ الْغَوَانِي لِلْبُكَا وَالْمَآتِمِ

وَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ . وَإِنَّمَا التَّسْلِيمُ وَالسَّلْوَةُ لِحَزْمَاءِ الرِّجَالِ . وَإِنَّ الْهَلَعَ وَالْجَزَعَ لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي الْأَسْوَدِ . لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَأَسْتَعْمَلْتُكَ . فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا كَأَنَّ الْمَجْدَ يُدْرَكُ بِالصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ الْخَاسِرُ فَقَالَ :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا الْبَيْتَ قَالَ : ذَهَبَ الْخَبِيثُ بِبَيْتِي . وَمِنْ حُسْنِ الْاِتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ : إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ الثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ الْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ الْمُحْسِنُ فِي الْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَانْقَادَ الْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ : يَجِبُ عَلَى الْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ . فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ الْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ الْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا اَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ اُمْسِكَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ اَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ اِحْسَانَكَ لَاَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ اَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . اَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالَ ٱلسِّدَادُ فَمِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ ... لٰكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ

حَالٌ تَصِيحُ بِمَا اَوْلَيْتَ مُعْلِنَةٌ ... وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ ... فَمَا يُدَاوِيكُمُ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ اَحْسَنَ ٱلِاتِّبَاعَ اَيْضًا اَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا اُتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : اَحَقُّ مَنْ اَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَاَخَذَهُ اَخْذًا ظَاهِرًا اَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ اِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَاَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَاَسْتَبْطِئَ دَرَكَ مَا اُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا اَيْضًا قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ اِلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى اَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَاَخْبَرَ ٱلْاَخْفَشُ قَالَ : قَالَ اَبُو تَمَّامٍ لِاَبْنِ اَبِي دُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : اَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

ٱبْنُ أَبِي رُؤَادٍ : مَا أَحسَنَ هٰذَا مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ وَلَيسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . أَنْ يَجمَعَ ٱلْعَالَمَ فِي وَاحِدِ وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلْكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ　　رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيبٌ ٱلْمُعتَزِلِيُّ أَبيَاتًا لِلعُتْبِيِّ وَهِيَ :

أَفَلَتْ بَطَالَتُـهُ وَرَاجَعَهُ　　حِلْمٌ وَأَعقَبَهُ ٱلْهَوَى نَدَمَا

أَلْقَى عَلَيهِ ٱلدَّهرُ كَلْكَلَهُ　　وَأَعَارَهُ ٱلْإِقْتَارَ وَٱلْعَـدَمَا

فَإِذَا أَلَمَّ بِهِ أَخُو ثِقَـةٍ　　غَضَّ ٱلْجُفُونَ وَمَجمَجَ ٱلْكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعضِ ٱلْمُلُوكِ يَستَعطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيسَ هُوَ ٱلْيَوْمَ كَمَا كَانَ أَمسِ إِنَّهُ وَحَيَاتِكَ أَفَلَتْ بَطَالَتُهُ إِيْ وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَأَعقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلْهَوَى نَدَمًا أَلْقَى ٱلدَّهْرُ عَلَيهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجمَجَ كَلَامَهُ . وَبِهٰذَا يُعْرَفُ أَنَّ حَلَّ ٱلْمَنظُومِ وَنَظْمَ ٱلْمَحْلُولِ أَسهَلُ مِنِ ٱبْتِدَائِهِمَا لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا حُلَّتْ مَنظُومًا أَوْ نُظِمَتْ مَنثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَنحَـلُّ أَوْ تَنقُصُ مِنهَا شَيْئًا فَتَنتَظِمُ . وَإِذَا أَرَدتَّ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدتَّ ٱلْمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنكَ فَتَحتَاجُ إِلَى فِكْرٍ يُحضِرُكَهَا وَٱلْمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعرِ عَلَى أَربَعَـةِ أَضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنهَا يَكُونُ بِإِدْخَالِ لَفظَةٍ بَيْنَ أَلفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يُحَلُّ بِتَأْخِيرِ لَفظَةٍ مِنهُ وَتَقدِيمِ أُخْرَى فَيَحسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَستَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يُحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجهِ وَلَا يَحسُنُ وَلَا يَستَقِيمُ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ فَمِثَالُـهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صَدْرِ كَلَامِ قُلَيْبِ ٱلْمُعْتَزِلِيِّ . وَامَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي فَمِثَالُهُ مَا ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

نَطْلُبُ ٱلْاَكْثَرَ فِي ٱلدُّنْيَا وَقَدْ تَبْلُغُ ٱلْحَاجَةُ فِيهَا بِٱلْاَقَلْ

ثُمَّ قَالَ : فَاِذَا نَثَرْتَ ذٰلِكَ وَلَمْ تَزِدْ فِي اَلْفَاظِهِ شَيْئًا قُلْتَ : نَطْلُبُ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْاَكْثَرَ وَنَبْلُغُ مِنْهَا ٱلْحَاجَةَ بِٱلْاَقَلِّ . فَامَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ فَهُوَ اَنْ تُوضَعَ اَلْفَاظُ ٱلْبَيْتِ فِي مَوَاضِعَ لَا يَحْسُنُ وَضْعُهَا فِي غَيْرِهَا فَيَنْحَلُّ اِذَا نُثِرَ بِتَأْخِيرِ لَفْظٍ وَتَقْدِيمِ آخَرَ فَيَحْتَاجُ نَثْرُهُ اِلَى ٱلنُّقْصَانِ مِنْهُ وَٱلزِّيَادَةِ فِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ اَيْضًا :

يُسَرُّ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ مُضَلَّلٌ وَعُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا

وَلَمْ اَرْتَضِ ٱلدُّنْيَا اَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ ٱرْتِضَائِيهَا اَوَانَ ذَهَابِهَا

فَاِذَا نُثِرَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ قِيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بِعُمْرَانِ ٱلدُّنْيَا وَمِنْ خَرَابِهَا عُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ وَلَمْ اَرْتَضِ اَوَانَ مَجِيئِهَا ٱلدُّنْيَا فَكَيْفَ اَوَانَ ذَهَابِهَا ٱرْتِضَائِيهَا . فَهٰذَا نَثْرٌ فَاسِدٌ فَاِذَا غَيَّرْتَ بَعْضَ اَلْفَاظِهِ حَسُنَ وَهُوَ اَنْ تَقُولَ : يُسَرُّ ٱلْمُضَلَّلُ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ وَاِنَّمَا يُسْتَأْنَفُ عُمْرَانُهَا مِنْ خَرَابِهَا . وَمَا ٱرْتَضَيْتُ ٱلدُّنْيَا اَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ اَرْتَضِيهَا اَوَانَ ذَهَابِهَا . وَنَحْنُ نَقُولُ اِنَّ مِنَ ٱلنَّظْمِ مَا لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ اَصْلًا بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ وَتَقْدِيمِ اُخْرَى مِنْهُ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلزِّيَادَةُ وَٱلنُّقْصَانُ . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ اِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

فَٱلْمِصْرَاعُ ٱلْاَوَّلُ يُمْكِنُ اَنْ تُؤَخَّرَ اَلْفَاظُهُ وَتُقَدَّمَ فَيَصِيرُ نَثْرًا

مُستَقِيماً وَهُوَ اَنْ تقُولَ : فُؤَادُ ٱلفتَى نِصفٌ وَلِسانُهُ نِصفٌ . وَلَا يُمكِنُ فِي ٱلْمِصْرَاعِ ٱلثَّانِي ذٰلِكَ حَتَّى تَزِيدَ فِيهِ اَوْ تنقُص مِنهُ لِاَنَّ ٱلْمِصرَاعَ ٱلثَّانِي اِنَّمَا هُوَ تذييلٌ لِلمِصْرَاعِ ٱلْاَوَّلِ فَاِذَا اردتَّ اَنْ تَحُلَّهُ حَلاًّ مُقتَصِرًا بِغَيْرِ لَفظِهِ قُلتَ : ٱلْاِنسَانُ شَطْرَانِ لِسَانٌ وَجَنَانٌ . وَمِمَّا لَا يُمكِنُ حَلُّهُ بِتَقدِيمِ لَفظَةٍ مِنهُ وَتَأْخِيرِ اُخرَى اَيضًا قَولُ اَبِي نُوَاسٍ :

اَلَا يَاٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا   اَمَا وَٱللهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبقَى

فَتَحتَاجُ فِي نَثرِهِ اِلَى تَغيِيرِهِ وَاِبدَالِ اَلفَاظِهِ فَتَقُولُ : اَلَا يَاٱبْنَ ٱلَّذِينَ مَاتُوا وَمَضَوْا وَطَعَنُوا فَنَاَوْا فَوَٱللهِ مَا ظَعَنُوا لِتُقِيمَ وَمَا رَامُوا اِلَّا لِتَرِيمَ . وَلَا مَاتُوا لِتَحيَا وَلَا فَنُوا لِتَبقَى . وَفِي هٰذِهِ ٱلْاَلفَاظِ طُولٌ وَلَيسَ بِضَائِرٍ عَلَى مَا خَبَّرْتُكَ فَاِنْ اَردتَّ ٱختِصَارَهُ قُلتَ : اَمَا وَٱللهِ اِنَّ ٱلْمَوتَ لَمْ يُصِبْكَ فِي اَبِيكَ اِلَّا لِيُصِيبَكَ فِيكَ . وَٱلضَّربُ ٱلرَّابِعُ اَنْ تَكسُوَ مَا تَحُلُّهُ مِنَ ٱلْمَنظُومِ اَلفَاظًا مِنْ عِندِكَ . وَهٰذَا اَرفَعُ دَرَجَاتِكَ . وَمِنهُ مَا قَالَ بَعضُهُمْ لِلرَّبِيعِ بْنِ خَيثَمٍ وَقَدْ رَاَى ٱجتِهَادَهُ فِي ٱلعِبَادَةِ : قَتَلتَ نَفسَكَ . فَقَالَ : رَاحَتَهَا اَطلُبُ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

سَاَطلُبُ بُعدَ ٱلدَّارِ مِنكُمْ لِتَقرُبُوا   وَتَسكُبُ عَينَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجمُدَا

وَمِنهُ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصرِيِّ فَقَالَ نَثرًا : اِنَّ ٱمرَاً لَمْ يَعُدَّ بَينَهُ وَبَينَ آدَمَ اِلَّا اَبًا مَيْتًا لَمُعرَقٌ لَهُ فِي ٱلْمَوتِ . فَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ فَقَالَ :

وَمَا ٱلنَّاسُ اِلَّا هَالِكٌ وَٱبْنُ هَالِكٍ   وَذُو نَسَبٍ فِي ٱلْهَالِكِينَ عَرِيقُ

وَسَمِعَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ قَولَ اَبِي تَمَّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نَعُمُّ بِهَا حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ تَزِلِ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ. فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ. وَقِيلَ لِلْعَتَابِيِّ: بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ. فَقَالَ: بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ:

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ. وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَجُنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الِاكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ:

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ
فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ
وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ:

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَأَتْبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الِاتِّبَاعَ فَقَالَ:

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا
فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا أَلطَفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهْرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى أَنَّهُ مُسْتَجْمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلْتُ يَا قَوْمُ إِنَّ ٱللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ لِلْوَثْبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي ٱلْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسْرَتُهُ ٱلْعَلَاءَ وَإِنَّمَا قَصَدُوا بِذٰلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلْأَفْوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فِي مَعْنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْأَفْوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيْرَ عَلَى أَرْمَاحِنَا رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوْا بِٱلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَأَيَّا ٱلطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِٱلشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَوْلُ مُسْلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

اَقامتْ معَ ٱلرَّاياتِ حتّى كأنَّها مِنَ ٱلْجيشِ إلّا انها لا تُقاتِلُ

وَقَوْلُهُ: (اَقامتْ معَ ٱلرَّاياتِ زِيادةٌ) وزادَ عليهِمْ بعْضُ ٱلمُحْدَثِينَ فقالَ:

حتّى تكادَ على اَحيائِهِمْ تقعُ

وَقالَ اَبو تَمّام:

هِمّةٌ تنطَحُ ٱلنُّجُومَ وَجدٌّ آلِفٌ لِلحضيضِ فهوَ حضيضُ

اَخذهُ ٱلبُحتُرِيُّ فَحسَّنَهُ وَهُوَ قولُهُ:

مُتَحيِّرٌ يَغدُو بِعزمٍ قائمٍ في كلِّ نائبةٍ وَجدٍّ قاعِدِ

وَمِمّا اَخذهُ مِنْ اَبِي تَمّامٍ فقسَّمهُ تقسيماً حسناً قولُهُ:

مَلِكٌ لهُ في كلِّ يومِ كَرِيهةٍ اِقدامُ غِرٍّ وَٱعْتِزامُ مُجرِّبِ

هُوَ مِنْ قولِ اَبِي تَمّامٍ:

وَمُجرَّبونَ سَقاهُمُ مِنْ بأسِهِ فَإِذا لُقُوا فَكأنّهُمْ اَغمارُ

وَقالَ اَبو ٱلعَتاهِيَةِ:

كَمْ نِعمةٍ لا يُستَقلُّ بِشُكرِها لِلّهِ في طَيِّ ٱلمَكارِهِ كامِنَهْ

اَخذهُ اَبو تَمّامٍ فقالَ:

قَدْ يُنعِمُ ٱللهُ بِٱلبَلْوَى وَإِنْ عَظُمتْ وَيَبْتَلِي ٱللهُ بعضَ ٱلقومِ بِٱلنِّعَمِ

فَزادَ عَلَيهِ لِأَنَّهُ اَتى بِعَكسِ ٱلمَعنَى وَقالَ اَبو تَمّامٍ:

رَأَيتُ رَجائِي فِيكَ وَحدَكَ هِمّةً وَلٰكِنّهُ فِي سائِرِ ٱلنّاسِ مَطمَعُ

فَأَخذهُ ٱلبُحتُرِيُّ فَٱختَصرهُ فقالَ:

ثَنَى اَمَلِي فَٱحتازَهُ عَنْ مَعاشِرٍ يَبِيتُونَ وَٱلآمالُ فِيهِمْ مَطامِعُ

فَاخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَقَالَ :

بِهِ صَدَقَ ٱللهُ ٱلْاَمَانِي حَدِيثَهَا وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَٱلْامَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ ابُو تَمَّامٍ :

اَنْضَرَتْ اَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ ٱلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمًا وَٱلْغُصْنُ سَاقًا وَٱلْقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا اوردتُّ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ ٱلْاَخْذِ اَنْ تَعْمِدَ اِلَى ٱلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ اَوْ اَكْثَرِهِ اَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَٱلْمَعْنَى اِنَّمَا يَحْسُنُ بِٱلْكُسْوَةِ. اَخْبَرَ بَعْضُ اَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : اِنَّا اِذَا سَمِعْنَا ٱلْحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : اِنِّي اَجِدُهُ عَارِيًا فَاَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . اَيْ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمِمَّا اُخِذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَادَّعَى آخِذُهُ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ كَمَا سُئِلَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ عَنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ ٱلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلْقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلْبُعَيْثُ :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا ... بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا ... بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلْأَخْذُ إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَإِنِ ٱدَّعَى ٱلْآخِرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلْأَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَإِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْعَيْبُ لَازِمٌ لِلْآخِرِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا أَنَّ أَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَأَنْشَدْتُ ٱلصَّاحِبَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ أَظِلَّةٍ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْأَخْذِ ٱلْمُسْتَهْجَنِ أَنْ يَأْخُذَ ٱلْمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ أَوْ يُعَرِّضَهُ أَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرْذَلَةٍ . وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي كَرِيمَةَ :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ ٱلَّذِي قَفَا ... هُ وَجْهٌ يُشْبِهُ ٱلْبَدْرَا

وَاِنَّمَا اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

بَزَّ حُسْنَ ٱلْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ بِقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ : اَيُفَاخِرُكَ ٱبْنُ جَفْنَةَ وَٱللَّاتِ لَأَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَذَالُكَ اَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلَيَسَارُكَ اَسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ اَكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ اَكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ اَشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ اَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ اَصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ اَرْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفِتْرُكَ اَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَأُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ اَبِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ ٱلْوَرَّاقِ :

اِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ ٱللّٰهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ ٱلشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ ٱلشُّكْرِ اِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَاِنْ طَالَتِ ٱلْاَيَّامُ وَٱتَّصَلَ ٱلْعُمْرُ

اِذَا مَسَّ بِٱلسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَاِنْ مَسَّ بِٱلضَّرَّاءِ اَعْقَبَهَا ٱلْاَجْرُ

وَمَا مِنْهُمَا اِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ ... تَضِيقُ بِهَا ٱلْاَوْهَامُ وَٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ

فَقَالَ وَاَسَاءَ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اِنَّ ٱللّٰهَ ذُو نِعَمٍ ... لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِٱلشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا

شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ ... شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهٰذَا مِثَالُ قُبْحِ ٱلْاَخْذِ فَٱعْلَمْهُ . وَاَخَذَ ٱبْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فيالائمي دعني أغالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه

فأخذه بلفظه وأخرجه بغيضاً متكلفاً . والجيد قول الآخر : (فقيمة كل امرئ علمه) فهذا وإن كان أخذه ببعض لفظه فإن بيته أحسن موقعاً منه من بيت ابن طباطبا. ومما قصر فيه البحتري قوله :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى ... مشغوفة بمواطن الكتمان

أخذه من قول عمرو بن معدي كرب :

والضاربين بكل أبيض مرهف ... والطاعنين مجامع الأضغان

فإن قوله (مجامع الأضغان) أجود من قوله: مواطن الكتمان لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم فإذا وقع الطعن في موضع الضغن فذاك غاية المراد . وأنشد عبد الرحمن عن عمه :

حرام على أرماحنا طعن مدبر ... وتندق قدماً في الصدور صدورها

مسلمة أعجاز خيلي في الوغى ... مكلمة لباتها ونحورها

أخذه أبو تمام فقال :

أناس إذا ما استحكم الروع كسروا

صدور العوالي في صدور الكتائب

فأحسنا جميعاً ومثله قول الآخر :

يلقى السيوف بنحره وبوجهه ... ويقيم هامته مقام المغفر

ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا ... فهدمت ركن المجد إن لم يعقر

ومثله قول بكر بن النطاح :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ   وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ   لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ أَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا أَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ أَدْنَاهَا مَرْتَبَةً أَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا قَدْ أُتْقِنَ نَظْمُهُ وَأُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نَثَرَ ٱلشِّعْرَ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

وَأَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ
أَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ ٱلنَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

(فَيُقَالُ) فِي نَثْرِ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ : فَكَمْ لَقِيَ ٱلْأَلَدَّ ذَا حَنَقٍ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلْكَوَاكِبِ مِنْ عَلِ وَتَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فَكَوَاهُ فَوْقَ نَاظِرَيْهِ وَأَكَبَّهُ لِفَمِهِ وَيَدَيْهِ . فَلَمْ يَزِدْ هٰذَا ٱلنَّاثِرُ عَلَى أَنْ أَزَالَ رَوْنَقَ ٱلْوَزْنِ وَطَلَاوَةَ ٱلنَّظْمِ لَا غَيْرُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ ضَرْبٌ مَحْمُودٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْبَيْتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَدْ تَضَمَّنَ شَيْئًا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ لَفْظِهِ فَحِينَئِذٍ يُعْذَرُ نَاثِرُهُ إِذَا أَتَى بِذٰلِكَ ٱللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْأَمْثَالُ ٱلسَّائِرَةُ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا عَلَى مَا جَاءَتْ فِي ٱلشِّعْرِ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّالِثِ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ وَهُوَ أَنْ يَنْثُرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَنْظُومَ بِبَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَيُعَبِّرَ عَنِ ٱلْبَعْضِ بِأَلْفَاظٍ أُخَرَ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ ٱلصَّنْعَةُ فِي ٱلْمُمَاثَلَةِ وَٱلْمُشَابَهَةِ وَمُؤَاخَاةِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَاقِيَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُرْتَجَلَةِ فَإِنَّهُ إِذَا أَخَذَ لَفْظًا لِشَاعِرٍ مُجِيدٍ قَدْ نَقَّحَهُ وَصَحَّحَهُ فَقَرَنَهُ بِمَا لَا يُلَائِمُهُ كَانَ كَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ لُؤْلُؤَةٍ وَحَصَاةٍ . وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْانْتِصَابِ لِلْقَدْحِ وَٱلْاسْتِهْدَافِ لِلطَّعْنِ وَٱلطَّرِيقُ ٱلْمَسْلُوكُ إِلَى هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَنْ تَأْخُذَ بَعْضَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ هُوَ أَحْسَنُ مَا فِيهِ ثُمَّ تُمَاثِلَهُ . وَسَأُورِدُ هٰهُنَا مِثَالًا وَاحِدًا لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُتَعَلِّمِ (فَأَقُولُ) : قَدْ وَرَدَ هٰذَا ٱلْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

وَحداء تَمْلأُ كُلَّ أُذنٍ حِكْمَةً　　وَبلاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

فَقَوْلُهُ (تَمْلأُ كُلَّ أُذنٍ حِكْمَةً) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْحَسَنِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا فِي ٱلْبَيْتِ فَإِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَنْثُرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِنِ ٱسْتِعْمَالِ لَفْظِهِ بِعَيْنِهِ لِأَنَّهُ فِي ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤَاخِيَهُ بِمِثْلِهِ وَهٰذَا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ أَصْعَبُ مِثَالًا مِنْ نَثْرِ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِأَنَّهُ مَسْلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجُودَةِ . وَأَمَّا نَثْرُ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ فَذٰلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضْطَرُّ إِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَدْ نَثَرْتُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْمُشَارَ إِلَيْهَا وَأَتَيْتُ بِهَا فِي جُمْلَةِ كِتَابٍ فَقُلْتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱشْتَهَرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ . وَإِذَا عُرِفَ ٱلْكَلَامُ صَارَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَأُمِنَ مِنْ سَرِقَتِهِ إِذْ لَوْ سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْوَسَامَةُ . وَمِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِهِ أَنْ يَمْلأَ كُلَّ أُذنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَانٍ عُجْمَةً . وَإِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلْأَفْهَامِ قَالَتْ : أَهٰذِهِ بِنْتُ فِكْرَةٍ أَمْ بِنْتُ كَرْمَةٍ . فَٱنْظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَإِنِّي لَمَّا أَخَذْتُ تِلْكَ ٱلْكَلِمَاتِ مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْتَزَمْتُ بِأَنْ أُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا أَوْ أَحْسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيلُهُ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَعْلَى مِنَ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْأَوَّلَيْنِ فَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ ٱلْمَعْنَى فَيُصَاغَ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ أَلْفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذْقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعْلَمُ مِقْدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ ٱلزِّيَادَةَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتِلْكَ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعَالِيَةُ وَإِلَّا أَحْسَنَ ٱلتَّصَرُّفَ وَأَتْقَنَ ٱلتَّأْلِيفَ لِيَكُونَ أَوْلَى بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ ٱلْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلسَّيَّالَةِ فِي ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ أَجْوِبَةٍ . وَمِنَ ٱلْأَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ ٱلْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ ٱلْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ ٱلنَّظِيرِ . . . وَإِذَا ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلَامُ إِلَى هٰهُنَا فِي ٱلتَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ ٱلشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا أَوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ ٱلدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِٱلْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ ٱلشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ أَنْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ فَيَنْثُرُهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى ٱلتَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ أَنْ يَنْثُرَ ٱلشِّعْرَ بِأَلْفَاظِهِ أَوْ بِأَكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرِنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ٱرْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ ٱلدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ ٱلْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ ٱلْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ أَنْ يُكْثِرَ ٱلْإِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالَ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا أَوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ ٱلْمَعَانِي فِي

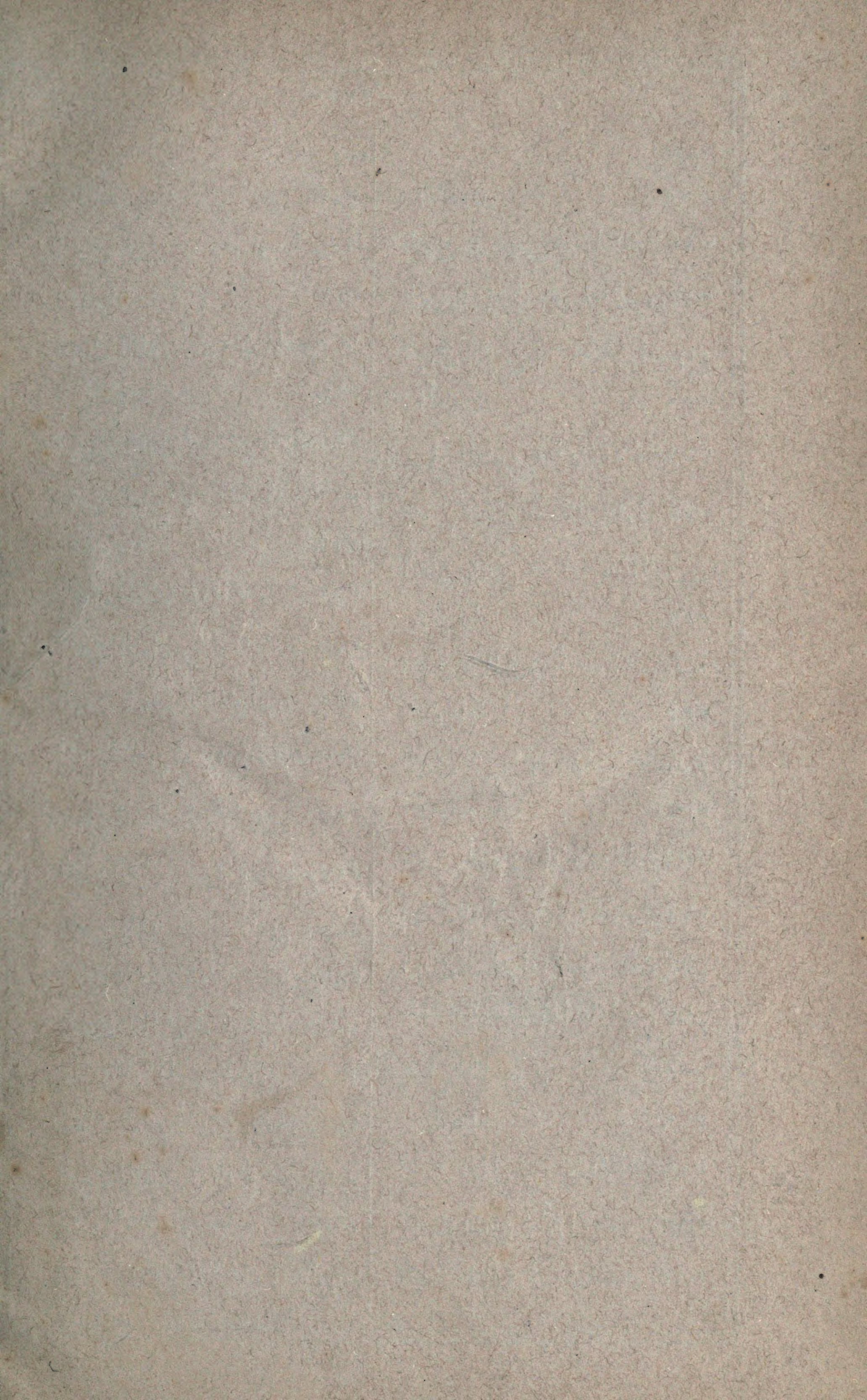
أثناء كلامه وجاءت ألفاظه معسولة مغسولة وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص رقصاً . وهذا شيء خبرته بالتجربة ولا ينبئك مثل خبير

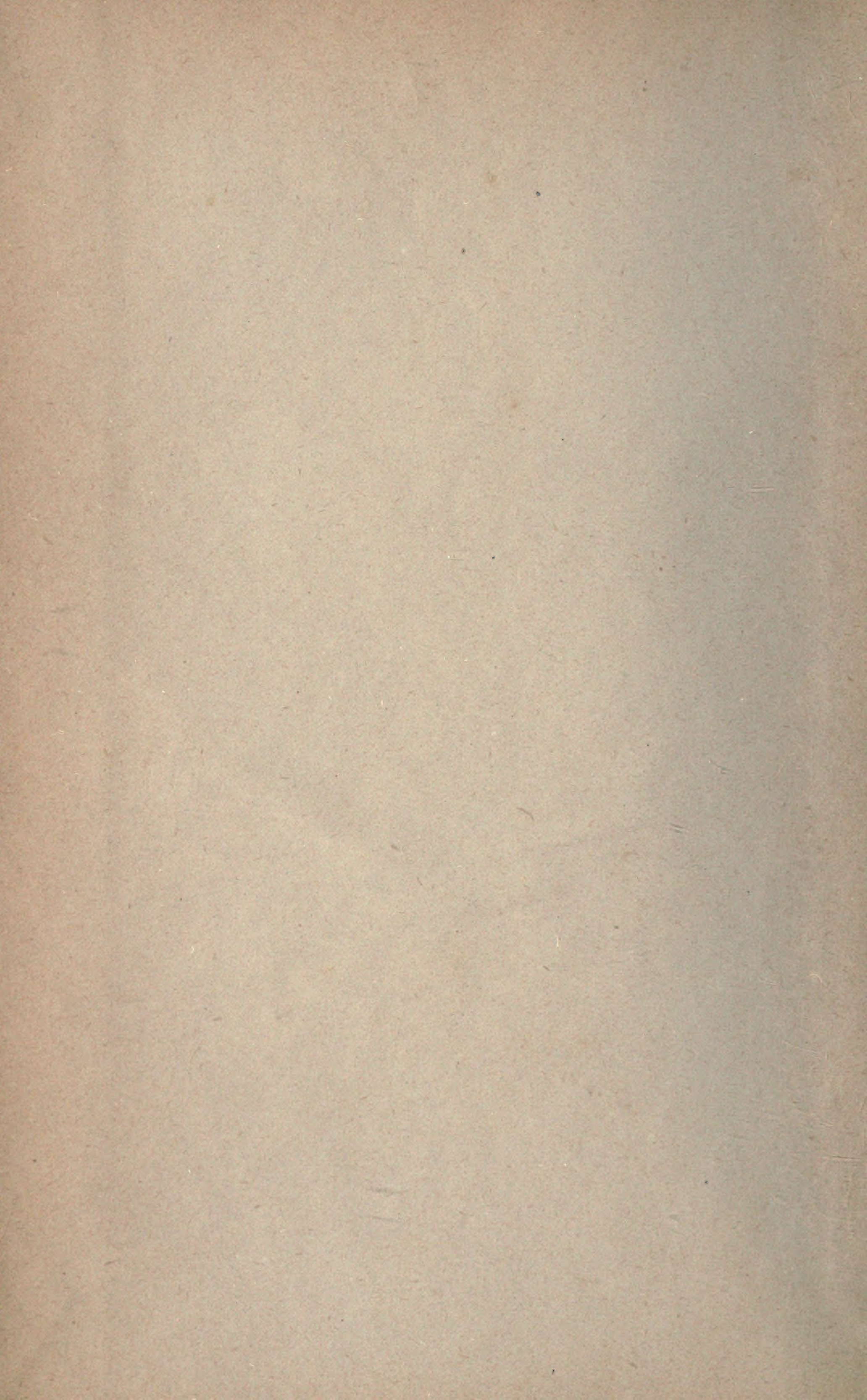
تمّ بعونه تعالى



فهرس

المقالات







بعض كتب المطبعة الكاثوليكية

كتب مدرسية عربية

القواعد الجلية في علم العربية تأليف الاب جبرائيل اده اليسوعي طبعة جديدة مصححة مع حواشٍ وهو جزءان

بحث المطالب للسيد جرمانوس فرحات مع حواشٍ عليهِ لمصححهِ المعلّم سعيد الخوري الشرتوني

مرقاة الطلاب في مبادي علم الحساب

مسائل مقتطفة في علم الحساب

جداول الافعال

الالفاظ الكتابية لعبد الرحمان الهمذاني اعتنى بضبطهِ وتهذيبهِ احد الاباء اليسوعيين مدرّس البيان في كلية القديس يوسف

الشهاب الثاقب في صناعة الكاتب انشأهُ المعلّم سعيد الخوري الشرتوني معلم اللغة وآداب الانشاء في كلية القديس يوسف اقترحهُ عليهِ احد الاباء اليسوعيين

لطائف الاقوال في امثالٍ وقصصٍ مقتطفة افادةً للمدارس للاب بوناونتورا جيرودو اليسوعي

دفاتر لتعليم الخط العربي على طريقة مستحدثة

معرض الخطوط العربية وضع لتمرين احداث المدارس على قراءة ما ورد لهم من اصناف الكتابات ومطالعة عويص الخطوط ومستغلق الرسالات

هدية الاحباب في علم الحساب تأليف ميخائيل اصاف اللبناني

مائة حكاية تأليف كريستوفوروس شميد معربة بقلم ميخائيل بن فرنسيس المسابكي

مجاني الادب في حدائق العرب جمع احد الاباء اليسوعيين مدرس البيان في كلية القديس يوسف سبعة اجزاء

مرقاة المجاني لجامع مجاني الادب جزءان

مختصر الجغرافية تأليف جديد للاب كسافاريوس ابوجي اليسوعي

ديوان ابي العتاهية اعتنى بجمعهِ وضبطهِ احد الاباء اليسوعيين

مختصر في الصرف لشرح جدول الافعال تأليف احد الاباء اليسوعيين

تمارين على كتاب القواعد الجليَّة في علم العربيَّة تأليف المعلّم رشيد الشرتوني

فقه اللغة لابي منصور الثعالبي اعتنى بجمعهِ وضبطهِ احد الاباء اليسوعيين مدرّس البيان في كليَّة القديس يوسف